

السيرة النبوية

محمد رسول الله
والذي معه

العبد تانيون

عبد محمد جودة النجار

دار مصر للطباعة
سعيد جودة السحار وشركاه

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا
ما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله

أحمد بن محمد بن أحمد

أحمد بن محمد بن أحمد
أحمد بن محمد بن أحمد

أحمد بن محمد بن أحمد

أحمد بن محمد بن أحمد
أحمد بن محمد بن أحمد

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ * قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبُّ إِلَيْكُمْ مِنْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ﴾ .

(قرآن كريم)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿ لإيلاف قريش * إيلافهم رحلة الشتاء والصيف * فليعبدوا رب هذا البيت * الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ﴾ .

(قرآن كريم)

١

الحرب دائرة بين عدنان وبختنصر في حصوراء ، وقد غصت معابد اللات وذى الشرى والعزى ورب البيت بالكهان والشيوخ والنساء والأطفال يتهلون لألهتهم أن تؤبد بنصرها عدنان ، ويقدمون إليها القرابين ويحرقون البخور ، فغطيت عاصمتهم البتراء بسحب كثيفة من الدخان ، وتجاوبت في أرجائها الصلوات وترددت أناشيد الكاهنات والمغنيات ، وانهمرت الدموع من العيون تعبر عما تزخر به قلوبهم المؤمنة من انفعالات .

وفي هجعة الليل خرج معد وعك ابنا عدنان من أرض النبط ، وسارا ومن خرج معهما في وادى موسى ، وخلفوا وراءهم عاصمتهم البتراء التي امتلأت بمعابد اللات والعزى والأصنام الأخرى التي جلبت من بابل ودمشق ومصر ، ولم تأخذ القافلة معها « شيع القوم » إله القوافل ، فقد كان معد على الرغم من حداثة سنه ينفر من عبادة الأوثان .

كان بنو إسماعيل يعبدون الله وحده ويعظمون الكعبة ، فلما تفسحوا في الأرض أخذوا معهم حجارة من البيت المعظم ليتبركوا بها ، فلما هزمهم الشوق إلى البيت المحرم وبعدت بينهم وبين البيت الأسباب أخرجوا حجارة البيت ووضعوها وطافوا بها طوافهم بالبيت العتيق .

وطال عليهم الأمد وقست قلوبهم فنسوا ما كان يعبد آباؤهم إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ، وحسبوا أن الحجارة تعبد لذاتها . ولما كانوا قد طافوا بالبلاد ورأوا تماثيل مصر الجميلة وأصنام مردوخ وسين وعشتار في بابل ، فقد استبدلوا بالحجارة تماثيل جلبوها من مصر وسورية وبلاد ما بين النهرين ، ووضعوا لها الأساطير فزعموا أن اللات والعزى ومناة بنات الله ، وأنهن يقربن عبادهن إليه ، وأن شفاعتهن ترغى .

عبد العرب الكواكب والنجوم قبل أن يدعوهم إبراهيم الخليل إلى الإسلام وإلى عبادة الله وحده ، فلما طال عليهم العهد وعادوا لعبادة الأصنام بعث فيهم عبادة الكواكب مرة أخرى ، فجعلوا كل إله من آلهتهم رمزا لنجم أو كوكب ، ولما كانوا يعتقدون — قبل أن يعرفوا التوحيد — أن القمر هو رب الأرباب ، وأن الشمس هي زوجة الإله وأم الآلهة الأخرى ، وأن النجوم أبناءها ؛ ولما كان دين إبراهيم قد غرس في ضمائرهم أن لهذا الكون ربا هو « الإيل » فقد ظل ذلك الاعتقاد راسخا في نفوسهم ، يد أنهم جعلوا « للإيل » زوجة أطلقوا عليها « الإيلات » ثم اللات للتخفيف . وكانت الشمس رمزا لأم الآلهة وزوجة الإله في ديانات العرب قبل بعثة إبراهيم خليل الرحمن ، فصارت اللات رمزا للشمس ، وأصبحت العزى ابنة الإيل واللات رمزا لكوكب الصباح ، وكانت مناة ابنة ثانية تقسم على الناس حظوظهم ، ولما كان العرب الشماليون لا يزالون يؤمنون بالبعث بعد الموت ، فقد جعلوا « منوتن » — ومناة فيما بعد — المتصرفة فيهم بعد موتهم .

وانطلق معد وعك والذين معهما من بنى إسماعيل إلى الجنوب ، وكانت الكعبة قبلتهم ومكة أملهم المنشود ، وكان كل ما يشغل بال رجال القافلة أن يركضوا فرارا من مختصر وجنوده ، ولكن معدا كان هادئ النفس يقلب وجهه في السموات والأرض ، فيتشعر في أعماقه رب

المشارك والمغارب ، ويحس أنه مرتبط بذلك الكون وأن ذاته تضي فيه ، وأن نورا ينسكب من وراء الطبيعة ومن فوقها ينير ظلام نفسه ويفجر بالضياء بصيرته ، وأن روحه تتصل بروح الوجود وتذوب فيه ؛ قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وظلت القافلة تضرب في البيداء حتى نزلت تيماء تستريح ، فوجدت فيها قوما من بني إسرائيل كانوا قد فروا من وجه يخنصر يوم انتسف أرض إسرائيل وأرض يهوذا نسفا ، وخف شيوخ بني إسرائيل يرجون بالوafd الكريم ، فلم يكن بنو إسرائيل قد نسوا بعد فضل بني إسماعيل الذين كانوا يسارعون لنجدتهم كلما حاقت بهم الخطوب .

ودار بين بني إسماعيل وبني إسرائيل الحديث حول موافد الطعام التي مدت ، فقال بنو إسرائيل فيما قالوا : إنهم نزلوا هذه الواحة لأن في كتبهم أن النبي المنتظر الذي يهدونه عندهم في التوراة سيهاجر إلى أرض ذات نخل ، ولأنهم ليرجون أن تكون هذه الأرض .

ودار الحديث حول الأنبياء والدين ، وأرهف معدأذنه يصغي إلى ما يقصه أحبار اليهود عن أجداده إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وإلى النبي الذي سيعثه الله من ذرية إسماعيل في آخر الزمان ليعيد ملة إبراهيم ناصعة كما كانت ، وما دار يخلد معد أن ذلك الذي بشر به الرسل والأنبياء سيكون من صلبه .

ومكثت القافلة في تيماء ما شاء الله لها أن تمكث ، ثم شدت الرحال إلى ثمود ، ومعد يسمع بأذنيه ويرى ببصره وبصيرته ، ويهفو فواده إلى بيت الله الذي أقام قواعده أبواه إبراهيم وإسماعيل .

ودخلت القافلة مدائن صالح عاصمة الثموديين ، وراح معد يمشي في الأسواق يرقب الناس في غلهم ورواحهم ، في تجارتهم وفي عبادتهم ،

فراهم إذا كالوا الناس أو وزنوهم يخسرون ، وإذا دخلوا المعبد خروا ساجدين لمناف .

وكان مناف على صورة رجل لالحية له ، ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصناعي ، وعلى صدره طيات رداءه ، ينعطف طرف طيلسانه من كتفه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى ويعقد بها ، يزين جبينه قلادة علقت بها الهدايا ، وقدمت له النذور ونحرت تحت قدميه الذبائح .

وعجب معد على الرغم من حداثة سنه من تناقض القوم في ثمود ، يطففون الكيل والميزان ويقدمون القرابين إلى آلهتهم ! ومد بصره وأصاخ سمعه فلم ير ما كان يرجو أن يراه ، ولم يخترق بصره حجب الغيب ، ولم يسمع ما كان يهفو إلى أن يشنف أذنيه به ، فقد قام صالح في ثمود من مئات السنين يدعو قومه إلى عبادة الله وحده ، وسرى صوته في هذه الأرجاء يقول : « يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنبأنا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإنما لقي شرك مما تدعوننا إليه مريب . قال يا قوم أرايتم إن كنت على بينة من ربي وآتاني منه رحمة فمن ينصرني من الله إن عصيته فما تزيدونني غير تخسير . ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية فلدروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب قريب . فعقروها فقال تمتعوا في داركم ثلاثة أيام ذلك وعد غير مكذوب . فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوى العزيز . وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جامحين . كأن لم يغنوا فيها ألا إن ثمودا كفروا ربهم ألا بعدا لثمود » .

راح معد يفكر في الغابرين ويقلب وجهه في ملكوت السموات والأرض ، فإذا الحقيقة الأزلية تستولي عليه ، إن كل شيء هالك إلا وجهه ربه

الكريم وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . كان ابن عدنان سيد قومه ، فرادته
السياحة في الأرض زهدا على زهد .

ثم غادرت القافلة جنات ثمود وعيونها وخلفت وراءها قوما ينحتون من
الجبال بيوتا فارهين ، وانسابت في البيداء وسرت في الكون العريض
كالنسيم . كان كل شيء يسجد في محراب الله ويسبح له ما في السموات وما
في الأرض ، وكان معد يتساق مع ما حوله ويتعاطف مع الوجود ، بينما ختم
الله على قلوب الذين معه وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة .

وعلى مدى البصر لاحت أشجار النخيل كأنها المنائر في بحور الرمال ،
فصاح صائح :

— خير !

وأغذت القافلة السير لتحط رحالها بأرياض يثرب ، وقبيل غروب
الشمس كان بنو إسماعيل يصغون إلى أحاديث بنى إسرائيل الذين فروا من
اضطهاد بختنصر : كانوا يتحدثون عن النبي الذي سيهاجر إلى أرض ذات نخل
ليبلغ رسالات ربه للعالمين ، وكانوا يرجون أن تكون مهاجرة خير .

ولم يطل مقام القافلة في خير فقد كان الرجال في شوق إلى يثرب . إلى
أرض اللذة ، فهوا يتأهبون للرحلة المثيرة ، وسرعان ما انطلقت القافلة وأخذ
الرجال يسبقون الواقع بأخيلتهم الداعرة وقلوبهم التي تتخفق بالشهوة . ومدوا
أبصارهم إلى الأفق البعيد في لهفة وإذا بصائح يصيح في نشوة :

— الرايات الحمر .. الرايات الحمر !..

وراح الرجال يحشون رواحلهم على الجد في السير وأطلقوا لها أعتتها ،
وتدفقت الدماء حارة في شرايينهم ، فقد لاحت لأعين خيأهم خيام البغايا
تحقق فوقها الرايات الحمر قبل أن تلوح لأعينهم منازل إطفاء الرغبة الجامحة
المتأججة في جوانحهم .

كانت يثرب قلبه طلاب اللذة ، يقدون إليها من كل فج عميق من بلاد العرب يعبون كئوس الخمر ويفرقون هوم الحياة في الخيام التي رفعت فوقها الرايات الحمر ، معلنة دون حياة عن بيع المتعة لمن الثمن . وهرع رجال القافلة يتضاחקون ويتصاحبون ويستبقون إلى النسوة اللاتي فتحن لهم أذرعهن ، وقد توجت شفاههن بسمات إغراء ولمع في أعينهن بريق نداءات خضعت إليها أفئدة الرجال التي عهقوا إلى الجنس الآخر . ووقف معد يتلفت في ذهول وإنكار ، ثم لوى شفته امتعاضا وسار ميتعدا مخلفا خيام البغايا وراء ظهره ، وراح يقلب وجهه في الكون فيستشعر لذة روحية عارمة دائمة لا تنطفئ ، يزيد بها رقة حنينه للاندماج في الروح الخالد الذي يخفق في جنبات الوجود ، وينسكب نوره من فوق السموات لينير قلوب المؤمنين . نور على نور .

وبلغ صومعة لأخبار بنى إسرائيل ، فدنا منها في شوق وألقى سمعه إلى الحديث الدائر بين الشيوخ ، كانوا يتحدثون عن ذلك الذي كتب عليه أن يهاجر إلى قرية ذات نخل لعلها تكون هذه الأرض أرض يثرب .

وجلس معد بعيدا يرهف سمعه فأحس نشوة تملأ جوانحه ، فحديث الدين والأنبياء يستهويه ويملاً فؤاده بالفرح وإن كان لم يتجاوز الحلم ، كانت روح إبراهيم من آتاه الله رشده من قبل أن يبعثه تسرى فيه ، وقد ورث عن أبيه إسماعيل صبره وصدق وعده وإيمانه العميق ، وجعل بصغي وهو في مجلسه وسحره عذب الحديث حتى كاد ينسى نفسه وكل ما حوله .

واستأنفت القافلة رحلتها فامتدحت طريق الشاطئ ، وجاء الليل وجشمت الظلمات على الكون وإذا بالبحر يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، فأمتلأت نفس معد بخشية من جلال الله ، وإذا بكل جارحة من جوارحه تسبح بحمد ربه العظيم .

وتعاقب الليل والنهار ومعد ينظر ويتلفت ويفكر في خلق السموات

والأرض ويغذى روحه برحيق الرحمة التي وسعت كل شيء ، بينما كان الرجال لا هم لهم إلا تلبية شهوات البطون والجوارح .

وأشرفت القافلة على وادى مكة فأحس الرجال راحة إذ انتهت الرحلة ، وخفق قلب معد خفقانا شديدا واضطرب جسده حتى إنه ضغط على يد أخيه عك في انفعال ، فروحه تهفو إلى أول بيت وضع للناس . وأرهفت منه الحواس فكان حفيف النسيم في أذنيه تسبيحات ، وخفيق أجنحة الطير صلاة ، والجبال التي تحيط بالوادي المقدس تترنم بمجد الله ، كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون .

وهبط الرجال ليطوفوا بالبيت الحرام ، وسار معد كالمسحور كل خلجة من خلجات نفسه تخفق بذكر الله ، في نفسه ورقة وفي عينيه دموع وفي قلبه إيمان عميق . كان فتى غضا ولكن لو وزن إيمانه لرجح إيمان كل الطائفتين بالبيت والعاكفين والركع السجود .

وأتى طوافه ثم صلى في مقام إبراهيم كما يصلى بنو إسماعيل الذين لم يشرکوا بالله ولم يعرفوا بعد عبادة الأوثان . ولما أتم صلاته وقف أمام حجر إسماعيل خاشعا يحس في أعماقه أنه أمام هاجر جدة الإسماعيليين وأمام إسماعيل أبى العرب من كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا .

٢

تقابل مختصر وعدنان في حصوراء ، ودار القتال بين البابليين والعرب الشماليين دون أن يظفر فريق بهريق ، وطالت لماوشات وإطلاق السهام من الخنادق التي حصرها كل من الحيشين ، ثم رأى كل من القائدين أن يهزم من العنيزة بالإياب فعاد مختصر إلى بابل وقفل عدنان راجعا إلى قومه ، وقد وقاهم معركة انتصار مختصر عليهم وحملهم أسرى كما حمل بى إسرائيل واليهود وساقهم أمامه زمرا سوق الإبل والأنعام .

أحسق الصدام ووضعت الحرب أوزارها دون أن تحقق أهدافها الحربية ، ولكها رودت البسط بخوافر استجاب لها عرب الشمال إذ فجرت طاقات الإبداع في شتى ميادين النشاط ، فراح الفنانون العرب يستحون من الجبال بيوتا ومعابد ، ويصنعون لأفئتهم وشيوخهم ومشاهير رجالهم تماثيل فنية من البربر ، وراح قادة الحيوش يعيدون تنظيم وحداتهم ، وشط التحار فراحوا يعنون ويروحوون بين الممالك والبدان ليعرضوا ما فاتهم من رمس شعلوا فيه بالحرب مع ملك بابل الحديدية الذى طمع في أن ييسط سلطانه عليهم كما يسطه على كل من حوله .

صد العرب الشماليون جيوش مختصر ولكن إشعاعات الثقافة البابلية تعلمت في أحشاء مملكة البسط ، فإذا بحركة بعث جديد تحقق في جنبات البتراء ، وإذا بتيار الحصار البابلية يصب في رقعة الأرض لمحتدة على ساحل البحر الأحمر وخليج العقبة وميناء أيلة (إيلات) ، وانتقلت الثقافة البابلية في ركاب القوافل كما انتقلت من قبل الثقافات المصرية والسورية ، وآله الفراعنة

والعموريين والآشوريين .

وراح عدنان يفكر في ولديه معد وعك اللذين بعث هما ليكونا في رحاب بيت الله بين أهلهما من بني إسماعيل حيث الأمن والاستقرار ، وفي ذلك الوقت كانت قافلة معد تحدر إلى أرض تهامة على ساحل البحر الأحمر ، فقد كان بنو إسماعيل ينتشرون بها ، وكان سراهم يصيفون بالطائف ويمصون الشتاء ممكة في كنف بيت الله .

وبرل معد وعك تهامة على الرحب والسعة وقد اكتست الأرض بحلة سندسية وتدلّت عناقيد العنب من عروشها وحقق الكون بالجمال ، إلا أن نفس معد أعلقت عيها عن الحسن ورحرف الأرض وزيتها ، فقد كانت تهوى إلى جمال آخر يهر الروح ويملاً النوجدان بالخلال ، جمال يحس روعته كلما صفت نفسه واتصلت بيها وبين ذات اللوات الأساس .

إنه يهفو إلى بيت الله ولا يطيق البعد عنه ، هار الشوق ترحه ولحمة النفس تحفق في جنباته تود لو تحقق به إلى هناك . كان في تهامة يحسسه يبا روحه تطوف بالحرم في كل آن ، فقام وشد الرحال إلى مهوى المؤاد ليعيش في ظل البيت . تتشوى روحه بعيره وتضىء حوائجه بموره .

كانت لعة معد رقيقة أرق من لعة المكيب ، فقد استلهمت رقة المروج الخضراء وموسيقى حرير المياه في الانهار وزيف النسيم وحفيف الشجر ، وكانت فصيحة أفصح من لعتهم ، زادها عسى اتصال أهلها ببابل وآشور والآراميين والفينيقيين والمصريين ، هراح المكيب يصعون إليه مشرحين . ويأخذون عنه فرحين بما آتاهم من جزالة في اللفظ ورقة في التعبير .

وجلس معد عند ملتزم بين الحجر الأسود وباب الكعبة ، حيث يكتب الكتاب وتبرم العقود ، وأحد يعلم النصية الكتابة بحروف وأشكال مستمدة من الخط البطلي ، ليتم حلقة القلم العربي الذي وضعت هاجر يدرته عند نمر

رمزم أيام أخذت على عاتقها مهمة تعليم ابنها الحبيب إسماعيل بالقلم ما لم يعلم .

كانت هاجر تكتب بحروف هيروغليفية ولا غرو فقد تعلمت الكتابة على أيدي كهنة منف . وتعلم إسماعيل منها أن يكتب الجمل موصولة ، فلما وجد ابنه قیدار صعوبة ذلك على النشاء الجديد راح يفرق بين الألفاظ ويسر الكتابة . وخرج بنو إسماعيل من مكة واستشروا في سبأ وعلى حدود سورية وفي أعالي الحجاز وبلاد ما بين النهرين ، ولما كانوا يعيشون على التجارة فقد اهتموا بالكتابة لتدوين العقود وتوثيق المواثيق .

ووضع بنو إسماعيل في سبأ الأبجدية السبئية وقد تألفت من اثنين وعشرين حرفاً ، ومنها أخذ العبريون أبجديتهم وبها تأثر الخط الكنعاني ، فكانت الأبجدية السبئية أم أبجديات المنطقة التي حولها .

وتعلم معد في أرض البط أحمد هور وكان العبريون قد أخذوها عنهم من قبل ، فلما عاد إلى مكة أخذ في تعليم الناس ما تعلم ليم الله لبني إسماعيل فضلهم على الخط العربي واخط العبري وعلى أقلام الكنعانيين ، بل وعلى كل الأقلام التي اتصلت بالبط بسبب .

بدأ القلم العربي عند شر رمزم ، أيام كانت هاجر تعلم ابنها إسماعيل القراءة والكتابة ، ثم ترعرع في ظل الكعبة ، ثم خرج يطوف بالشرق الأوسط لينتهدب قبل أن يعود مرة أخرى ليتفيا ظلال البيت المحرم ويزدهر ليصبح لسانا عربيا مبينا .

وأقام معد إلى جوار الكعبة إن غابت عن عييه فهي في قلبه ، وإن طاف بها رقت نفسه وتعلق بها فؤاده وأحس رحابة في صدره تتسع لتكون كله ، فهو يدور في روح الوجود وتفسي داته في ذات الذوات وكأنه استحال إلى كوكب دري يصب فيه فيض النور الإلهي .

كان يمضى سحابة يومه في حرم الله وفي حرمة ، حبس له نفسه وصبر على لأواء مكة وشدتها ابتغاء وجهه ، وكان يقوم الليل إلا قليلا يسبح الله رب العالمين .

وسار أخوه عث وبعض أهله إلى البحر ، ودارت الأيام ومرت السنون وتزوج عث في الأشعرين فأقام فيهم فصار الدار والدعة واحدة ، وتزوج معد في الجرهميين كما تزوج بنو إسماعيل فيهم من قبته ، تزوج ابنة جرشم بن جلهمنة الجرهمي فولدت له نزار بن معد .

وراح معد يسمى دين إبراهيم من الشوائب التي علقت به ، ولم يكن أصنام السط وأوثان قيذار وتمائيل الثموديين والبابليين والآراميين والمصريين قد وردت بعد إلى الكعبة ، فكان من اليسر أن يعيد المكيين بالموعظة الحسنة إلى ملة أبيهم إبراهيم .

وفي مواسم الحج كان يخرج على رأس الحجاج ، تهر كيانه بداءات التلبية المنبثقة من قلوب عامرة باليقين :

— لييك اسمك ليك ، لييك لا شريك لك ليك ، يا الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك .

وراح الحجاج يهرولون بين الصفا والمروة كما هرولت هاجر ييهما وهي تبحث عن الماء لاسها لإسماعيل ، وراحوا يرجون إنبس في المواضع التي رحمه إبراهيم الخليل وإسماعيل صادق الوعد الأمين وهاجر القانتة لله رب العالمين ، ويروون جبل ثبير حيث هدى الله جد العرب بدبح عظيم .

ومح معد في أن يعيد إلى مكة جلاها وأن يجدد دعوة إبراهيم ، وأن يقول لأبائه كما كان يقول حبل الرحمن لبنيه : يا بني ، إن الله اصطفىكم بالدين فلا تموتوا إلا وأنتم مسلمون .

وراح معد يفتقه ابنه نزار في الدين ويعده لولاية البيت ، وإنه لشرف عظيم

أن تعود ولاية البيت إلى ذرية عدنان وإنه لشرف يتناول إليه شرف المديا
وسؤدد الملك والسلطان .

وظل معد في تقشقه يحيا حياة حشنة لا يقدر عليها إلا الساك ، وهجر
الديا وزيتها وأسلم وجهه لله رب العالمين . كان يرتجف خشية أن يحريه ربه
يوم يبعثون ، يوم لا يجمع مال ولا بون إلا من أتى الله بقلب سليم .

وحاء البيا إلى معد أن عدنان مات فأحس حزنا ثقيلا يحتم على صدره ،
كان يحب أباه حيا حما ولكنه كان عميق الإيمان ، إن كل نفس دائقة الموت وأنه
ليجتهد في عبادته اجتهدا ليتقي ما بعد ذلك الفراق من عذاب أليم ، فلم يجمع
للبيا ولم يستول عليه اليأس بل راح يدعو الله أن يعفر لأبيه .

وتحجر معد بسفر ولكنه لم يفكر في أن يلحق بأهله في الشمال ، فهو مد
خرج من البتراء عاصمة البسط فرارا من يختصر وجوده وأقام بهاء بيت الله
الحرم تعلق فؤاده بالبيت العتيق ولم يعد يصبر على البعد عنه ، إنه حارح إلى
البحر ليعود بأبيه عث وأهل بيته إلى نهامة ، ليعيش العدانيون في كتف الله
ورعايته .

واطنقت قافلة معد إلى الحبوب ، إلى العرب الذين هاجروا في سالف
الزمان إلى الرافدين ، من جاء من نسلهم جده إبراهيم وشب وترعرع في أور
الكلدانيين قبل أن يأمره الله باهجرة إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين .

ومرت ليالي وأيام والقافلة تسرى في ملك الله ومعد يقلب وجهه في الجبال
مها حدد نيس وجر محتلف ألوانها وغرايب سود ، وراح يرصد بحوم السماء
ويمد بصره إلى الشمس والقمر والصحراء فتمتلئ نفسه خشية ويشرق قلبه
بالور ، إن الله يسجد له من في السماوات ومن في الأرض والشمس والقمر
والبحوم والحيال والشجر والدواب وكثير من الناس ، وكثير حق عليه
الاعداد ومن بين الله فما له من مكرم ، إن الله يفعل ما يشاء .

وخرج معد ساجدا لله على قتب حمير ورح يسبحه ليلا طويلا ، ولما
أشرقت الشمس بورر بها كانت القافلة تسير في سهول اليمن وقد لاحت مدمها
على سفوح الجبال كالعقاب في الجوراء .

ودخلت القافلة مدينة مأرب وراح معد يطر إليها مدينة حصينة شيدت
جدرانها من الحجر وقامت الدور على أعمدة محمة وريت الحوائط بقوش
وتهاويل وقامت التماثيل في كل مكان .

وفي الميدان المسيح وعلى قمة مرتفعة من الأرض قام المعبد وانتشرت حوله
العباد المقدسات وكان المعبد أشبه معابد بابل ولا غرو فقد أقام المهاجرون
يحيون في بابل معابد على نسق معابدهم وبوها على المرتفعات ورادوها علوا
بالأبراج المقدسة ، فإن آلهتهم تعيش في عيسى

كان القمر رب الأرباب والشمس روجه وأم الآلهة وعشتر الابن ثالث
الثالوث المقدس . ولولا أن رفع حموراني مردوح : كوكب المشتري إلى
مرتبة رب الأرباب في بابل لظل القمر كما كان دائما في فترات عادة الكواكب
والأجرام السماوية في كل أرض العرب هو الرب الأعلى .

رأى معد تماثيل الآلهة في شمال حيرة العرب أيام صباه ، رأى اللات
والعري وموتن وذا النثرى وشيع القوم وعشترات الآلهة الأخرى ، وإنه
ليراهما الآن في أرض الجنوب بعد أن طال على الناس العهد وسوا مادعاهم إليه
إسماعيل فانقبضت نفسه ، إلا أنه حمد الله أن ظل البيت خالصا بوجهه وأن
أهل مكة لم يشركو به أحدا ولم يسجدوا لصمم من الأصنام .

وغم وجهه أسى لما تذكر أن بنى إسماعيل كانوا أول من عبد دين الله ،
وأهم أشركوا بربهم وجعلوا له بنات واتحدوا لآلهتهم بيوتاني البتراء وفي دومة
الحنذل وفي تيماء وفي سيناء وفي كل مكان برلوا فيه بعيدا عن
مكة .

وحمل معد أخاه عك وروجه وأهل بيته وعده بهم إلى تهامة ، فحجب برار
ابن معد وقصاعة بن معد وقص بن معد لاستقبال أبيهم والدين معه ، واستقر
أساء عدنان إلى جوار البيت المحرم ، ذلك فصل الله يؤتيه من يشاء والله ذو
الفضل العظيم .

٣

انطلق الميديون نحو اختوب من بلادهم بحارى وسمرقند وتوغوا فى الأرض حتى وصلوا إلى فارس ، فوجدوا السحاس والحديد والرصاص والذهب والعصا والرحام والحجارة الكريمة فى الحال ، فاستقروا بها لتكون وطنا جديدا لهم .

كان الميديون قوما أشداء بسطاء ، فأخذوا يفلحون الأرض المبسطة وسموح الحال العاليه المعطاة بالثلوج ، فكانت لثوج تدوب فى الصيف فتجدر المياه إلى الوديان بالخصب والخير .

وعند ملتقى الطرق الكثيرة الواقعة فى واد يسجر الأبواب بحسه ، أنشأ ديوسيس أول ملوكهم عاصمته الأولى وربها بقصر ملكى رائع جميل كان يقضى فيه بين الناس بالعدل ، فأحبه شعبه وتعلقت قلوبهم به .

وحرك السلطان عرور الملك فانتصحت أوداجه وترفع عن محالطة شعبه ، وطعى وبغى وتجر وأصدر وأمره بالألا يسمح لإسان بالثول بين يديه ، وعلى من يشاء أن يعرض عليه أمر أن يصل برسه ليرفعوا إلى جلالتهم ما يريدون . وكان بعد من سوء الأدب أن يصحك إسان فى حضرته ، وكان يغنى من ذلك أن يوهم الدين لا يرون داته الملكية أنه من طبيعة أرقى من طبيعتهم .

وشئت الحروب بين الميديين والآشوريين ، واستطاع سياحار أعظم ملوك الميديين أن يحسم هذا النزاع بتدمير نينوى . ولما تم له ذلك ولدت فى نفسه آمان عريضة راحت تعريه بأن يتوغل فى آسية العربية ليحضع اللادلسطان الميديين .

ووصلت جيوش الميديين إلى أبواب سرديس فحرق أهلها لقتال العراة ،
ودارت رحى الحرب وحمى وصيها وإذا بالطلام يسود الميدان في رائحة الهار
فقد كسفت الشمس ولم تعد ترسل صيائها .

وارتاع القائدان وحسا أن ذلك نذير من السماء وأن الآهة ستصب
عليهما جدم غضب وتسو متهما العذاب ، فمشت يهما سفارات تبغى لصلح
قبل أن يحل بهما غضب السماء .

وأبرمت معاهدة الصلح بأن شرب كل متهما جرعة من دماء عريمه ، وقفل
الحيشان راجعين إلى بلادهما ، ولكن الثروة راحت تندفق إلى الميديين في سرعة
عجية فلم يحسوا استغلاها . أصبحت الطبقات العليا أسيرة الحياة المترفة
فليس الرجا السراويل امطررة الموشاة وعلى الساء في الربة ، بل ريت
اخيل بالذهب .

وراح الرجال الذين كانوا بالأمس القريب حشيش تحملهم عربات بدائية
دات دوايب حشنة عبيطة قطعت من سوق الأشجار ، يرفون في أفر
الثياب ويركبون عربات هرة عظيمة الكلفة يتقلوب بها من ويمة إلى ويمة
واعتنى عرش اميديين استياحس ، وبعد أن كان أسلافه يمحرون بعد التهم
ورعية شعهم وبدل كل جهد لرفاهيته ، جاء الملك الحديد بالططم والقهر
والعسف والاستبداد .

وفي ذلك الوقت كان قورش الشاب انابه حاكم ولاية أشان الفارسية
انتابعة للميديين يحكم بين اناس بالعدل ويتألف قلوب شعبه ، وقد زاد في محبة
القوم له أنه كان وسيما سهى الطبعة ، حتى إن الفرس اتحدوه بمودجا جمان
الجسم حتى آخر أيام قنهم القديم .

كان استياحس يرتدى الثياب المزركشة ويتأيل في مشيته تمايل العواني ،
وكان قورش رجلا ذا حنق قوي مآله أروع من جمال جسمه وسريته أنقى

من بهاء طلعتة ،

وفي ذات يوم غضب استياحس على هرباجس ، وكان واليا من ولاته ،
فدعاه إلى ويمة في قصره . وما كاد يستقر في مكانه حتى قدم إليه أشلاء ابنه
بعد أن قطع رأسه وقال له :
— كل .

فراح هرباجس يتلفت بعيون رائعة والحزن يهصر قلبه . فون صوت الملك
في أذنيه قاسيا مرحشا كأنه صراح الصاء .
— كل .

فمد هرباجس يده إلى أشلاء ابنه وتناول منها وهو يقول :
— إن كل ما تفعله يا مولاي يبهج قبي .

وخرج هرباجس من القصر وصدره يحنق بالكراهية والمقت لذلک
الطاعية الذي قد قلبه من الصخر ، وأطرق يمكر في الانتقام فوجد أن قورش
حاکم أشان الشاب شق عصا الصدة على الصاعية المحث في فارس ، فطار إليه
ليعيه على خلع ستياحس أبغض أهل الأرض إلى قلبه .

واتقى جيش الميديين بجيش فارس . وما هي إلا وقعة واحدة حتى
أصبحت فارس سيدة ميديا بعد أن كانت ميديا سيدة فارس .

وانتهج الميديون بانتصار قورش على صاعيتهم الذي سامهم سوء العذاب
وإن فقدوا استقلالهم . ومدتد بدأحم فارس يبرع وراحت الأقدار تبيئ لها
الظروف لتكون سيدة عالم الشرق الأدنى كله .

ورح قورش بمد بصره إلى ما وراء حدود فارس ، إلى بابل وأرض العرب
من بى إسماعيل وسورية ومصر ، فرأى أن تحقيق مثل هذه الأحلام الكبار
يحتاج إلى بضعة روحة تسرى في صدور أهل فارس تدفعهم إلى لقتال
مستسلين في سبيل المبدأ الذي يعتقونه ، وسرعان ما جاءت هذه الضجة من

دين كريم .

كان الرعاة في ذلك الوقت يرعون في إيرل ويرتدون ثيابا بالية ويسبرون
حطب العم حفاة لأقدام تعرف في وجوههم قسوة الحياة فالأرض لا تجود
بأخيرات . وكان شاب في العشرين من عمره يرعى العم بعيدا عن رفاقه يمد
عييه إلى السماء ويقلب وجهه في الآفاق فيرى آيات بيات : الليل يولج في
النهار والشمس تولد في الطلام وتسرى في الكون روح فيحقق كل ما فيه ومن
فيه بالحياة ، إن لهذا الوجود ربا وإن كل ما في السماء وما في الأرض يسبح
لإله .

كان زرادشت هو ذلك الشاب ، وكان يطيل التأمل والتفكير فيحيل إليه
أنه يسمع بصات قلب الكون ، ويستشعر رغبة في المضاء في ذلك الوجود
ليستشف أسرارهِ ويعرف الحق ويصل إلى الحقيقة فيساق مع العالم الذي
يعيش فيه

وفتح قلبه بصيرته ، وشجده روحه فأرهمت وشمت وسمت وحسنت
وصارت أهلا لتلقى فيض النور المسعث من نور السماوات والأرض ، ولكنه
كان يحس أنه سجين الحديد ، أسير الثرى الذي يمشي فوقه ، مشدود بعواطفه
إلى أهله الذين يعبدون أسلافهم ويعبدون مثيرا إله الشمس وأيتا إلهة
الخصب ، والأرض ، وهو ما النور المقدس الذي مات ثم بعث حيا ورهب
الحسن البشرى دمه شربا ليسيف عليه نعمة الوجود ، فوطن العزم على أن يهجر
وطنه وأن يسرى في الكون كالسيم إلى أن يفصى إليه رب الناس سره
العظيم .

وهام على وجهه يسير على قدميه التماسا للحقيقة في الشمس والقمر .. في
الليل والنهار .. في السحر والشفق .. في الأرض الخرداء والجبال الشم
وسهول الخضرة التي أحدثت رحرفها واريث .. في لظير والشجر .. في

الأودية والعلوات . في الأنهار والقنوات .. في العمل الذي يدب على الأرض
ديب . وفي البود الذي يحذر رقه في الحجر .. في نفسه المتعطشة إلى كشف
البقاع عن حقيقة الوجود .

ومرت عشر سنوات ورر ادشت يحوب لآفاق متفتح النفس والروح وقد
اعتزل الناس ، طعامه الحب وثمار الأرض ، ولكن روحه كانت تتعدى بأفجر
عداء كانت تتمتع رحيق الحقيقة فتألق بالور .

وعرق في صمت طويل لا تمس أذنيه أصوات اناس ولكن الوجود كنه
كان ياجيه ، هدت الحقيقة أمام بصيرته باصعة وفاض فؤاده بديما عميق
إن هذا الكون إنها حكيمما إنه الور والسماء «أهورا مزدا» هو الأول أبو
الجميع وجد قبل الوجود ، مه فاض كل شيء فهو روح يكون ، إنه الإله
العظيم المدبر الحكيم .

ووصل رر ادشت إلى مقاطعة أدريبحاح فبلغ هر ديبى مع الصخر . وكان
السكون مسيطر على المكان وقد علق الجو بعير أطيح من المسك ، وسرت
أصوات عذبة كأنها تسيحات ملائكية حر لها الوجود كله ساجدا يعمره
فرح فياض ، وسطعت أنوار بطيعة كأنها تبعث من كوكب درى تبتد
ظلمات القلق من المموس وتشيع الدعة ولاطمئد . وبدأ أن الأرض تنقي
وحي لسماء .

وأحس رر ادشت شوة روحية تحقق بين جسبه ، وأورا تصبى وحداه
وحشوعا يسيطر على جوارحه وسموا يلقه ، حتى إنه استشعر كأنما تحور من
سجن الحسد وصار روحا هائما في الوجود كنه .

وراح يناجي ربه :

— هذا ما أسألك عنه فأصدهى الخبر يا أهور مردا .

من ذا الذي رسم الشموس والمجوم ؟

ومن ذا الذى يجعل القمر يتزايد ويتصاعد ؟
 ومن ذا الذى بسط الأرض ورفع السماء وأمسك بها أن تقع ؟
 ومن ذا الذى حفظ المياه والنباتات ؟
 ومن ذا الذى سحر للرياح والسحب سرعتها ؟
 ومن ذا الذى أخرج الحكمة يا أهورا مزدا ؟
 ورأى كائنا بورانيا يدنو منه كأنه عمود من نور ، وسمعه يقول
 له :

— أنا فاهو مانا (كبير الملائكة) .

واضطرب زرادشت وتلكه خوف عظيم ، ولكن سرعان ما ذهب عنه
 الروع وراح فاهو مانا يوحى إليه وحى السماء ويأمره أن يندس قومه ويدعوهم
 إلى عبادة الله وحده لا شريك له .

واختفى كبير الملائكة بعدما وعى زرادشت ما ألقى في صدره . وراح
 يدعو الناس إلى عبادة إله النور « أهورا مزدا » إله الحكيم . خالق كل شيء
 بيده الخير إنه على كل شيء قدير .

وأعرض عنه الناس ووضعوا أصابعهم في آذانهم ، إن تدعهم إلى الهدى لا
 يسمعون وتراهم يظنون إليك وهم لا يبصرون . واستمر عشر سنوات يدعو
 الناس إلى الدين الجديد دون أن يؤمن برسالته أحد من العالمين .

وبام دات ليلة تحت شجرة فرأى في مامة ابن عمه ميتوما يقود جيشا من
 المؤمنين يحارب في سبيل إعلاء كلمة الله أهورا مزدا إله النور ، إله الحكيم
 ثم ظهر جيش ابن عمه على أعدائه وجاء نصر الله والفتح المبين .

وهب من رقادته يتהלل بالنفurch ويتمص بالسرور ، وانطلق إلى ابن عمه
 وهو مستبشر برؤياه التي كانت واضحة كفلق الصبح ، فقد أطلعه ربه على
 ما ينتظره في غده ، إن نصر الله قريب .

وهرع إلى ابن عمه يدعوه إلى عبادة « أهورا مزدا » وهو على ثقة من أن ابن عمه سيؤمن به وبدينه الذي جاء به ، ولكن ابن عمه استقبله في بشر كما اعتاد أن يفعل كلما جاء هدايته ، ولم يفلظ به في القول ولم يوله دبره ، ولكنه لم يسارع إلى الاستحالة إلى ما يدعوه إليه من خير عميم وقام ررادشت يناجي ربه ويشه همه ، فقال في انفعال :

— أهورا ! أين المر ؟ وإلى أين أذهب ؟

رني ! أعرض عني النبلاء والعظماء .

ولم يلق إليّ سمع أحد من الناس .

حتى هؤلاء الأفاكون حكام البلاد الدجالون وضعوا أصابعهم في آذانهم .

مردا ! أيها الحكيم اهتدي الصراط حتى ترصى . إلهي كيف أهتدي

بهذا ؟

عرفت يا إلهي السر في حيلة رجائي وسبب إحماقي في دعواي .

إني فقير فلم يعرني سمعهم إلا المستضعفون .

إليك أدعو يا إله الخير .

وياك أستعين يا مبعث النور .

فامنحني يا إلهي العون والتوفيق .

وأعني كما يعين الصديق الصديق .

واهتدي الصراط المستقيم .

رني ! أما أن ألبس فيجبر الهداية والهداء ؟

وأن يتشر ديك لينجو هذا العالم من الشرور ؟

أين يا رب هؤلاء الذين ستميص عليهم السعادة بفضل تعاميت ؟

أهورا ! أنت عوني وإني أصعب عليك كل ثقتي ، فأعني يا إلهي على أن أبلغ

رسالتك وأن أنفذ ما به أمرتني .

وانقضت سنة و ررادشت يقول لناس كما عتاد أن يقول :

— اجعلوا العدو صديقا .. اجعلوا الخبيث طيبا .. اجعلوا الجاهل عالما عليكم بالنهوى .. وتحلوا بأشرف والأمانة وأدوا الديون إلى أصحابها .. بمحق الله الربا الكفر رأس الخطايا .. اعبدوا الله وتطهروا وأقيموا الصلاة . إن ستمتقين حيات و حور العين و لتكافرين نار المحيم .

ولم يستجب لدعوته أحد ، وبينما هو في حزنه إذ دخل عليه ابن عمه ميتيوما بعنه بأنه آمن بأهورا مزدا والدين الحديد ، فهب ررادشت فرحا ، فقد وقع أحيرا ما رآه في ممامه وجاء النصر وتحقق وعد الله ، وعمّا قيل يطلق ابن عمه بجيش المؤمنين لتكون الكلمة العليا لله وحده .

وبلغ ررادشت الثانية والأربعين وأوحى أهورا مردا إليه أن اذهب إلى ملك إيران وادعه ليدحول في الدين الحديد ، فراح يقطع السهول والفيافي ويتسلق الحال ويطوى الوديان ، وظال عيه السفر وسالت الدماء من قدميه ونال منه التعب ، ولكن النور الذي أضاء في قلبه ازداد إشراقا .

وبلغ بلخ عاصمة الملك ودخل القصر ، وسار ليمثل بين يدي الملك ثابت الحنان تعلوه مهابة وقار ، حتى بلغ قاعة العرش فإذا قورش وأعوانه يتشاورون في أمور الملك ، فاشترك ررادشت معهم في الحديث ، وسرعان ما استولى على ألباسهم فقد كان محدثا لبقا قوى الحجة راجع العقل سديد الرأي مؤيد من الإله الحكيم .

وأقبل قورش على ررادشت لا يرم أمرا قبل أن يسأله الرأي ولا يقطع برأى قبل أن يرجع إليه ، فأكلت العيرة أهدة رجال القصر فرحوا يكيّدون له كيدا ويوغرون صدر الملك على الرجل الذي كاد يصطفيه لنفسه .

ووسوسوا للملك وهمسوا في أذنه قالوا : لنس وثقت فيه لتكوس من الخاسرين . ومححو في وشايتهم فأمر الملك بأن يلقي في عياهب السجس إلى

حين

وراح زرادشت يرتل بصوته الأخاذ آيات من الأيستاق ، كتابه المقدس ، فكان السحر يفيض بنور يملأ قلبه سلاماً وأمناً ، وكان يستشعر وهو في عجلة حرية تفوق تلك الحرية التي يتمتع بها نرلاء القصور والدور .

ومرض أخو الملك ووزيره وأخفق الأطباء والسحرة والمسحومون في إبلاله من مرضه ، فمشى الخوف إلى قلب الملك واستبد به القلق ، وجاء إليه أحد رجال القصر يسعى وقال له :

— لماذا لا تدع يا مولاي ذلك الذي يرغم ن الوحي يأتيه من السماء ليعالجه ؟

— وإن أخفق ؟

— تستجلب دمه لأنه كذاب .

وجيء بزرادشت من سجنه وقال له الملك :

— أأستطيع أن تبرئ أخى ؟

— بإذن الله .

— إذن تفعل ..

— على شرط .

— وما هو ؟

— أن تؤمن بالله الحكيم أهورا بردا وأنه لا إله غيره .

— إن أصبح أخى بارئاً أشهد أن لا إله إلا هو .

وراح زرادشت يصلى لله ويتهل في حرارة ويدعوه أن يبرئ المريض ليؤيد فيه مملك قوى عادل قادر على أن ينشره في الآفاق ، واستمر زرادشت في صلاة ودعاء وانتبال حتى أحس أن ربه قد استجاب له .

وأصبح المريض بارئاً بإذن الله فامتلاً قلب قورش سروراً وحر ساجداً لله

القادر الحكيم ، وآمن لزرادشت وشهد أن لا إله إلا أهورا مزدا الخالق العظيم .

وآمن رجال اقصر والنبلاء وعامة الشعب ودخل الناس في دين الله أفواجا ، وكان الله قد فرض على المؤمنين خمس صلوات في اليوم والليلة ، فلما حان وقت الصلاة تطهر القوم ووقف زرادشت يوم الملك والمؤمنين ويتنو :

— أيها الرب الخالق القادر !

اعف عني ما ارتكبت من سيئات

وما وسوست به نفسي من شرور ،

وما نطق به لساني من قول خبيث

وما ارتكبت من موبقات

أيها الرب الخالق القادر !

باعذ بيني وبين كل محرم

حتى أحشر يوم الدين مع الأبرار والصدقيين .

وعرف الملك أن الدين أقوى من الدولة فأمر كتابه أن يكتبوا الأستاق

الكتاب انقدس ، فكتبوه في جلد اثني عشر ألف معزى ، بأن حصروه في

الجلود ونقشوه بالذهب .

وراح زرادشت يأمرهم أن يتمسكوا بالدين الذي جاءهم به إلى أن يبعث

السي العربي ، وكان يقول لهم فيما يقول :

— استمسكوا بما جئتكم به حتى يجيئكم صاحب الجمل الأحمر .

وسرت في الفلاحين نفحة روحية ملأت جوانحهم قوة جعلتهم يتطلعون

إلى بشر دين الله ، فانضموا إلى جيش قورش ليقاتلوا في سبيل الدين الجديد

طلبا لإحدى الحسينيين ؛ النصر أو جنة عرضها السموات والأرض أعدت

للمتقين . وإن من أمة إلا حلا فيها مدير .

وداع في بابل أن دينا جديدا ظهر في فارس يدعو إلى الله وحده « أنا الرب وليس آحر لا إله عيرى ». ووصل ذلك الخبر إلى أشعبا الثاني سى اليهود الذين يقاسون دل الأسرى في بابل ، فتهلل بالفرح ورأى المرح في البهصة الدنية الجديدة ، فراح يبادى بين اليهود في أرض السبي بأن قورش رجل قوى لا يقهر ، وأنه سيفتح بابل ويقتد اليهود من الأسر فيعودون إلى أورشليم ويشيدون هيكلًا جديدًا ومدينة جديدة تكون جنة بحق ، الذئب والحمل يرعيان معا ، والأسد يأكل التيس كالبقرة ، أما الحية فالتراب طعامها .

وسار قورش إلى بابل والتقى جيش فارس بجيش الكلدانيين ، وراح المؤمنون يرمون السهام لتستقر في الصدور والقلوب . وسرعان ما دب التحادل في نفوس الكلدانيين فانقص عليهم امرسان من الحماحين وهم يهتمون لأهورا مردا في أصوات كالرعد تنخع لها قلوب الأعداء .

ودارت الدائرة على أهل بابل وقصى على مملكة بابل الجديدة ، بابل التي كانت تخر ساحدة لمردوخ وسين وشمش وعشتار والآلهة الأخرى ، لتردهر إمبراطورية فارس بفصل تعاليم ررادشت التي ثبتت في النفوس إيمانا عميقا ، وصحت في الكيان نعمة روحية سرت في قلوب المؤمنين فملاؤها عزة وكرامة .

وانتظر اليهود ما يحق بأعدائهم من عذاب مهين ، ولكن قورش كان مؤمنا صادقا فكان أكثر رقة وأكثر حصرة من الآشوريين ، بل من اليهود أنفسهم ، فلم يأمر بسلح الأسرى وهم أحياء بل عامنهم بالنفى هي أحسن ، وم يأمر بتحرير بابل ولا بتقويض معقلها ولا بإصرام النار في دورها وأماح لليهود أن يعودوا إلى أورشليم ، فعاد لهم ما كان باقيا في حرائر الدولة البابلية من الذهب والفضة اللذين اعتصبهما تحتصر من الهيكل ، وأمر الجماعات التي كان اليهود المفيون يعيشون بينها أن تعيهم بالمال الذي يحتاجون

إليه في أثناء رحلتهم الطويلة إلى وطنهم .

ولم يتحمس شباب اليهود لهذا التحرير فقد تأقلم كثير منهم في التربة السالبة وامتدب أصولهم فيها ، فترددوا طويلا في ترك حقوقهم الخصبة وتجاربتهم الرائجة ليعودوا إلى قفارهم الخربة في الأرض المقدسة .

وتطلع قورش إلى أن يمد سلطانه حتى وادي النيل ، ولكنه راح يفكر طويلا ، فسيطأ بخيله ورجله شعب قباد وشعب النبط وقبائل بني إسماعيل الأخرى ، إن وصية ررادشت لا تزال ترن في أذنيه : « ستمسكوا بما جتكم به حتى يجيثكم صاحب الحمل الأحمر » ، وإن صاحب الحمل الأحمر من هؤلاء ، وهو يكره أن يسفك دماء قوم سيبعث فيهم ذلك النبي المنتظر ، فرأى أن يبعث إليهم ليكون بينه وبينهم عهد وصداقة ومودة .

ورأى أن يشرك معه في حكمه ابنه قمبير فنادى به مسكا على بابل ، ثم سار ليحصع سوريه والأراضي التي تفصل بينه وبين مصر بعد أن تحالف مع مموك الإسماعيليين وزعماء قبائلهم .

وأخضع قورش سكان آسيا لسلطان فارس ، وتحالف مع العرب الذين أبوا أن يخضعوا كالبريق للحكام الذين تعاقبوا على المنطقة تعاقب الليل والنهار مدحرجوا من البيت المحرم ابتغاء التفسح في الأرض ، ثم راح يعد العدة لغزو مصر . وأحسن فرعون مصر أحسن الثاني (أماريس) الخطر الذي يتهدهده ، فعمد إلى التحالف مع بعض اليونانيين ليقفوا في وجه الرحف الذي يحمل لواء دين حديد .

وشبت ثورة صغيرة في شمال فارس ، فلم يبعث قورش من يحمدها من قواده بل ذهب بنفسه على رأس جيشه لإخمادها ، وفي أثناء القتال أصابته سهم قاتل ، فسقط قورش المؤمن من أيدي ررادشت في دعوته وعمل على بشر دينه لينفط أيفاسه ، وليتولى ابنه قمبير إمبراطورية فارس من بعده .



أشعلت دعوة زرادشت نار الحماسة في صدور الفارسيين ، وبذلت
النفحة الروحية فلاحى الأمس البسطاء وصبحوا مقاتلين صاديد يحدون
بأرواحهم عن طيب خاطر في سبيل الله . وتمكين سلطان أهورا مردا في
الأرض .

مات قورش مؤسس أعظم إمبراطورية في التاريخ القديم فلم يدب اليأس في
قلوب أهل فارس ، فإن كان قورش قد مات فأهورا مردا حتى لا يموت .
وقام قمبيز في بابل فجمع جيوش المؤمنين وخرج لفتح مصر وتحقيق حلم
آبيه ورث قمبيز عن قورش عرشه وقوته ولكنه لم يرث شيئا من كرمه ولا
من تسامحه ، كان يرى القانون مطهرا لإرادة أهورا مزدا ، وكان يرى في آلهة
الأقوام الآخرين شركاء لإلهه الفرد من صيغ من الوحدة جوهره ، فهرم
على تخطيم أصنام الآلهة جميعا ليحتو وحه الأرض لإلهة خالق الناس ملك
الناس إله النور .

وانطلق قمبيز بجيشه إلى أرض العرب ، إلى الأرض التي أوصى زرادشت
أتباعه أن يكرموا أهلها لفصل صاحب الحمل الأحمر الذي سيبحث فيهم ،
فقبل بالترحيب ودخل أرض البط دحول الظالمين ، وحف لاستقباله
والترحيب به ملك النط وأنزله بقصره التي تحت في الجبل وأشرف على البتراء
العاصمة التي تدفقت إليها قوافل التجارة من أقطار الأرض في مشارقتها
ومعارها ، وازدهرت فيها هود البابليين والسوريين والمصريين .
كانت البتراء حصينة تستعصى على عقاب الجو ، وكان أهلها يحتنون من

الحبال بيونا آمين ، وقد انتشرت المعابد المصخمة على قمم الجبال : معبد اللات ومعبد العزى ومعبد متوس ومعبد ذى الشرى ، وكانت القرابين تحرق فتصاعد أدحتها مع البخور تعلن للآلهة أن عابدا قد أحرقوا خطاياهم .
 ودار الحديث بين قممير وبين ملك النبط حول الله وجوهره ، ولما كان بنو إسماعيل يعرفون الله ، وبقيت لهم بقية من دين إبراهيم ، فقد كان من اليسير أن يفهم ملك النبط فلسفة قممير وإن كان بنو إسماعيل أشركوا بالله وجعلوا اللات روجه وأم الآلهة ، والعزى وموتس وإلهات الأحرىات بياته وقالوا إن شفاعتهم تريحهم .

كان العرب قبل أن يدخلوا في دين إبراهيم يعبدون الكواكب ، وكانت الشمس عندهم زوجة الإله القمر ، والنجوم بيته وبياته ، وقد قرأ أدهام منذ أن بعث إبراهيم أن الله هو رب الكون وحائق كل شيء ، ولما طال عليهم العهد وفست قلوبهم وأشركوا بالله ، فقد جعلوا اللات روجه وصارت رمزا للشمس ، وجعلوا العزى ابنته وصارت رمزا للكوكب الصباح ، وموتس ابنته الأخرى ووكلوا إليها الحظ والمنايا .

خرج قممير من وادي موسى وسباب وجيشه في أمان ، ولا عرو فقد كانت الأرض بين بيت المقدس وحان يونس في قبضة حلفائه من بني إسماعيل ، تحميا جيوش عربية قوية ذات بأس شديد .

أثرى النبط من التجارة فوجدوا أن لا مفر من تكوين جيش قوى يحمي طرق انقوفل والتجارة التي تعدو وتروح بين انيس ومكة ويثرب وبصرى وبابل ودمشق ودلتا النيل . وقد اشتد ساعدهم فراحوا يحلمون بأن يمدوا سلطاتهم إلى كل هذه الأقاليم ويستنزون عرصه ضعف الملوك والأباطرة ليثبوا ونتمهم كما وثب الهكسوس من قبل ، ويصعوا أيديهم على الممالك ما بين وادي الرافدين ووادي النيل .

سار قمبير ومن معه من اليهود في أرض حلفائه من بني إسماعيل آمين ، وقد خرج اليهود مع جيوش الفرس لا اعترافاً بمفضل قورش عليهم إذ حلصهم من دل أسر البابليين ، بل ليرتكوا جاليات مهم على طرق المواف لتصح شرايين التجارة في خدمة بني إسرائيل ، فقد كان حلمهم مد وضعوا أقدامهم في أرض فلسطين أن يتحكموا في التجارة وأن يسيطروا بأموهم على العالمين مات أخمس لثاني قبل أن يشق قمبير وحلفاؤه من بني إسماعيل الحرب على مصر ، وقام بسامتيك الثالث يتأهب لخص الممالك دفاعاً عن الوطن المقدس وعن شرف آمون إله العرايين . وهربا من عار الدنيا والآخرة لو أذله أهورا مزدا .

واسنعان بسامتيك بجود مرتقة من اليونانيين ، وأسند قيادة الجيش إلى قائد يوناني ، وحرّح الجيش من منف وكان مريحا من المصريين واليونانيين لقتال من جاءوا للاستيلاء على مصر وإخماد أنفاس آمون وكهنة آمون وبلغ جيش مصر رفح وإذا بقمبير وحموده قد رلوا بأرياضها ، فراح الحيشان يتأهبان للقتال ووطن المصريون العزم على أن يردوا الفرس على أعقابهم محللين بعار الهريمة ، وأن يقيموا سدا في وجه قمبير الضامع في أن يسطر سلطانه على منف مخزن علال الآلهة والعرش العظيم .

وفي جح الظلام تسلل قائد جيش مصر اليوناني إلى معسكر قمبير وأمشى له جميع أسرار الدفاع عن البلاد ، ولم تكن هذه هي الحيلة الوحيدة التي اركبها اليونانيون بل إن ملكهم بوليفراط ملث جزيرة ساموس لما رأى الجيش الفارسي وصل إلى غرة ، نقض التحالف الذي أبرم بينه وبين أخمس الثاني ، والذي تعهد فيه أن يهب لمحنة حليفه إذا داهمته جيوش فارس .

وراح جيش مصر يحارب الحياة وجيوش فارس وبني إسماعيل دون جدوى ، فسرعان ما تصدعت الصفوف بعد أن بحر فيها سوس الحمود

المرتقة الذين تصاعموا عن القتال وفتحوا الثغرات ليتدفق منها هرساں فارس وانعرب ، وما لست أن حاقت الهزيمة بحيش مصر هارتد الفارون إلى مسف موبس الأدبار ، وقمير وحووده في أثرهم يهنوب لأهورا مرد الذي صدق وعده ومكهم من الفراعين .

ولم تصمد مسف للحصار وسقطت عنيمة باردة في أيدي قمير ، سقطت محرر علال الآهة والعرش العظيم ، مدينة أرريس ومدينة هاجر أم هؤلاء اعرب الذين تهللوا بالفرح لما وقع بسامتيك فرعون مصر أسيرا في أيدي العرس .

واطنقت حيوش فارس إلى طيبة ، وتحلفت حقة من اليهود لتكون حقة في سلسلة السمود الاقتصادي التي بدأت تمتد من سوسا عاصمة فارس إلى مسف قلب وادى النيل .

ودخل قمير طيبة دحول الماتحين ، ولم يعكر صفوه إلا نبوءات كهنة آمون في سيوة التي كانت تنتشر بين المصريين انتصار الريح . ومن القصر الفرعوى في طيبة قرر أن يبعث ثلاث حملات حربية ، واحدة للاستيلاء على قرطاجنة ، والثانية للاستيلاء على واحة سيوة مقر وحي لإله آمون ، والثالثة للاستيلاء على كوش .

كان قمير يفسر على القرطاحيين سيادتهم في البحر وماؤاتهم لسلطان فارس ، وكان يتميز عبطا من وقاحة كهنة آمون في سيوة فقد كانوا يوسعون الأرض إداعة بأنه سيوء بالإحقاق ، وكان يريد في حقه عليهم أن الإغريق كانوا يؤمون بوحي آمون إيمانا عميقا ويصدقون كل ما يتنبأ به الكهنة من سوء مصيره وإحقاق فتوحاته ، وكان يريد أن يستولى على كوش ليأمن ثورات الحبوب ويخضع وادى النيل كله لسلطانه .

وخرجت الحملات الثلاث وخرج قمير على رأس الحيش المسحدر إلى (العدناتيون)

كوش ، وكان اليهود في ركابه لا يشدوا أزر الحيش الفارسي بل ليجدوا السلسلة اليهودية البشرية التي بدأت من فارس ليسروا في شرايين التجارة مسرى الدم ، ولكون في أيديهم مفاتيح خرائط الأرض ومصائر الشعوب . ونسحب الكوشيون نحو الحبوب وتركوا قمير وجوده يواجهون الطبيعة القاسية ، وراح يقتفى أثرهم وهو يرجو أن يصل إلى مروي عاصمة ملكهم ليستريح بها كما استراح في طيبة ، إلا أن أعدسه وأنفاس جنوده تقطعت في منتصف الطريق . وصادفتهم أهوال ونقصت المؤن وحلق فوقهم شبح الفناء ، فوجد قمير أن حير ما يفعله أن يعود إلى طيبة يستمع إلى أبياء انتصارات جيوشه الخارجة لتأديب القرطاجيين وكهنة آمون .

وفي القصر الفرعوني في طيبة سمع ما أطار له ، علم أن الحملة الأولى أخفقت . فقد أتى العرب الفيسيقيون أن يحملوا المرس في البحر على أساطيلهم ليصعوا أغلال الرق في رقاب أهنهم العرب القرطاجيين . وجاءته أبياء الحملة الثانية تلك التي انطلقت إلى واحة سيوة بضحيح عرياتها وحقيق راياتها لتقويص معبد آمون وسلح جلود كهنته لتعلن على الملأ كذب سيوة آمون وب قمير هو النجم الصاعد وملك الملوك — وكانت أبياء تطيشها العقول . فقد غاب الحيش كله في جوف المجهول بعد أن بلع الواحات الخارجة وأخذ منها المؤن والأدلاء ثم انساب في الصحراء

أطبق على الحيش الصمت الرهيب ، ودفن سره معه ، وما وصل إلى سيوة مرل وحى آمون جدى فارسي ، ولم يعد جدى واحد إلى طيبة ليقص على ملك الملوك ما لاقاه جيشه في الطريق .

ونهل كهنة آمون بالمرح وقالوا :

— انتقم آمون من أعدائه ، أرسل عيهم ريحاً صرصراً غاتية دفتهم جميعاً في الرمال .

ودحت الدبائح وقرنت القرايين وتجاوبت في جنات سيوة الأناسيد
تحيدا لآمون العظيم، ودخل الكاهن الأعظم قدس الأقداس وخر ساجدا لتمثال
آمون ، وقامت الاحتمالات في المعبد حتى إن الابتهالات بلغت الحوراء
وارتفع البخور في السماء كالسحاب .

وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات
مطويات يمينه سبحانه وتعالى عما يشركون .

وسرى في طيبة همس ينبص بالفرح ، لقد انتقم آمون من قمبيز ، وقرع
ذلك الحمس أدنى ملك الملوك فاستشاط قمبيز غضبا وراح يسخر من دين
المصريين ، وبدأت الثورة تتحرك في مصر فقد رفع من روح الشعب ما أذاعه
كهنة آمون من أن إلههم القدير قد قصى وحده على جيش الفرس الذي جرؤ
على رفع أسلحته في وجه جلالته .

ووجد قمبيز أن التسامح لم يعد يحذى ، فهية فارس وهية أهورا مرذا
وهية إمبراطورها أصبحت جميعا في الميران . فراح يصب جام عصبه على
المصريين بقتل العصاة وهدم المعابد ، وفي احتفال ديبى كبير ومف طعن
بخنجره العجل أبيس .

وأخرج الخث المخططة من مدافنها ونبتش قبور الملوك ، وخرب الهياكل
وأمر بإحراق ما فيها من أصنام وهو يسبح بمحمد أهورا مرذا إلهه العظيم .
وانتاته نوبة صرع فاعتقد المصريون أن ما حل به إن هو إلا عقاب من
آلهم وأنه آية من آيات آمون الذى اتخذه قمبيز هروا ، وارفع آمون في أعين
المصريين والإغريق وعلا علوا كبيرا .

وفي نوبة من نوبات صرعه أعدم ركسانا أخته وزوجته ، وقتل ابنه
بركسيس بسهم من قوسه ، ودفن اثني عشر من الفرس أحياء .

وحاءت الأنباء من فارس قاسية تريد في قسوتها عن الضربات التي وجهها

إليه القدر في وادي النيل ، فقد جاءه ندير السوء يقول : إن ثورة عارمة قامت في فارس تبغى القضاء عليه وعلى سلطانه .

وعاد قمبيز مسرعاً يريد الوصول إلى بلاده ليحمد أنفاس الثورة المدلعة في فارس ، وحلف وراءه اليهود في المتين (حزيمة أسوان) وفي طيبة وفي منف وفي كل مدن التجارة بأرض الفراعين وأرض السوريين ليمتنصوا دماء الشعوب .

واتابته نوبة الصرع في أرض حلفائه من بني إسماعيل وكان يحقد على نفسه لأنه أهان إلهه أهورا مزدا إله النور فما استطاع أن يسط سلطانه على العالمين ، بل إن آمون إله المصريين تحده ودفن جيشه في الصحراء ولطح جبينه بالعار .

تقرص اللحم الجميل . حلم إحصاع العالم لإله النور وحده لا شريك له ، إنه هو الذي أساء إلى إلهه وإلى بلاده ، إنه هو قمبيز ، قمبيز القط غليظ القلب من قتل أخته وحبيته وزوجته ركسانا ، وسدد إلى قلدة كبذه سهمه فأرداه .

وصرح قمبيز صرخة هائلة دوت في أرجاء المكان بالآلام بنفسه ، ثم راح يطعن قلبه بخنجره ليسكت الصبحات اسبعة من أعواره تهمه بأنه عار على بلاده ، وعار على إلهه الحكيم إله النور .

ومات قمبيز وهو هائم على وجهه في أرض حلفائه من بني إسماعيل ، وم يحزن عليه حلفاء الأمم من اليهود فقد كانوا يطرون إلى المعارك انطاحنة الدائرة بين فارس وآشور وبابل وغيلاام ودمشق ومصر نظرة رصا ، بل كانوا يباركوها ويؤججون نارها ليذب الوهن في تلك الممالك ، وتحين فرصتهم التي يرقوها بصبر باعد ليشبوا على ملك هذه الشعوب ، لتكون هم اليد العليا من بابل إلى دلتا النيل .

٥

سجى نزار بن معد فى فراشه وجلست عند رأسه زوجته سودة بنت عث
والحدلة بنت وعلان بن جوش بن جلهمة بن جرهم . ورأت الزوجتان أن
قد حصرت نزار الوفاة ، فعثت سودة تطلب ولديها مضر وأياد ، وأرسلت
الحدلة إلى ولديها ربيعة وأثمار أب أقبالا فأبوكما يحود بأنفاسه .
وجاء مضر وربيعه وأياد وأثمار والتموا بأيهم حفيد عدنان ، وألقوا إليه
السمع فقال نزار فى صوت خافت :

— ولاية الكعبة لأياد — أخرجوا جرهم من البيت فقد كثرت مظالمهم .
وصمت ليلتقط أنفاسه ، ثم قال فى جهد وهو يقب وجهه فى بيه :
— أى بى ، هذه القبة الحمراء وهى من آدم وما أشبهها من المال فلمصر ،
وهذه البدره والمجلس للأثمار ، وهذا الفرس الأدهم والحباء الأسود وما أشبهها
من مال فربيعة .

والتفت إلى خادم شمطاء كانت ترقبه فى حزن وقال
— وهذه الخادم وما أشبهها من مال فلأياد . وإن أشكل عليكم كيف
نقتسمون فأتوا الأفعى الحرمى ومرله بجران ، وإن أستم رضيت .
وحفت صوته وانبرت أنفاسه ، ثم سككت حركته إلى الأبد ، فقاموا من
عده وجوههم بأسرة يتلفتون فى حيرة ، فقد مات نزار من ملأ مكة نقى
وعدلا قبل أن يتم وصيته .

واختلف بنو نزار وتشاجروا فى ميراثه ولم يتلوا إلى القسم ، فتوجهوا إلى

الأفعى يريدونه في نجران ، وفيما هم في الطريق إذ رأى مضر أثر يعبر كان
يرعى فقال :

— إن الذي رعى هذا الموضع ليعبر أعور .

فقال ربيعة :

— إنه لأزور .

فقال أياد :

— إنه لأبتر .

فقال أثمار :

— إنه لشروود .

فساروا قليلا فإذا برجل يسألهم :

— ألم تتروا بئيرا لي قد ضل ؟

فقال مضر :

— أهو أعور ؟

— نعم .

وقال ربيعة :

— أهو أرور ؟

— نعم .

وقال أياد :

— أهو أتر ؟

— نعم .

وقال أثمار :

— أهو شروود ؟

متهلل الرجل بالصرح وقال :

— نعم هذه صفة بعيرى . أين هو ؟

فقالوا جميعا :

— إنا لم نره .

ونظر إليهم الرجل فى ريبة وقال :

— كيف لم تروه ، وقد وصفتم لى صفته ؟

— قلنا لم نره .

واطلقوا إلى الأفعى الجرمي والرجل فى أثرهم يطلب بعيره ، حتى إذا
دخلوا نجران وبلغوا الأفعى ، وكان حكم العرب وقاضيهـم ، هرع إليه الرجل
يشكو إليه هؤلاء الرجال الدين وصفوا له بعيره ثم ينكرون أن أعينهم وقعت
عـيه ، قال صاحب البعير :

— هؤلاء أصابوا بعيرى ، وصموا لى صفته وقالوا لم نره .

وحلف مضر أنهم لم يروه ، فطـر الأفعى فى عـبى مضر وقال .

— وكيف عرفت أنه أعور ؟

— إنه رعى جاننا وترك جانبنا فـعـرفت أنه أعور .

والتفت الأفعى إلى ربيعة وقال :

— وكيف عرفت أنه أزور ؟

— رأيت إحدى يديه ثابـه الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فـعـرفت أنه

أفسدها بشدة وطـه

وقال لأبياد :

— كيف عرفت أنه أبتـر ؟

— باجتماع بعـره ، ولو كان ذئبالا لمصع به .

فقال لأعمار :

— وكيف عرفت أنه شرود ؟

— إنه رعى في المكان المكلىء ولم يجره إلى مكان أعرر منه نسا

فالتفت الأفعى إلى صاحب البعير وقال له :

— ليسوا بأصحاب بعيرك فاطلبه .

وخرج الرجل وهو في حيرة من هؤلاء الرجال الذين وصفوا له بعيره دون

أن يروه !

والتفت الأفعى الحرهمي إلى الرجال وقال :

— من أنتم ؟

— نحن أبناء نزار بن معد بن عدنان ؛

فقال الكاهن في ترحيب :

— أهلا بكم ومرحبا . وما جاء بكم إلينا ؟

— قال لنا أبونا وهو يموت : إن أشكل عليكم كيف تفتسمون فأتوا

الأفعى الحرهمي ، وقد اختفيا في الميراث فأتياك لتحكم بيسا .

فأطرق الأفعى وهو يقول في إنكار :

— تحتاجون إلى وأنتم كما قد أرى ؟

وقام الأفعى يديح لهم ويستحث خاربنا له الطعام ، ثم وصع الطعام وأكثوا

وشربوا ، وتنحى عنهم الأفعى حيث لا يرى وهو يسمع كلامهم ، فقال

ربيعة :

— لم أر كاليوم لحما أطيب منه ؛ لولا أن شاته عديت بليس كسة .

فقال مضر :

— لم أر كاليوم خمرا ، لولا أن حُبْلته تبتت على قبر .

فهمس الأفعى :

— ما هؤلاء إلا شياطين !

ودهب إلى القهرمانة وقال :

— حبريني حبر هذه الكرم.

— إن حُبْلَكَ غرستها على قبر أبيك .

واطلق إن الراعى وسأله عن العقاق الذى دبحه وقدمه طعاما لى برار بن

معد ، فقال الراعى :

— هى عقاق أُرْصعها بس كلة ، ولم يكن ولد فى الغم غيرها وماتت أمها .

ورجع الأفعى إليهم ثم التفت إلى ربيعة وقال :

— من أين علمت اللحم ؟

— لأن لحم الكلب يعلو شحمه ، بخلاف لحم الشاة فإن شحمها يعلو لحمها .

وقال لمصر :

— من أين عرفت الخمر ؟

— الكرم إذا بنت على قبر يكون انفعال حمرها أقل انفعالا .

واعتدل الأفعى الحمرهى ثم قال :

— قصوا على قصتكم

فقصوا عليه ما قال نزار قبل أن يلفظ النفس الأخير ، فقال الأفعى :

— ما أشبه القبة الحمراء من مال فمصر ، وأما صاحب الحياء الأسود فهـ

كل أسود ، وأما الدراهم والأرض فلا تمار .

وقبل سو برار بن معد راحعين إلى مكة ، وذهب مصر بالدبير وإبل

فسميت قبيلة مصر « مصر الحمراء » ، وأحد ربيعة الفرس وما أشبه فسميت

« ربيعة لفرس » ، وأحد أثمار الغنم فسميت « أثمار الشاة » ، وأحد أياد

غنم البرقاء وحنوز البلق ، فسميت « أياد البرقاء » .

٦

ولد معد بن عدنان في أرض النبط ، ولكن الله لم يشأ أن يعبد معد أصنام النبط ولا أوثان قidar ، فلما قام مختصر وعزم على أن يطيأ أرض العرب تخيله ورجله ألقى الله في قلب عدنان أن يبعث ولديه معد وعك إلى أهلها بالبحار ليكونا في ما من بجوار بيت الله .

كان البيت معظمًا ورواره مكرمين ، ولا عرو فهم صيف الله وكان اللائذ به في أم وسلام ، وكان الخجاج يعدون ويروحون مطمئين لا يخشون خيانة ولا عدرا ، قلوبهم مؤمنة ونفوسهم رصبة تنعم بالفيض الإلهي ، بدلت النور الذي يبدد ظلمات الخواص والصدور .

حببت التجارة إلى مكة الذهب والفضة فأرد الحراصة أن يهدوا رب البيت هدية تنفق مع ما أصبحوا فيه من عى ، فوضعوا عزالتين من الذهب في جوف الكعبة .

وسرى إيمان معد بن عدنان بالله الواحد القهار في صميمه سريان الدم في شرايينه ، فإن كان قد تروج في جرحهم فقد صدق بولاية حرهم بيت ، فقد بقيت فيهم أكثر من سبعمئة سنة ، وقد أشاح الحارث بن مصاص بن عمرو ابن الحارث الحرهم بوجهه عن البيت بعدوا ويروح من الخجون والصد ، والتف به أصحاب السوء فراح يمضي ليليه في سمر ومحور بعد أن كان ولاية البيت يدكرون الله آباء النبيل وأطراف البحار

كان معد على دين آتائه إبراهيم وإسماعيل ، وكان أعبد من حاء من سبل

بانت فإن كان أبناء نابت وقيدار أول من غير دين الأبناء ، فقد كان معد أكثر أبناء نابت بن إسماعيل عيرة على دين الله . وقد حلف في مكة نارا التقى ليعيد بنى إسماعيل إلى منى الآباء .

ومات معد وأصبح نزار شيخ العدنانيين ، وعلقت عين الحارث عن بيت الله وعن صيف الله . وفشت المطالم ووقعت على من دخل مكة من غير أهلها ، واضطرب ميران العدل ومشأ العش في الأسواق ، وصاق نزار بن معد بذلك البغي فأوصى بيه وهو يجود بأنفاسه :

— أخرجوا جرهم من البيت وليتور ولاية البيت أياد .

واحتمع أياد ومصر وريعة وأمار يتشاورون في وصية أبيهم ، لقد أوصاهم بإحراج جرهم الذين بعوا في البيت بحق قتاهم ، فإن كان الجرحميون كثيرين فما أكثر بنى إسماعيل وما أعزهم .

وقبل أن يمتشق أياد ومصر وريعة وأمار سيوفهم ، وقبل أن ينادوا في أهلهم حتى عى انقتان ، اكفهرت السماء وبرق البرق ورعد الرعد ثم اهمرت الأمطار على حبال مكة فحرت سيولا إلى الوادى تحرف الدور وتقتلع الخيام وترى الملع في قلوب القوم الذين استحفوا حرمة البيت المحرم . فحل بهم غضب الله .

ودخل السيل البيت فاهدم ، فكادت قلوب الناس تسبح من صدورهم ، غضب الله عليهم كما غضب على قوم نوح ، إلا أن الأرض بعت ماءها وأقنعت السماء وعاص الماء ونصى الأمر وقيل بعدا للقوم الظالمين .

ومشى أياد ومصر وريعة وأمار وأشراف بنى إسماعيل إلى جرهم وحذروهم عن بعيم في الحرم ، فأطهروا التوبة وأعادوا بقاء البيت على بقاء إبراهيم الخليل ، وقام حظيب جرهم يحذر قومه معة الفسق في الأرض

الطاهرة ويحذرهم أن يعودوا ويستحفوا بأمر البيت الحرام ، فقال :
 — يا قوم احذروا البغى فإنه لا بقاء لأهله ، قد رأيتم من كان قلوبكم من
 العماليق استحفوا بالحرم فلم يعظموه وتنازعوا بينهم واحتنفوا ، فسلطكم الله
 عليهم فأحرقتموهم ففترقوا إلى البلاد ، فلا تستحفوا بحق الحرم وحرمة البيت
 بيت الله ، ولا تظلموا من دخله أو جاء معظما لحرمة ، أو جاء بائعا لسلعته
 ومربعا في حواركم ، فإنكم إن فعلتم ذلك تخوفت أن تخرجوا منه حرواح دل
 وصغار ، حتى لا يقدر منكم أحد أن يصل إلى الحرم ، ولا على زيارة البيت
 الذي هو لكم حرم وأمن ، والطير تأمن فيه
 وقام رحل منهم وقال :

— من الذي يخرجنا منه ؟ ألسنا أعز العرب وأكثرهم رحالا وأموالا
 وسلاحا !

فقال مصر :

— إن جاء الأمر بطل ما تقولون .

ومرت الأيام ونسى الحرميون بدير السماء ، فعادوا إلى يعيهم فاستحفوا
 بحق الحرم وظلموا من دخله أو جاء معظما لحرمة ، وصفقوا في الموارب ، دا
 اكنلوا على الناس يسوقون وإذا كانوا هم أو ربوهم يحسروا ، وأمرعوا من
 جاءوا منتمسين الأمن في جوار بيت الله .

ورأى أشرار جرهم الناس وهم يلقيون الحلى والمتاع في حرابة الحرم ،
 فنبعت الأهواء بأفئدتهم وريث الشيطان لهم سرقة مال الله ، ذلك المال الذي
 كان للمفقر والمساكين وسقاية روار بيت الله ورفدتهم
 وسرقوا أموال الحرم استحمافا بالله وبيته ، وسوا أن الله قادر على أن
 يذيقهم العذاب الأليم ، وأن من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك

بظلام للعبيد .

واجتمع البعثة يتسامرون عند البيت ، فلم يعد البيت أكثر من ناد يجتمعون فيه بعد أن نزع من قلوبهم توقيره وتعظيمه وبينما هم سمار يتضاحكون يأتون في ناديتهم المسكرة إذا بمحامل النمل تنحدر من سفوح الجبال إلى الوادى المقدس ، فدا كأن الأرض عطيت بغلالة سوداء أخذت تداح حتى حجبت أديم مكة .

وأقن النمل على الأخضر واليابس ، وراح يكسو الإبل والأنعام بملأ أعينها وحياشيمها وكل أجوف فيها لا يعادها إلا عظاما ، ثم يستمر كأما يعرف عايتة .

وأحيط الحرم بأهم النمل بعد أن محقت كل ما اعترض طريقها ، وصارت مكة عروشها خاوية كأن لم تع بالأمس ، وحانت التفاتة من أحد السمار فارتسم الهلع في وجهه وبدت من بين شفثيه صيحة مرعونة كأما شهد الموت :

— النمل ! النمل !

وتحاوت صيحات الهلع في جنبات الوادى ، وبلعت القلوب الخناحر ومطعت الأعاس من الرعب ، وماج الناس بعضهم في بعض يتدافعون باساكب قد دهل كل بنفسه عس حوله ، يجرى ها وهاك لا يقوم إلا كما يقوم الذى يتحبطه الشيطان من المس يعق بما لا يسمع ، ولكن أين المفر ؟ والنمل يرحف من كل جانب ليطبق على من استخفوا بجرمة الله .

وحاول الناس في يأس أن يشقوا طريقهم بين حيوش النمل التى غطت كل ما تقع عليه العين . فمضى النمل على نعالهم وراح يزحف على سيقانهم وإن مى إلا لحظات حتى عطى أحسامهم واتخذ طريقه إلى أوفهم وآدابهم ، فسقطوا

يتحبصون يسبحون في محار النمل وقد داقوا من العذاب الأليم .

وانطلق صراح الفزع من الحاجر ، وتجاوبت حبات مكة بالعويل واشتد النحيب ، وفح الناس صائح الأفاعي وهم يتلوون كأنما قد ألقوا في الجحيم ، ونشبت معارك يائسة بين المتشبثين بالحياة وذلك النمل الذي كان يتوافد توافد الموج يهاجم فريسته في عناد وإصرار .

وشدت الأيدي وحسرت الألسن وهدمت الأجسام فقد رهقت الأرواح ، وساد الحرم سكوت الرموس بعد أن بطش الله البطشة الكبرى ليحقق الحق ويظلل الباطل ولو كره المحرمون .

وتقضت أيام رهبة على من استحموا بحرمة بيت الله ، داقوا العذاب ألوانا قبل أن صاروا كأمس الدابر ، والله جود السماوات والأرض وكان الله عزيزا حكيما .

واقشع النمل عن الوادي بعد أن تفرع غصص الموت كثير من جرحهم وجلا عنها بعضهم يجر جرون أذيال الذنوب ، ومشى أيداد ومصر وأثمار وربيعة بعضهم إلى بعض يتلاومون ، فأبوهم يرار بن معد أوصاهم بأن يخرجوا جرحهم من البيت بعد أن فجروا فيه ، وكنهم تقاعسوا عن تفيد وصية أبيهم فبعث الله جنوده لينتقم من الظالمين .

كاد الله أن يذهب بسمعهم وأبصارهم لأنهم سكتوا عن انقاسفين ، وقد أرسل الله حيوش النمل نذيرا لهم ليحرقوا من بقي من جرحهم من الحرم ومن حواره ، ذلك بأنهم يصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام إهم قوم فاسقون . وحمل أيداد ومصر وربيعة وأثمار وكل من كان من بني إسماعيل في مكة السلاح ابتغاء إجلاء من لم يعظموا حرمان الله ، وإن كانوا أحوالهم وإن تزوجوا فيهم .

ودارت الحرب بين الحق والباطل ، بين جود الله وحزب الشيطان ،
وراح الرجال يمشون إلى الرجال يلعبون بالسيوف ويسددون السهام ،
وكانت قلوب العدنانيين عامرة بالإيمان فيما كانت قلوب جرهم هواء .
وسالت الدماء ، وحى وطيس القتال على سفوح الجبال وفي الرادى
المقدس وحول الكعبة ، وانكسرت جرهم فراحوا يتأهبون ليولوا الأدبار ،
وأحس الحارث شيخ جرهم وملكهم أن الدائرة ستدور على قومه فانطلق إلى
خوف الكعبة وأخرج الغزاليين وكانا من الذهب ، وانتزع حجر الركن وقد
عزم على أن يفر بما حمل .

والتفت الحارث حوله فرأى العدنانيين ظهرُوا على قومه ، فإن انطلق
بإعزاليين وحجر الركن فما أسرع أن يلحقوا به ويستولوا على ما معه ،
ورفعت عيابه على ثمر زمزم وفي مثل لمح البصر قفزت إلى رأسه فكرة محف
لتميدها .

راح يدهن الغزاليين وحجر الركن في البثر وأهال عليها التراب ، ثم امتطى
رحلته وأرعى لها العنان ، وأحس الرجال فرار قائدهم فوَلُوا الأدبار وهروا
مخلفين وراءهم مكة .

واحد الحارث ومن بقى معه من فلول جرهم إلى اليمن ، وما عاب البيت
عن عييه حتى هاحه الشوق فراح يشدق صوت أقرب للنحيب :

كأن لم يكس بين الحجون إلى الصفا

أليس ولم يسمر بمكة سامر

بلى نحن كننا أهلها فأرانا

صروف الليالي والحدود العوائر

وكننا ولاية البيت من بعد نابت
نطسوف ببدك البيت والخير طاهر
ملكنا معزبا فأعظم ممكننا
فليس لحي غمرنا ثم فأنحسر
وكننا لإسماعيل صهرا وجيرة
فأبساؤه ما ونحن الأصاهر
فأنخرجنا منها المليك بقدره
كذلك بالناس تجرى المقادر
أقول إذا نسام الحلى ولم أم
إذا العرش لا يبعد سهيس وعامر
وصربا أحاديث وكننا بغيطة
كذلك عضتنا المنود العواير
فسحت دموع العين تبكى للدة
ها حرم أمن وفيها المشاعر
بواد أنيس ليس يؤدى حمامه
ولا مفسر فيها وفيها العصافر
وفيها وحوش لا ترام أنيسة
إذا أخرجت منها فما ان تغادر

٧

طوى ارمس أيام قورش وقمير ودارا ، وامتدت الإمبراطورية الفارسية بفصل الفحة الروحية التي نفحها ررادشت في روح الشعب الفارسي من فارس إلى بلاد كوش جنوبي مصر ، وراح الفرس يحلمون بتحطيم منافسيهم الإغريق والاستيلاء على عاصمة مدكهم أثينا .

كان ررادشت قد أشعل ناراً للتذكر المؤمنين بأهورامزدا الإله الحكيم رب العالمين ، فطال على الناس الأمد ونست قلوبهم وسوا أصل الدين القيم وحسبوا أن النار تعبد لذاتها ، فسوا بيوت البيران وخروا لها ساجدين ، وذهب دين ررادشت فيما ذهب وحاء على أنقاضه دين المحوس .

كان أحشويرش واليا على بابل أثناء حكم أبيه دارا ، وقد استمرت هذه الولاية اثني عشر عاما ، فلما هلك دارا تولى أحشويرش ملك فارس وصار ملك الملوك « شاهنشاه » .

وكان أول عمل قام به هو إخماد الثورة التي اندلعت في مصر . وقد عذب وقتل وهدم المعابد وصب جام غضبه على الكهنة وقصت سيوفه على الحيوانات المقدسة .

وقامت ثورة أخرى في بابل فدق حصون المدينة وهدم معابدها وسب كل ما فيها من تماثيل ذهبية لمردوخ ونانا وعشتار ، ولم يتركها إلا حرائب تجري الحردان في أكوامها وتنقع اليوم على آثارها .

وتلعل نفوذ اليهود في دواوين كسرى ورأوا أنه كلما اتسعت رقعة فارس (العديايون)

امتدت سلسلة سلطانهم واردهرت تجارهم ووقعت دول وممالك في قبضتهم الاقتصادية ، فراحوا يزيون لأخشویرش غزو بلاد اليونان للقضاء على منافسة الإغريق ، وأغروه أن يسير في لبر لا في البحر يتمكنوا من ترك حلقات اليهود في مدد القوافل التجارية ، فما كان البحر يصبح لتحقيق مآربهم .

وسار أخشویرش على رأس جيشه واليهود معه يثرون جماعات مهم في بقاع الأرض ليتحقق لهم حلم السيطرة العالمية على تجارة الدنيا وسياستها بأيد ترتدى قفازات حريرية .

وفي سبعة أيام أقام الفينيقيون جسرا على السفور عبره أخشویرش وجنوده ، وانطلقوا يصيخون أسماعهم لأهازيج النصر حتى وطئوا بأقدامهم أرض ثينا قلب إمبراطورية الإغريق الناصر ، وقبل أن يتمكن أخشویرش من أن يطعن الإغريق الطعنة القاتلة جاءت الأنباء أن الأسطول اليوناني حطم الأسطول الفارسي في معركة سلاميس البحرية .

وعرف قلب أخشویرش الخوف واستولت عليه فكرة أنه إن لم يسحب بحوده سريعا فسيلتف حوله اليونانيون ويقصون عليه وعلى من معه من حيرة جود فارس ، وقد يكون في ذلك صياغ الإمبراطورية .

وانسحب الشاهنشاه إلى أرض فارس وراح يفكر في أمره ، إن سلطانه يمتد إلى شعوب لم يمتد إليها سلطان ملث قبله ، فولاية الهد تدفع إلى حرائه ما يقرب من خمسة آلاف وزنة من الفضة كل سنة ، وتدفع بابل وآشور ألف ورة ، أما مصر فقد كانت تدفع سعمائة ورة وكميات من القمح تكفي لإطعام مائة وعشرين ألف نسمة ، وكانت سورية وفلسطين تدفعان ثلاثمائة وستين ورة ، وكانت بلاد الميديين تبعث مائة ألف رأس من الغنم ، وكانت

بلاد أرمينيا ترسل ثلاثين ألف طير إلى الملك الذي يتربع على عرشه .
فكر أحشوريش فرأى أن وريثات هائلة من الذهب والفضة ترد إليه ،
وكانت الوريثة قرابة نصف الكيلو ، وأن العملة التي تحمل صورته تتداول في
كل الأرض ، وأن البريد منتظم بين عاصمة ملكه وجميع ولاياته ، وأن
الضرائب تحبى لتصب في خزانته ، فماله والحروب ، لماذا لا يتمتع حياته
ويسى القصور ويعيش في ترف ويفرق في اللذات ؟

وعص القصر بالنساء والمعبيات وأدوات الطرب والشراب ، وبدأت
المدنية الطاغية تسحر في البهائم الأشم الذي أقامته مملكة رادشت الروحية .
تلك البهائم التي حملت الرعاة الحفاة الذين كانوا يعيشون حياة الصلح في
فارس إلى أقصى الأرض .

ورأى اليهود أن الفرصة الذهبية سحبت ، فما دام ملك الملوك قد اسكن
للترف فما أسير أن يستولوا عليه وأن يجعلوه العوبة في يد عابية يهودية . وما
أكثر الغايات العاتية في بني إسرائيل .

وقف مردحاي وكان من اليهود الذين يقفون خراصة قصر ملك الملوك في
ثياب مرركشة ، وقف منتصباً كتمثال وبكس الأفكار كانت تشال على
رأسه ، فرأى نفسه وهو يباع في أسواق الرقيق إلى رجل فقير لم يكن صاحب
صياغ أو قصور بل صاحب عمل اشتراه ليعاونه في عمله ، ورأى نفسه وهو
يعمل لذلك الرجل حتى كسب ثقلته ، ثم كاتته على أن يهب له حريته لقاء مبلغ
كبير ، وما كان يهودياً فقد كان قادراً على كسب الأموال من كل السبل ،
فرح يعمل حتى ادخر ما يملك به رقه ويعيد إليه حريته ..

ودخل مردحاي غرفته في القصر الكبير فألقى إستراسة أحيه تنضلع إلى

صورتها في المرأة وقد لاح في وجهها الرضا ، كانت رائعة الحسن شديدة الأسر عينها تلمعان يريق يخطف القسوب ، وشعرها الأسود الجميل المسترسل خلفها يريد لها روعة وحسنا ، كانت في السابعة عشرة يزيها تاج الشباب ويتدفق فيها الدم الفوار .

ورمقها بظرة طويلة وقال :

— ما خلق الله هذا الجمال عشا ، لا بد يا باستر أن يذل لمصلحة بى إسرائيل .

وشر د قليلا ثم قال :

— لا بد أن يستوى على هذا القصر ، أنا بسهاى وأنت بجمالك ، فما جئت إلى هنا إلا لأتسلط على القصر ومن فيه وأحرك رجاله ليعملوا على ما فيه مصلحة لنا نحن اليهود .

— حلم لذيذ وما أحسب أن ذلك ميسور .

— ما أبسر ذلك على من يفق الأموال ويقدم مثل حمالك الفاتن البديع ، أتعرفين ممو كان حكيم المملكة الذى لا يقطع الملك أمرا إلا إذا استشاره ؟ إنه طوع باني أعرقته بهداياى . إنه ليس وحده الذى استملته ليأبهاك الخصيان السبعة الذين لا يعادرون الملك في الليل أو في النهار .

— أنتحسب أنا سحج في استقالة كل الرجال بالمال ؟

— من لم يأسره المال يأسره الجمال .

وتأهب القصر للوليمة الكبرى التى أعدها الملك أحشوريش للأمراء وأشرف قومه ورؤساء مملكته ، كان الملك يريد أن يطهر لسان عظمته ليردد في أعينهم رفعة ، فأنفق على الوليمة بسحاء .

وتوافد الأمراء والأشرف إلى حديقة القصر ، وأقبل الملك يتألق

كجوهرة ، وجاء الخدم بكتوس الذهب والفصة يقدمون الخمر ، وانقضى الليل والجميع في حبور حتى إذا قام الملك انصرف الجميع ليعودوا إلى الوليمة في اليوم التالي ، فقد كان مقرراً أن تستمر وليمة الأمراء والأشراف مائة وثمانين يوماً .

وأعدت الملكة وشتى وليمة للنساء ، فما كان الرجال والنساء يجتمعون في مكان واحد ، واستمرت هذه الوليمة أياماً وأسابيع وشهوراً .

وأراد الملك أن يشرك عامة الشعب في الإعجاب بعظمته فدعا الشعب إلى قصره ، ودعت الملكة النساء إلى حاحها .

وراح الخدم يصبون الخمر حتى جرت أنهاراً .

وانتشى الملك ولعت الخمر برأسه فقال للعلماء :

— إن امرأتى أحمل امرأة في هذه البلاد ، ألا تصدقون ؟ ستروها الآن وستحكمون أنها أحمل امرأة في الوجود .

ونادى الملك خصيانته :

— برتا .. حاربوا . اذهبوا وقولوا لها إنى أطلها هنا يرى الناس حملها

البديع .

كان مردخاي حاصر فتمعت في دهنه فكرة ، فاقرب من الخصى كركس وهمس في أذنه :

— ليت الملكة ترفض الحضور . كيف تحصر جلالتها إلى هؤلاء

السكرارى ، لو كان لى من الأمر كثير أو قليل لدهت إليها أشير عليها بعدم الحىء .

وانسل إلى موكان الحكيم حتى إذا ما عاد الخصى التقم أدبه وهمس :

— يجبل إلي أن الملكة رفضت الحىء ، فلونها رفضت مكان في ذلك إهانة

للملك وللشعب جميعا .

وتقدم الخصيان إلى شاهنشاه وقالوا :

— لا تقل جلالته أن نجى تعرض نفسها على سكارى يترجى .

فصاح الملك فى غضب :

— أين مموكان ليرى رأيه فى هذه التى عصت أوامرنا ؟

وحاء مموكان يقول ما أوحى به إليه مردحاي

— إن الملكة وشئى تستحق أن تجرد من نقى وأن تطرد من انقصر حزاء

وفاقا عى عرورها وعدم خصوعها لما أمر به جلالته .

— على بالكتاب ليكتبوا إلى أقطار مملكته أن الملك أحشويوش شاهنشاه

فارس طلق المكة وشئى لعصياها أوامره . فما كان لامرأة أن تعصى روجه

لأنه وحده الحاكم فى بيته .

ودخل مردحاي على إستر وهو يتهلل بالمرح وقال ها .

— إستر ! أن لهذا الحمال أن يسود . طلق الملك الملكة وطردها من

قصره . إنه بعد أن طلقها سيحبس وحشة وسيشد السلوى ، سيبحث عن

العدارى الفاتنات فى مملكته ، وليس فيها من هى أفتى ملك يا إستر ، سأقدمك

إليه سسيه ليه وتقديه حيث تقديه ، ولن تقديه إلا إلى ما فيه مصلحة بنى

إسرائيل .

— أتقدمنى يا عمى حظية للملك ؟

— أحل حظية للملك ، حظية الملك التى تقدم جسدها صيانة لمصالح

شعبها . يا لها من تضحية كريمة حلقة بنا يا إستر

وبعث الملك رسبه إلى أنحاء مملكته يتمسكون افتيات الأبقار الحميلات ،

وتوافد إلى القصر فتيات رائعات الحسن مشوقات القد ، غاية فى الفتنة

والجمال ، ودفع بهن إلى هيجاي حارس النساء لطيبهن بالعطور والبخور والأدهان .

وفي ذات يوم همس مردخاي في أذن هيجاي أنه عثر على تحفة من تحف الجمال ، واتمس منه أن يأتي معه ليراها فإنه على ثقة من أنها ستبهز الخصى الخبير في النساء .

وانطلق مردخاي وهيجاي إلى حيث كانت إستر ، وأبرمت بين مردخاي والخصى أحطط معاهدة أبرمها اليهود !

كان هيجاي يدفع إلى الملك بعذراء كل ليلة ، فما تنقضى الليلة ويلوح نور الصباح حتى يدفع بالمرأة إلى حارس السراى لتضم إلى قطع النساء المترقيات إشارة من الملك تسرى عنه ليلة .

وجاءت الليلة المرتقبة ليلة دخول إستر على الملك ، فأخذ هيجاي يتنصت في تريبها ويوصيها بما تفعل لتفتن الملك وتستولي منه على السمع والبصر والفؤاد . وانقضت الليلة وجاءت الليلة التالية ، وجاء إليها هيجاي يرف إليها البشرى الغالية ، إن الملك يطلبها ليلة ثانية .

وتصرمت البيالى والملك يطلب إستر كل ليلة فقد شغف بها حبا . وفي ذات ليلة لعبت الخمر برأسه وأسرت أفانين بت اليهود صادى بإستر ملكة على البلاد .

وراح مردخاي يتقرب من أخشويرش ، إنه يريد أن يصبح المحرك لملك من وراء ستار ، وراح يسترق السمع لكل حديث ويحصى حركات رجال القصر ، ولما كان الملك قد ألقى بنفسه في أحضان الحون وأسلس قياده لليهود فقد أحقق ذلك كل من حوله .

كان بغثان وترشى حصيا الملك حارسا الباب يديران مؤامرة اغتيال

الملك ، ويسمع مردحاي بهما ويجوهما فيرفع الأمر إلى إستر ، ويقض على
العلامين ويحكم عليهما بالقتل والصلب ، ويهكر في مكافأة مردحاي فيبعث
إلى هامان وزيره ويقول :

— أنقد مردحاي حياتي وإني أفكر في أن أدبه مسي .

— أرى يا مولاي أن تمحه جائزة وأن ندعه حيث هو .

— لماذا يا هامان ؟

— لأنه يهودي ويهودي لا يخلص إلا لنفسه .

ودخلت إستر على الملك وقالت :

— ماذا فعلت لمردحاي يا مولاي ؟

— أعطيته جائزة .

— إن ما فعله مردحاي يستحق أن يسجل يا مولاي .

— هذا حق .

وأمر أخشويرش أن يدون ما فعله مردحاي في التوراة ، في سمر أخبار
الأيام ، فقد صارت التوراة سجلاً لتاريخ اليهود . فويل للذين يكتبون الكتاب
بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما
يكسبون .

وفي ذات يوم دخل هامان على الملك وقال له :

— إن اليهود الذين وفدوا إلى بلادنا سبوا من أورشليم قد عظم نفوذهم في

البلاد ، أثروا واعتنوا وأصبحوا أسياد المال المتحكمين في الأسواق والأقوات
والأوراق ، إنهم يتلاعبون بالأسعار ويمتصون دم شعبك يا مولاي

لو كان نفوذهم قد قصر على ديا المال ، لكان لخطب ، ولكن نفوذهم

تغلغل في كل مكان ؛ عثموا الرؤساء الرشوة ويسروا في قلوبهم الطمع

وعرسوا في النفوس الأحقاد ليشعل الشعب بأحقاده عنهم ، إنهم لو قدروا على أن يقوصوا عرشكم تحتكم لقوضوه .

— ماذا ترى أن نفعل فيهم ؟

— نستأصلهم ، نقتل أطفالهم وغلمانهم وشبابهم ونساءهم ورجالهم وشيوخهم ، فنستريح من شرورهم .

— هذا هو الرأي يا هامان . نخذ حاتمي وأصدر إلى الولاة أمرا بقتل كل يهودي في ولاياتهم .

وعلم مردحاي بالأمر الملكي القاصي بإبادة اليهود في فارس واهند والبلاد الممتدة إلى كوش جنوبي مصر ، فشق ثيابه وانطلق إلى ميدان القصر يصرح ويوح ، وراح يثو التراب على رأسه . وبلغ إستر ما يفعل فبعثت إليه من يسأله عن الخبر فأرسل لها مع الرسول :

— إن هامان استصدر أمرا بقتل جميع اليهود في الثالث عشر من شهر آذار .

نزلت المحنة بشعب إسرائيل فوجب عليها أن تمد يد العون إلى شعبها . وأولت إستر للملك وهامان وليمة وجلسوا ، ولما دارت الكؤوس قال الملك لإستر :

— ماذا تطالبين يا إستر ؟ لك أن تسأليني نصف مملكتي .

— كل ما أطلبه هو رضى مولاي .

ودخبت إستر مجدعا فإذا بالملك يدعوها إليه ، فذهبت وهي تحمل سمر أحبار الأيام ، ولما أغلق الباب عليهما راحتا تقرأ والملك يصمى ، حتى إذا بلغت قصة مردحاي وتلك المؤامرة التي كانت تدبر لاغتيال أخشويرش قالت :

— هذا رجل أسدى إلى الدولة أجل خدمة ، ماذا فعلت له يا مولاي ؟
— كل ما أذكره أب منحاه بعض المال .

وطوقت الملك بدراعيها وقالت وهي تقبله :

— ليت الدين حولك يا مولاي مثل هذا ارجل الدي أفعم قلبه
بالإخلاص .

غدا ستمكر أنا وهامان في تكريم هذا الرجل .

— لي رجاء يا مولاي ، إذا أردت أن يكون رأى من تستشيرهم خالصا فلا
تذكر له اسم من تريد تكريمه . سله عما يشير بفعله لرجل يسر الملك أن
يكرمه .

واجتمع الملك وهامان وإستر ، وقال الملك لهامان :

— بمادا تشير علينا يا هامان في رجل يسرنا أن نكرمه ؟

— أرى يا مولاي أن يكنف أحد الأشراف بإلباس ذلك الرجل اللباس
السلطاني ، وأب يقدم له فرس الملك ليركبه في ساحة المدينة ، وأن ينطلق
الشريف أمامه يهتف : « هذا جزاء من يرصى الملك عنه ويأمر بتكريمه »
وقال الملك لهامان :

— خذ اللباس والفرس يا هامان واذهب إلى مردخاي ، ذلك اليهودي
الحالس بباني وافعل به كل ما قلته فإنه يسرنا أن نكرمه .

وذهب هامان إلى مردخاي وفي صدره أثون نار يكاد يموت كمداء وألبسه
لباس الملك وأركبه فرسه !

وفي الليل راح أخشويرش يمر يده على عنق إستر ويقول :

— ما أروع هذا العنق البديع !

— هذا العنق البديع يا مولاي ستمعمل فيه السكاكين

— من ذا الذى يجرؤ أن يمسّه !؟

— من أساء استغلال عطفكم ورعايتكم .

— من يكون ؟

— هامان يا مولاي . هامان الذى حرضكم على اليهود ، على الذين

أخلصوا لكم ، والذين لا ذنب لهم إلا أنهم أحبواكم .

— وما علاقتك أنت هامان وبأمره بقتل اليهود ؟

— إني يهودية يا مولاي ، فإذا نفذت أمر القتل فيهم قطعت رأسي معهم ،

بحق حبي يا مولاي أستوهك حيائي وحياة شعبي .

ودخل هامان على إستر وقال لها :

— ليتنى أعرف ذلك الذى مشى بالهتان بيني وبين مولاي .

فهبت إستر كسرة وقالت في قسوة :

— أنا يا هامان ، أنا إستر اليهودية التى وسوست للملك أن يبيدها ويبيد

شعبها .

— ما كنت أعرف يا مولائي أنك يهودية .

— آه لو كنت تعرف لفرشت طريق اليهود بالورود !.

— لا . ما كنت أفعل إلا ما فيه مصلحة مولاي ومصلحة بلادى . كنت

أشير عليه أن يبيدهم لأن فى إبادتهم حياته وحياة شعبه .

وصاحت إستر :

— ابتعد يا أبغض من وقعت عليه عيصى .. ابتعد .. اخرج ..

وفتح الباب ودخل الملك وصوت إستيرين فى أذنيه . فثارت نائثرته ورأى

هامان بالقرب من شغفها حبا فتحركت غمته فصاح :

— يا إلهيم الذى أكرمته فكفر بعمتى ودخل على أهلى فى غفلة منى !

وقتل هامان فخلا الحو لإستر ، وأصبح أحشويرش أطوع لها من بابها
تحركه كيف تشاء ، فكانت تنفذ أهدافها بين رشف الكئوس ورشف
الشغور ، فمكنت لمردحاي في القصر وأقمت الملك أن يبعث إلى الولاية أن
الملك العادل أحشويرش قد عما عن اليهود وأكرمهم وخصهم برعايته .

وتحركت في إستر روح الشر ، فراحت تحرض اليهود على التكيل بأهل
البلاد لنزل الرعب بقلوبهم فتمكن لأهلها في الأرض ، فقام في مملكة
أحشويرش عهد من الإرهاب ، في ظل إستر ومردحاي ، وفي عملة من الملك
اللاهي عن شعبه بالחסد الذي يحوى بين جنبيه روحا تعطش إلى سفك
الدماء .

وراح مردحاي يقدم إلى الملك أسريا من العذارى ليشعبه باللدّة عن
إنصاف المظلومين وما أكرهم في ملكه .

وصارت المملكة الفارسية الهائلة الممتدة من اهد وفارس إلى كوش مرتعا
حصبا لليهود ؛ يعيش فيها فسادا ؛ ورصى اليهود عن إستر وعدسوها .
ودوبوا قصتها في التوراة وحلّعوا عليها هذا اللقب « إستر القديسة » وصارت
عند كل يهودى ملء العين والمؤاد .

٨

قامت العداوة بين الشرق والعرب ، بين الفرس واليونان ، وكانت عداوة شديدة الضراوة حتى إن أحشويرش حرق بحوشه ليعتقل أثينا ، ولكنه اسحب منها ليرعى في أحصان المدة واليهود .

ونحرب المدة والدعة والفساد في عظام الإمبراطورية الفارسية ، وراح مردحاي يسوم الفارسيين العذاب ، يقتل كل من يرفع صوته بالإصلاح ويردى أعداء اليهود في التهلكة وينكل بالمترمين من سلطانه وسلطان إستر ، الساخطين من تعدل اليهود في اقتصاد البلاد واستيلائهم على مابع الثروات . وراحت دولة اليونان الفتية تتأهب لتتعب دورها في المنطقة بعد أن رأت الفساد يستشري في فارس ، والأغبياء يقلسون الشاهنشاه في ترفه واستسلامه لليهود ، لقد دب الضعف والاحلال في كيان أعدائها وإن بدا لاساس شامخا مهيبا

ويبسا استشعرت اليونان راحة لذلك السوس الذي بدأ ينحرف في عظام الإمبراطورية الفارسية ، أحست ممالك البسط وقيدار وقبائل بني إسماعيل الأخرى قلقا ، فقد تحالفوا مع الفرس وعاونوا قسبر على فتح مصر ومدوا يد العون إلى دارا من بعده وباركوا فكرة إحياء توصيل البحر الأحمر بالبحر الأبيض عن طريق النيل ، فقام دارا بحفر قناة توصل بين شرق الدلتا والبحيرات والبحر الأحمر ؟

إنه ذلك المشروع القديم الذي بدؤه ملوك الأسرة الثانية عشرة ، وقد

حاول نكاو الثانى فى لأسرة السادسة والعشرين أن ينفذه ، وبعد أن قطع فيه شوطا وتحمل فى سبيله توضحيات كثيرة توقف عن المضى فيه نزولا على وحى من هيكل مدينة « بوتو » يعلن فى وصوح أن هذا العمل ضار بمصر ، ولن يستفيد منه إلا أعداؤها ؟

كانت العلاقة بين الفرس والعرب لا تزال طيبة ، فقد أوصى زرادشت أتباعه أن يتبعوا تعاليمه إلى أن يجيئهم صاحب الحمل الأحمر الذى سيبعث فى العرب نبلا أنديا عدلا وورا ، وكان ملوك قيدار والنط وشيوخ الإسماعيليين سعداء بهذه الصلة الطيبة ، كانوا تجارا ، وكانت أطماعهم عريضة ، وأن العلاقات الطيبة بينهم وبين فارس العظيمة تمكن لهم من تحقيق آمالهم ، إذا تيسر لهم حمل اللبان والمر والطيب والحرير والذهب والمضة إلى الهدى وإلى كوش حوى مصر ، وقد عاوت انقاة التى حفرها دارا على اردهار تجارهم .

كان ملوك البط وقيدار وشيوخ لإسماعيليين مطمئنين ما دامت فارس حديقتهم قوية مرهوبة الخائب فلما ظهرت بوادر الضعف فى حلمائهم فى قصر أخشويرش أوحسوا خيفة ، فلو قضت مؤامرات الساء التى تنسج فى حبات القصر على إمبراطورية أحمداد قورش ، فإن ساعد اليونان سينشد وتصبح مصر وسورية وممالك البط وقيدار وسى لإسماعيل الممتدة بين مصر وبابل ميدانا للقتال بين الإمبراطورية العارسية الماربية وإمبراطورية اليونان التى بدأت ترتفع ليشرق نورها على العالمين .

وراح البط يحرصون عاصمتهم أثيراء ويسون الحصون فى الحال حتى صارت كالصخرة يصعب احتراقها ، وراح بو قيدار يقوون قلاع دومة الحدل ويتأهبون جميعا للدفاع عن حريتهم إذا جاء الإغريق يوما ليطغوا

بلادهم التي لم تسترق أبدا لدولة من الدول أو مبراطورية من الإمبراطوريات العظيمة التي تعاقبت على المنطقة ، مدحروا من مكة ليتسحوا في الأرض .

وفي ذات ليلة بينما كان أحشويرش يسير في ردهات القصر يترنح من خمر إستر إدا طعنه أحد الحجاب طعة قاتله ، فدبت الموضى في البلاد ، وأعمل الطامعون في العرش سيوفهم في رقاب منافسيهم فجرت الدماء أنهارا ، وأحيرا تمكر أرخششتا الأول ابن أحشويرش من أن يتولى الملك معاونة اليهود ، وأن يصح شاهشاه فارس .

وحقت الممالك التي أرادت أن تتحرر من سيطرة فارس من الهند إلى كوش على اليهود الذين عاوبوا على عودة الحكم إلى ابن أحشويرش ، ورددت كراهيتهم لهم . ولكن مادامهم اليهود من تلك الكراهية مادام ملوك فارس قد أصبحوا ألعوبة في أيديهم ويوجهوهم حيث يشاؤون !

كان قورش قد سمح لليهود الذين حبسهم من دل الأسر ببابل أن يعودوا إلى فلسطين وأن يعيدوا بناء هيكلهم الذي خربه بختنصر ، وأمر قورش الجماعات التي كان اليهود يعيشون بينها أن تعينهم بالمال الذي يحتاجون إليه في رحلتهم الطويلة إلى فلسطين ، ولم يتحمس شباب اليهود لذلك التحرير لأن كثيرا منهم تأقلموا في التربة البابلية وامتدت أصولهم فيها ، فترددوا طويلا في ترك حقوقهم الخصبة وتجارهم الرائجة ليعودوا إلى القفار الخربة في المدينة المقدسة !

ومرت ستان على بداء قورش قبل أن تبدأ الفصيدة الأولى من اليهود المتحمسين رحلتها الطويلة التي دامت ثلاثة أشهر إلى الأرض التي خرج منها آباؤهم قبل ذلك بمائة عام .

وأذن دارا الأول لليهود أن يعيدوا بناء الهيكل فأتوا ببدء بعد اثنتي عشرة سنة ، ودبت الحياة مرة أخرى في أورشليم ، وكان أشعيا قد ألقى نظرة عليها منذ مائة سنة بعد أن دمرها بختنصر وقال :

— أنى يحى هذه الله بعد موتها ؟

فأماته الله مائة عام ثم بعثه قال :

— كم ليشت ؟

قل :

— ليشت يوما أو بعض يوم .

قل :

— بل ليشت مائة عام ، فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنَّ ، وانظر إلى حمارك ولجعلك آية سناس ، وانظر إلى العظام كيف سهرها ثم كسوها لحما .

فلما تبين له قال :

— أعلم أن الله على كل شيء قدير .

وقام أشعيا يستأنف دعوته ، ودعاه كتاب التوراة أشعيا الثاني ! .

وأراد اليهود الذين استولوا بدهائهم وسائهم على ملوك فارس أن تكون لهم الحكمة العليا في أورشليم ، فراحوا يريون لأرئخششتا أن يسمح بعودة العرير في ألف وخمسمائة يهودي ممن شوا في أرض السبي إلى أورشليم ، ليتمكنوا لسلطان فارس في الأرض التي بارك الله فيها للعالمين

وعاد العزير والذين معه إلى بيت المقدس ، وكان العرير يحمل التوراة التي أعيدت كتابتها في بابل بعد أن حرق بختنصر كل نسخ لتوراة يوم أن غزا أورشليم واليهودية .

تأثرت التوراة التي كتبها أحرار اليهود في أرض السبي بأصاغير البابليين ،
فقد كان لبابليين أيام حرم : أيام صوم ودعاء يحرمون العمل فيها وكانوا
يطلقون على تلك الأيام شبتو ، فحرم اليهود العمل في يوم السبت ، وما جاء
بذلك الآباء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب .

وسبي اليهود في أرض السبي الحياة الأخرى واعتنقوا ما كان يعتنقه
البابليون من أن الإنسان يذهب بعد الموت إلى لأرض اسي لا رجعة منها ، إلى
أرض الظلام وأطلقوا عليها شيول ، ثم قالوا إن الإنسان يثاب على أفعاله
ويعاقب عليها في الحياة الدنيا .

وراحت التوراة الجديدة تروى تاريخ اليهود فرفعت إستر إلى مرتبة
القداسة ، ولما كان اليهود في ذلك الوقت أذلة ملطحين بالعار فقد ألصقوا
بالرسل والأنبياء كل نقيصة ، وجعلوهم يعاقرون الخمر ويرتكبون المواحش
ويضطجعون مع بناتهم ولا يتورعون عن الكذب والزنا وإتيان الفسوق !

كان اليهود في فلسطين في شوق إلى التوراة ، فلما جاءهم العزيز بما كتب
في أرض السبي فتنوا به حتى إنهم قالوا : العزيز ابن الله

ولم تعرف أرض فلسطين الاستقرار طويلا ، فسرعان ما شب النزاع بين
اليهود الذين عادوا مع العزيز واليهود الذين كانوا في فلسطين قبل عودة من
كانوا في أرض السبي ، ونشبت مناقشات حامية بين يهود أورشليم ويهود
السامرة ، قال السامريون إن كانت التوراة قد نزلت على موسى فعلى من نزلت
الأحداث التي تروى تاريخ اليهود بعد موسى ؟ ومن ذا الذي روى الآيات
الوردة في التوراة الجديدة بعد الإصحاحات الخمسة الأولى ؟ ومن ذا جعل
إستر قديسة ؟

واشتد الخلاف بين العرير وقومه وبين السامريين الذين لم يعترفوا
(العديايون)

إلا بالإصحاحات الخمسة الأولى ، ورأى العرير أن يستنجد بأرتخششتا بعد أن بلغ التراجع بين اليهود الوافدين من فارس وبين السامريين حدا يندر بنشوب احرب بينهم ، بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وراح اليهود الذين استولوا على عقول ملوك فارس يزيون للملك نصر اليهود الذين حرجوا مع العرير بحجة تمكين سلطان الفرس في فلسطين ، فبعث أرتخششتا ساقيه نحماي وكان يهوديا ليحكم بين الذين اختلفوا في التوراة . مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوه كمثل الحمار يحمل أسفارا ، فس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين .

و نطلق نحماي إلى فلسطين يحاول أن يلم شمل اليهود المختلفين وأن يعيد بناء ما تهدم من أماكنهم المقدسة ، وانتهى به الأمر أن جعل الشاهشاه يعترف بالحاحام الأكبر ملكا على اورشليم وأرض يهوذا . وعلى الرغم من ذلك ظل الخلاف ناشبا بين اليهود والسامريين . وإن الذين اختلفوا في الكتاب لفي شقاق بعيد .

طال على اليهود الأمد فقصت قلوبهم ونسوا رب إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ورب موسى وهارون ، رب العالمين ، فراحوا يكتبون في توراتهم الحديدية أن موسى صنع أفعى نحسية ، وأن اليهود عبدوها في الهيكل إلى أيام حرقيا ، وقدسوا الأفعى لأنها رمز الدكورة المخصصة ولأنها تمثل الحكمة والدهاء والخلود .

وانخذوا يوه إلها وصاعوه في الصورة التي كانوا عليها فجعلوه إلها صارما ذا نزعة حربية صعب المراس ولم يجعلوه عالما بكل شيء ، قالوا في توراتهم الجديدة إن إلههم طلب منهم أن يميزوا بيوتهم لما تأهبوا للحروح من

مصر بأن يرشوها بدماء الكباش المصحاة لئلا يهلك أبناؤهم على غير علم منه مع من يهلك من أبناء المصريين !

وراح الكهنة يؤكدون في تورايم الحديدة أن لا أحد غير الكهنة يستطيع أن يقرب القرابين التي يتقبلها الإله ، أو يفسر الطقوس أو الأسرار الدينية ، فأصبح كهنة الهيكل الثاني في بيت المقدس أقوى من الملوك أنفسهم .

ولم يجمعوا يهوه إلهها واحدا لا شريك له بل جعلوه يقر بوجود آلهة أخرى ، وكان كل ما يفيغه أن يكون فوق مقام سائر الأرباب ، وقد قالوا على لسان موسى : « من مثلك بين الآلهة يارب ؟ » وقانونا على لسان سليمان : « إلهنا أعظم من جميع الآلهة » .

« إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو وسع كل شيء علما »

وفسد دين إبراهيم بين بنى إسرائيل كما فسد بين بنى إسماعيل الذين خرجوا من مكة ليتفسيحوا في الأرض ، واستقروا في شمال الجزيرة العربية على حدود بابل ودمشق ومصر ، ولم يبق دين إبراهيم على نقاوته إلا حول البيت الذي أقام قواعده إبراهيم وإسماعيل ، أول بيت وضع للناس ، ذلك البيت الذي جعله الله مثابة للناس وأمنا .

وراح مصر ورجال قافلته يطوفون بالبيت طواف الوداع قبل أن يطلقوا إلى البتراء عاصمة السط ، فقد ظلت العلاقات الطيبة بين العدنانيين وملاك النبط فلم ينس العدنانيون يوما أنهم منهم وأن معد بن عدنان قد بشر لقلم النبطي في ربوع مكة .

واطلق مضر بتجارته بحوب الآفاق ، وبينما كان في طريق عودته إلى الحرم وقد نال الإبل التعب والكلال وحث إلى الراحة ، إذا به يسقط عن غيرهِ فوثبت يده ، فراح يمشي خلف الإبل ويقول :

— وايداه ! وايداه !

وكان مضر من أحسن الناس صوتا ، فلما سمعت الإبل ترنمه بذلك دپ
فيها النشاط وذهب عنها كلاها ، وفطن من في القافلة إلى أن الإبل قد اعتنقت
وعادت إليها حيويتها ما داعب آذانها ترمم مصر ، وعرف القوم أن الحداء
يذهب كلال الإبل ، فكان مضر أول من سس الحداء في العرب .

كان زرادشت قد علم قومه أن لا إله إلا أهورا مزدا إله النور ، الإله الحكيم ، وأن ليس معه إلا صفاته ؛ الروح الطاهرة والعدل والنية الطيبة والعمل الصالح والصدق والتقوى والخلود . وحذروهم من قوى الشر المتمثلة في « أهريما » الشيطان الرجيم ، وأنذروهم بيوم لا بيع فيه ولا شراء ؛ يوم الدينونة والحساب وخلود أرواح المتقين الأبرار في عالم النعيم ، أما أرواح الأشرار فلها الويل والخبور .

وفرض زرادشت على أتباعه الصلوات الخمس وحرم عليهم الضحايا والقربان ، وكان الكهنة « المجوس » يقدمونها لآلهتهم الشمس والقمر والأرض والنار والماء والريخ ، وحرم الخمر وكان أهل فارس يشربون « الهوما » المسكر وكان المجوس يقدمونه في الطقوس الدينية ويؤكدون أنه دم الإله يجري في شرايين المؤمنين !

ونفخ زرادشت في أرواح الفارسيين نفخة روحية عظيمة حملتهم من هضبتهم القاسية إلى أقصى الأرض : إلى القوقاز وأفغانستان وبلوخستان والهند وإلى أواسط آسيا الصغرى وإلى بلاد الرافدين وسورية وفينيقييا وفلسطين ومصر والمدن اليونانية في السواحل العربية للأناضول ، إن الأرض يرثها عبادي الصالحون .

وازدهرت فارس وحملت إليها خيرات العالمين ، وزخرت عاصمتها اصطخر بفنون الشعوب التي سبقتها في الإيمان والحضارة ؛ بابل وسورية

وفلسطين ومصر ، فما قامت حضارة إلا بعد انتفاضة روحية ملأت جواب المؤمنين بالنور . فاصبر إن العاقبة للمتقين .

واحرعت القود وقامت دور السك في فارس وفي اليونان وفي أرض الببط بضرب العملة ورسم صور الملوك عليها . وقد يسر ذلك الاحتراع التجارة فنشطت القوافل ، وراح البريد يجري في جسم الإمبراطورية الفارسية جريان الدم في الشرايين .

واتخذت فارس اللغة الآرامية لغة التجارة ، فانتشر الخط الآرامي إلى حوار الخط المسماري العارسي . وكان عرب الببط يكتبون بالآرامية ولا غرو فقد كانوا يمشون بالتجارة بين الهند وفارس وبابل ودمشق وغرة ومصر ويثرب ومكة واليمن ، فاردهرت تجارتهم وقوى نفوذهم في المنطقة .

وكان النبط يجنون كل عون من عرب الفرس ، أولئك العرب الذين أسكهم بختصر الحيرة يوم أن وثب على العرب وقتلهم وأسروهم من أسر . ومما ساعد النبط على مد نفوذهم التجاري في فارس أن العرب الذين نزلوا بالحيرة والأنبار كانوا من بني إسماعيل ، كان الأصل واحدا والمصلحة واحدة .

ولم تنقطع الصلة بين العدنانيين وبين النبط وعرب الحيرة والأنبار ، فقد كانت تجارة برار تنطلق من مكة إلى يثرب إلى البتراء ومنها إلى أسواق فارس أو أسواق الشام ومصر ، وكان مصر يغدو ويروح بين الأنصار بتجارة مكة ، فإن كان بنو معد بن عدنان قد استقروا إلى جوار الكعبة فإنهم لم يسوا يوما أنهم من السط أمهر تحار العرب الذين تحصنوا في صحرتهم المبيعة البتراء التي نحتت في صحور الحلال ، والنداحت مملكتهن حتى أشرفت على حدود بابل ومصر ، وأشرأت بعقها لتنتشر ظلها على دمشق ودلتا النيل .

مضى على أسرة فورش قربان من الرمان وقد مكها إيمانها بالله الواحد القهر أهورا مردا إله النور الإله الحكيم أن تبسط سلطانها على ممالك الأرض ، وأن تكون في أقصر مدة أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ القديم . ولكن طال على الناس الأمد فقسفت قلوبهم وراحت أساطير الأولين تتسرب إلى ضمائرهم ، فامتزجت ديانة التوحيد بالوثنية القديمة ونفذ المجوس من خلال دعوة ررادشت إلى قلوب الناس ، وراحوا يشركون مع أهورا مزدا إله الشمس « مئرا » وقالوا : إله العدل والإخلاص .

وبدأ فساد ديانة التوحيد في فارس كما فسدت من قبل بعد نوح في بابل ، وبعد إبراهيم في أرض البط وممالك قيثار وأبناء إسماعيل الذين هاجروا إلى شمال الجزيرة لعربية وفي أرض السبي وفي فلسطين ، فقد جعل الكهنة صمات الله الواحد الأحد آلهة . وجعلوا لله شركاء الحسن وخلقهم ، وخرقوا له بيوت وبيات بعير علم ، سبحانه وتعالى عما يصفون ، بديع السماوات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟ وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم . وعبدت الإلهة « أتاهيتا » إلهة الماء والخطب والنساء في فارس ولم تكن من آلهة الفارسيين في لعصور الحالية ، فهي صورة جديدة لعشتار البابلية . وقد يسر اتصال الشعوب بعضها ببعض انتقال الآلهة كما تنتقل السلع والتوابل والبخور ، فعند أرييس في بلاد الإغريق وصار أدونيس ، وعبدت إيريس في أرض البط وصارت العزى ، وعبدت في اليونان وصارت أفروديت ، وعبدت عرب الحيرة اللات والعزى وسد ، ومن يدرى فقد يكون سد هذا هو ست إله الهكسوس أو أى إله آخر من آلهة الفراعين .

أسن الدين في فارس همام موكها في أحضان اللدة وأسسوا للنساء القياد ، فراح الحسن ينسجى المؤامرات لتفيد مآرهن الشخصية والسياسية ، وقد

نجحت إستر في أن تجعل أخشويرش ألوبة في يدها ليعود ما يملكه عليه اليهود
ليمكنوا سلطانهم في الأرض ، فصار البلاط الفارسي ميدانا لدسائس تحاك في
السلام ومن وراء ستر !

ودهب أخشويرش ونكس نفود اليهود والنساء ارداد تغلغا في شئون
الملك ، وانتهر المجوس كهنة آهة الشمس والقمر والأرض والبار والماء والريخ
ذلك الصعف فراحوا يشجعون الملوك والدماء والنساء ورجال السياسة من
القواديس والمستعيلين على شرب « اهو ما » دم الإله ليخدروا حواسهم ،
ويشعلوهم باللذات عن استغلالهم للشعب وعن امتلاء خزائهم بالأموال .
وشاعت الماحشة في قصور الملوك والأمراء وكبار رجال الدولة ، وانتشر
الفساد في دور العبادة ، وراح اليهود يحرقون كالسوس في عظام الدولة ، ولم
يثر الشعب بل استكان للظلم وجارى ملوكه في الفساد ، ودب في صفوف
الحيش الوهن بعد أن اعتمد ملوك فارس الصعاف على مرتزقة الإغريق الذين
حاجوا من الآفاق يبحثون عن مال وخمر وجسد .

كان كل شيء في فارس يندثر باقتراب هبوب العواصف وسزل
الكوارث ، إن الملك لله يؤتية من يشاء محقه ، وحق الملك إقامة العدل
والإحسان ، فإن انحرف الملك عن الجادة فعلى الشعب أن يقوموا ون يبيده إلى
المصراط المستقيم ، فإن استمر في بهيه وعدوانه فعلى الشعب أن يخلع طاعته ،
فإن لم يفعل حق على الملك والشعب العذاب . ولله ما في السماوات وما في
الأرض وكفى بالله وكيلا ، إن يشأ يذهبكم أيها الناس ويأت بآخرين وكان
الله على ذلك قديرا .

كان أهل فارس ظالمين أنفسهم يكاد أن يصيبهم سيئات ما عملوا ، وفي
ذلك الوقت الذي شاعت فيه الماحشة في فارس كان في بلاد الإغريق شاب

يدعى أرسطوطاليس برع في الرياضة وفاز مرين في الألعاب الكورثية ،
وسماه معلمه الأول الذي كان يعلمه ، الألعاب الرياضية أفلاطون لاتسع
مكيه ، وقد كانت روح أفلاطون دقيقة حساسة فقادته إلى محالس سقراط ،
فكان يلقي إليه سمعه مبهور ، معجبا بمجذله وقوة حجته وفلسفته

وشغف أفلاطون بالحكمة ومعلمه حتى إنه قال : أشكر الله أنى ولدت
يونانيا لا ببريا ، حرا لا عبدا ، رجلا لا امرأة ، وفوق كل ذلك أشكره لأنى
ولدت في عهد سقراط .

ومات معلمه وهو في الثامنة والعشرين ، وكان موته صدمة مروعة للشباب
الراقيي الحس ، فراح يتأمل الحياة والناس فامتلاّت نفسه باحتقار الديمقراطية
ومقت الرعاع ، وما كان ذلك يستعرب منه فقد شأ في لرفاهية والرحاء بل
وفي مهد الثروة ، وآمن بوجوب القصاص على الديمقراطية واستدائها بحكم
الأحكام والأنصص مجنها ، وأصحى أكرهم في الحياة أن يتدع طريقة
يستطيع أن يكشف بها عن أحكام الناس وأفضلهم ثم يقنعهم أن يقتلدوا رمام
الحكم .

وأصبح أفلاطون موضع ريب الديمقراطيين فأشار عليه أصحابه بأن أثينا
لم تعد دار أمان له . وأن العناية الإلهية هيأت له فرصة ليرى العالم ويسير في
الأرض ليكون له قلب يعقل به ، لعله يتهدى إلى ما يريد .

وشد الرحال إلى مصر وأصعى إلى الكهان ولكنه سمع منهم ما يكره ، إذ
قالوا له : إن اليونان لا تزال دولة في المهد ليس لها تقاليد ، وأنها حلو من
الثقافة . وصدمه القول ولكنه فتح عيبيه وجمعه يئلمت ويأمل .

ومن مصر انطلق إلى صقلية فأيطاليا ، وهناك اتصل بالمدرسة التي أنشأها
فيثاغورس ، فتأثر بسيرة طائفة من الرجال لا شأن لهم إلا العكوف على

البحث والحكم ، إنهم تربعوا على العروش وتقلدوا مناصب احكم ولكنهم كانوا يعيشون عيشة السذاجة الطبيعية ، فراح ينهل من المدرسة التي وافقت مزاجه .

وراح أفلاطون يجوب الآفاق وهو يقول مع معلمه سقراط : اعرف نفسك . وراح يدوى بين حبيبه سؤل : ما الإنسان وما مصيره ؟
كان أفلاطون على الرغم من بعدد الآلهة في أوثيمب يؤمن بإله واحد ، وكان يأمل ألا يفنى في التراب متى شرب كأس الردى . فراح يسعى للحصول على الحكمة سعى من يحبها .

وعادت أسئلة كثيرة تلح على ذهنه : ما العدالة ؟ ما الشرف ؟ ما الفضيلة ؟ ما الأدب ؟ ما الوطنية ؟ فلما عاد إلى أثينا راح يكتب محاوراته ليصور المردوس الأرضى الذى يتصوره . وما انتهى مها حتى وضع أمام أعين العالم جمهوريته الفاضلة .

كانت جمهوريته تدور حول الدولة برجالها والأمة بآحادها . وعنده أن المرد دولة مصعرة والدولة جسم كبير ، وأن ما يسعد الدولة يسعد المرد وأن الرجل الكامل والمثل الأعلى هو الذى تحكم عقله في شهوته ، وانقادت حماسته إلى حكمته ، وعاش ومات في خدمة المجتمع .

وأثر أفلاطون في حكم أثينا فنفع فيهم روحا وثابة تتطلع إلى العدل وتحقيق الحكومة العادلة ، فإذا بآمالهم تتسع ليضموا العالم في دولة واحدة .

وانتهى ملك فارس إلى دارا الثالث وكانت حزائنه تفيض بالذهب والفضة ، وكانت قصوره آية من آيات الفنون ، وكان الترف يطل برأسه في المدن الفارسية ، وكانت ككوس الهوما مترعة والحسان يخطرون في القصور والدور أحرارا وإماء يقدمن أنفسهن لطلاب اللذة ، ويععن ضمائرهن

لأصحاب الفتن والمؤامرات .

وأمت فارس جسدا بلا روح ، جسدا نهما إلى الفسوق طار من قلبه الإيمان ، وكثر فيها المترعون من قلوبهم هواء وعقولهم حواء . أولئك الذين خسروا أنفسهم وصل عنهم ما كانوا يفترون .

كان دارا الثالث يرعى في أحضان الحسناء في فارس بينما كان فيليب المقدوني يتعدى بأفكار فلاسفة عصره ويتنقى في سعادة آراء أفلاطون ، ويعلم بإقامة جمهوريته ، فراح يفكر في عزو فارس ، وفي أن يمسح إمبراطوريتها من أطرافها .

ومات قيبيس قبل أن يحقق حلمه وأحلام الفلاسفة ، وقام ابنه الإسكندر من بعده وقد امتلأ وجدانه بحلم الحكومة العالمية والمدنية الفاضلة ، ولما كان الإسكندر شابا طموحا لا حدود لآماله ، فقد راح يعد العدة لعزو العالم ليضمه في حكومة واحدة تخضع لسلطانه ، يمارس فيها من ضروب العدل والإحسان ما يحقق جمهورية أفلاطون الفاضلة

بدأت العداوة بين الشرق والغرب منذ قامت الحروب بين فارس واليونان ، فقد مشى ملوك الفرس حتى وطئوا بخیلهم ورجلهم أرض أثينا ، وكان ذلك أيام أن كانت الشعلة المقدسة متأججة في قلوب المؤمنين من الفرس . أما وقد طال عليهم الأمد وقست قلوبهم وحبست الشعلة الدينية وأسلموا قيادهم لمترفيهم ، فقد حق عليهم العذاب والهوان والاستسلام لأقوام سرت فيهم نفحة روحية جديدة .

سرت في اليونانيين نفحة لروح ، ولكنها نفحة كالبعوض من أثر الفلاسفة ، نفحة ستدفعهم دفعة لى تطول ؛ إن الأرض لله يورثها من يشاء

من عباده ، والعاقبة للمتقين .

من اهتدى فإيما بهتدى لنفسه ، ومن ضل فإيما يضل عليها ، ولا تروا زرة
وزر أخرى . وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا . وإذا أردنا أن نهلك قرية
أمرنا مرفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا .

كانت ولاية البيت في بني إباد بن نزار فكانت لهم السيادة الدينية على مكة ، وانطلقت قوافلهم لتجارية تجوب الآفاق تحمل الذهب والفضة والحبر والتوابل والبخور إلى الأمصار ، وتعود بخيرات مصر وسورية والعراق وفارس إلى البعدة التي حرمها الله .

وكان بنو قصاعة بن معد يحسدون بني إباد أن ذهبوا بالسيادة والشرف والعنى ، وراحوا يتطلعون إلى ولاية البيت ويرصدون الأحداث لعل الإياديين يعون طلعا في الأرض فيحرجونهم من البيت ، ويصبح لهم شرف ولايته . وكانت قوافل بني قصاعة تخرج إلى مملكة النبط التي اردهرت واتسعت رقعتها ، حتى صمت كل قبائل بني إسماعيل في قيذار وعريبي وفي شبه جزيرة سيناء وأصبحت دولة مرهوبة الجباب ، يخطف ودها الفرس والإعريق على السواء ، ويهاهما فرعة مصر حشية الوثوب على دلتا النيل ، وشاهنشاهات فارس حوفا من أن يضعوا أيديهم على دمشق بعد أن أستولوا على عزة ورفح وهددوا أورشليم .

كان بنو قصاعة ينظرون في إعجاب إلى أبناء نابت بن إسماعيل الدين صارت لهم مملكة قوية تناوئ الفرس والإعريق ، لا تخضع لأى القوتين العظيمتين اللتين تنصارعان للاستيلاء على العالم : قوة الفرس وقوة اليونان بل ظلت حرة طليقة بلا قيود . وسى بنو قصاعة في موجة حماسهم للأباط وإعجابهم بهم أن أبناء نابت بن إسماعيل قد تخلوا عن وظيفتهم الدينية الأساسية

ليفوموا بدور سياسى ودور تجرى فى المنطقة ، وأهم قد تحولوا من الولاء الروحى لحكم القانون الإلهى إلى تمتد أسباب السيطرة على الطبيعة ، فحمدت فيهم الاستارة الروحية التى كانت كهيئة بأن تسط سلطانهم على العالمين .

كانت دعوة إبراهيم دعوة عالمية ، وكانت ملة إبراهيم تدعو إلى أحوة عالمية ، وقد حرح أبناء بابت وأباء قبادر وأساط إسماعيل حكومة عالمية تخضع لقانون الله وتقيم الفردوس الأرضى المشود ، وبكسر أعلال الحصارات كملت الدعوة الدينية ، فأصاب النفوس — التى كانت مؤمنة برسالتها — تحلل روحى جعلها تطلق لدوائها العان ، موقفة بأها نعيش وفقا للطبيعة بإطلاق الحبل لشهواتها على العارب ، فأحق انقيط الذى عقدت عليه الآمال فى أن يؤدى رسالته .

وكان هو قضاة يسهرون بقوافلهم إلى الحيرة على سيف البادية غير بعد من مهر المرات ، وكانوا يقولون : يوم وليمة بالحيرة خير من دواء سة ، وهى مرل برىء صحيح من الأدواء والأسقام ، وكانوا مفتوبين هؤلاء العرب الدين أنزلهم يختصر بها ، فسرعان ما نشطوا واتحدوا وأحدوا بأسباب الحصار وقوا صموفهم ، حتى أوشكوا أن يكونوا قوة عربية أخرى يعمل حسانها إلى جانب قوة السط فى ميران القوى الدولية .

وتشتت أحلام بنى قضاة إذ كانوا يجمون باهجرة إلى العراق والاصمام إلى عرب الحيرة .. عرب العرس ، فكل انشائر تؤكد أن المستقبل لهم ، ولكن كثرة لأحلام والأمانى بعثرت جهود سى قضاة .

وراح هو مصر يتكاثرون فى سرعة ، وفى سين قليلة صاروا قبيلة قوية لها قوافل تغدو وتروح بين عواصم الدنيا وهاآمال تبعى تحقيقها ، ولما كانت أعلى

أمية لقبيلة تعيش في كنف بيت الله أن يكون لها شرف ولايته وسقاية حجاجه ، فقد ملأت هذه لأمية صدور أشراف مصر وسادتها .

كانت ملة إبراهيم لا تزال ناصعة في مكة لم يعرف أبائوها بعد عبادة الأوثان والأصنام ، وقد أثمرت الاستنارة الروحية فأكهة حبة تجت في إلياس بن مضر ، فقد كان شابا متدينا زاهدا في الدنيا ينفق عن سعة ، وقد آتاه الله الحكمة ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا .

رأى الزاريون والقصاصيون والإياديون والمضربون وكل من جاعوا من معد بن عدنان ممن كانوا يخرجون في القوافل الضاربة في الشمال وفي الجنوب والشرق والغرب ، رأوا معابد ودوماف في أرض نمود ، وأطالوا النظر إلى ود وتفرسوا في ماف . كان رجلا لالحية له يحذر على عارضيه شعر رأسه الصاعى ، وحول جفنيه وحدقتيه خطان ناعمان ، يزين جفنيه فلاة ، وعلى صدره طيات رداءه يعطف طيسانه الإلهي من كفنه اليسرى ليتصل بكتفه اليمنى . إنه إنه يرمز إلى الآلهة الشمسية ، فقد ارتد القوم عن دين الله وعادوا إلى عادة الكواكب والشمس والقمر . إلى ما كانوا يعبدون قبل أن يدعوهم إلى الإسلام خليل الرحمن .

وسحر به معد بن عدنان من دين نمود ، وما دار بخندهم أنه سيأتي يوم يوضع فيه ودوماف في جوف الكعبة !

ورأوا معابد الإله « دى الشرى » في أرض البيط وكان إليهم الأكبر أقاموا له معبدا فخما في ابتراء تحتوه في الجبال ، وراح الناس يحججون إليه ويتقربون إليه بشرب الخمر ، ولا غرو فقد كان حمدة نابت بن إسماعيل يعيشون في مأساة الانحلال الروحي إد رأوا الخوس في فارس يتقربون إلى آلهتهم شرب الهوما دم الإله ، فرحوا يحاكيهم في التقرب إلى رب البيت بشرب

الخمير .

ورأوا معابد اللات أو الشمس أم الآهة جميعا ، ومعابد العرى وماة ، وما دار لمخلدهم أنه سيأتي يوم توضع فيه اللات والعرى وماة في جوف الكعنة . كانت الآهة في تلك الأيام تنقل من شعب إلى شعب كما تنقل السلع ، فانتقلت عبادة إيزيس من أرض مصر إلى أرض النبط وصارت العريرة ثم العزى ، وانتقلت إليها عبادة أوزيريس وصار « ذا الشرى » . كما انتقل إلى أرض اليونان وصار أدونيس ، وكما انتقلت إيزيس إليها وصارت إفروديت ! وكان ذو الشرى حجرا أسود غير مصقول يطلع ارتفاعه أربع أقدام وعرضه قدمين ، يستند إلى قاعدة مكسوة بالذهب عليها تصاوير جميلة تمثل تقديم القرابين إليه .

ورأى بنو معد في مصر المسلات رمزا لأنه الشمس ، ورأوا غنائيل راع لأنه الشمس ، وآمون لأنه الشمس تارة وإله الهواء تارة أخرى ، وصور قرص الشمس المنحني ، وسمعوا أن نجم الكلب إن هو إلا روح إيزيس وأن اللحم الشعري إن هو إلا روح أوزيريس ، فكان بنو معد ألبيا ذهبوا يجدون أن عبادة الكواكب وسحوم قد عادت كما كانت قبل بعثة جدهم الخليل ، فكانوا يسخرون من عبادة ود ويعمل في الشام سخرتهم من عبادة « شبع القوم » الذي لا يشرب خمر ، في الحيرة ، إلا أنهم كانوا يلقون السمع إلى أساطير الشعوب .

ولم يستعز الزاريون ولا القضاعيون ولا الإياديون ولا المصريون ولا غيرهم من بني معد بعبادة آهة ثمود ولا السط ولا الشام ولا الحيرة ولا بابل ولا فارس ولا مصر ، فقد كانوا على دين إبراهيم يؤمنون بالله واليوم الآخر ، ولكن إلقاء سمعهم إلى الكهنة والأساطير جعلهم يعدون الله على حرف .

وبدأت الأنابيل تتسلل إلى سنة الآء .

وقام إلياس بن مضر في مكة كما قام أفلاطون في أثينا يصيح اساس ، ولكن إلياس لم يكن في حيرة من أمره ، لم يسأل ما العدالة وما الشرف وما العصيلة وما الأدب وما الوطنية ؟ ولم يتحدث عن العالم الآخر حديثا يطابق ما تصوره خياله ، فلم يقل بأن الأرواح تنتهي إلى موضع سرى فيه فجوتان في الأرض تقابلهما طاقتان في السماء ، وأن القضاة يجلسون بين المجوتين للحكم ، وأن الأبرار بعد صدور الحكم لهم يسرون إلى النعيم في طريق السماء ، وأن المحار يطلقون في الطريق المنحدر إلى اليسار ويبسات شرورهم من حلفهم ، ولم يقل كما قال أفلاطون بأن السيئة بعشر أمثالها وأن الحسنة كذلك ، ولم يتصور مدينة فاضلة تسودها نظم خيالية ليس لها مكان إلا في أحيلة الفلاسفة ، بل كان إلياس يتحدث قومه عن شريعة الله وعن العدل الإلهي وعن قنود الأحلاق السماوى ، وعن أن الحسنة بعشر أمثالها ومن جاء بالسيئة فلا يحرى إلا مثلها وهم لا يضمنون .

وراح إلياس يتحدث قومه بأن الله جامع الناس ليوم لا ريب فيه ، يوم تحدد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، وكان يصف لهم فردوسا أرضيا قام في الأرض أيام آباءه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، فردوسا مارس الناس فيه كل ألوان العدل والشرف والفضيلة وداقوا فيه حلاوة الرضا والاستمرار ، ولم يتحدثهم عن فردوس أرضى لم يجد له مكانا إلا في الخيال !

راح إلياس بن مضر يقاوم البدع في مكة وينكر على بنى إسماعيل ما غيروا من سنن الآباء ، وما كان إلياس فظا ولا غليظ القلب بل لان لهم جانبهم ، وكان يدعوهم بالنبي هي أحسن فالتفتوا حوله بلقون إليه سمعهم وقد اتخذوه (المدنابون)

قدوة وعظموه تعظيم أهل الحكمة ، فصلا من الله ونعمة والله عليم حكيم
وجلس إليس في الدار يسبح الله ويقدر له ، وقد شمت روحه وهامت
في المنكوت لتتصل بروح الوجود وتتلقى فيض النور الذي يشرق في جسات
الأبرار ، وعلى حين فحاة مست أدنيه ضحكات بريئة أخرجته من وجده
وهيامه ، فالتفت فرأى أبيه عامر وعمرو يدحلا وهما يتضحكان فقال
لهما :

— ما الذي أضحككما ، أضحكك الله سنكما ؟

فقال عمرو ، وكان لا يزال صبييا وإن كان أكبر من أخيه :

— كنا في إبل برعاهما فاقتنصنا صيدا فقعدنا عليه نطبعه ، وعدت عادية
على الإبل فقتل لعمرى : أتدرك الإبل أم تطبخ هذا الصيد ؟ فقال عمرو : بن
أطبخ . فلحققت بالإبل وجئت بها .

فقال إلياس لعامر وهو يرمقه في حب :

— أنت مدركة .

وقال لعامر وهو يضمه إلى صدره :

— وأنت طابخة .

وسمعت أمهم ليلى بنت عمران بن إخطاف بن قضاة مباحة روحها
لولديه ، فجاءت مسرعة تخندف فقال لها :

— تخندفين ؟

فعرف عامر بمدركة وعرف عمرو بطابخة وعرف الأب الثالث بقمعة
وعرفت أمهم بخندف .

وجاء أوان الخبز فاشترى إلياس بعض الإبل ووهبها لبحر في الخبز ، وأراد
أن يشعر الناس أنها هدى فشق أحد جسي سمم البدن ليسيل منه الدم ليكون

ذلك علامة على أنها هدى للبيت ، فكان إلياس أول من أهدى البدن إلى البيت وأول من سن الإشعار .

وبان فصل إلياس ورضوا به رصا لم يرضوا مثله لأحد من ولد إسماعيل ، فطمع بنو مضر في أن تكون ولاية البيت فيهم ولكن إلياس كان راغدا أعرض عن الدنيا وزينتها وطمع فيما عند الله ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا .

ومات إلياس فتولت خندف وعباها تفصيلا بالدمع حزنا على روحها الكريم ، فلم تطلق الصر في الدار التي شهدت أسعد أيام حياتها مع إلياس الحكيم ، فتركت بيها الصغار وهامت على وجهها تسبح في الأرض تبكيه ، تركت فلذات كبدها شغلا يحزنها على أبيهم وكانوا صغارا رحمهم الناس فقالوا :

— هؤلاء أولاد خندف التي تركتهم وهم صغار أيتام.

وسب أولادها إليها : إي المرأة التي هامت على وجهها حزنا على روحها حتى لحقت به في دار اليقين . مات إلياس وماتت خندف من بعده ولم يمت أمل بني مضر في ولاية لبيت ، فإن كان إلياس قد رهد فيها فقد يستطيع مدركة أو طابخة أو قمعة أبناء خندف أن يصحح واليا على أول بيت وضع للناس ، وفي ذلك شرف لمضر وسلطان مبين .

كان فيليب المقدوني معجبا بأفلاطون ، وكان يرى أن أفلاطون هو الفلسفة والفلسفة هي أفلاطون . وكان إعجابه بذلك المعدم العظيم أنه يعنى بالصفات الحقيقية الخالدة ، فلما أراد أن يتخذ معلما لابنه الإسكندر ، اتخذ أرسطوطاليس تلميذاً أفلاطون العظيم لينهض بثقيف من سيتولى عرش مقدونيا يوماً .

وراح الإسكندر يصغى إلى أستاذه أرسطو ويتشرب آراءه في الحكمة والفلسفة وما وراء الطبيعة ، وياطلما مشى إلى جواره وهو يحدثه عن الدورة المشنومة في الحكم : ملكية فأرستقراطية فحركة رجعية فديمقراطية ففوضى ثورية فديكتاتورية ، فقد كان أرسطو يتحدث وهو يمشى ويمشى حوله مريدوه ، لذلك أطلق عليهم المشاؤون .

وحدث أرسطو تلميذه عن جمهورية أفلاطون ، فراح يعلمه فوائد الثروة ويلقنه العدالة وما تقدم العدالة ، وحقيقة الصديق ، وأنه لا خير في مضرة الآخرين ، وأن الصالحين يافعون دائماً ، وأن الشرائع مرآة من يسها ، وأن الحكام غير معصومين ، وأن خطأ الفنان ليس خطأ الفن ، وأن الطبيب هو شافي المريض لا جامع المال ، وأن الحاكم راع ورعيته الشعب

وألقي الإسكندر سمعه إلى أستاذه وهو يشرح له أركان المدينة العاضلة . فتعلم أن العدالة تطلب لذاتها ، وأن الأبرر في نعيم في العالم الآخر وأن الفجار يعوصون في أحوال المستنقعات وقد كتب عليهم أن يقلوا الماء في الغريال إمعاناً

في تعديهم .

وسمع الإسكندر حديثا طويلا عن الله ولقن أن الله صالح . وأنه يسعى وصفه بالصلاح والحق ، وأن لا شيء ضارا يخرج من الصالح ، وأن من ليس بضار لا يصنع ضررا ، وأن من لا يضر لا يصنع شرا وهو علة الخير وهو يرى من ابتداء الشر ، وأن علينا أن نفتش عن علة الشرور في غير الله ، وأن الله هو أصل خير البشرية وسعادتها .

وتعلم دستور المدينة الفاضلة القائم على الشجاعة والقضاء على مخاوف الموت وعلى بشاعة تصوير الحياة في الآخرة ، وأن رأس العظمة حرية النفس ، وأن احترام النفس ركن الرجولة . وأن لا خير في الكذابين فإن جار الكذب لأحد فللحكام في مخادعة الأعداء أو إقناع الشعب بما فيه خير الدولة ، ولا يباح لأحد سواهم أن يشترك معهم في هذا الامتياز .

ووعى الإسكندر أن من أقطع أعمال الرعاة وأدعائها إلى الجزى في الرعية ، أن كلاهم التي ربوها لحراسة القطيع تهجم على العجم إما بسبب جوعها أو نهمها فتمزقها بأنيابها فتصبح دثابا لا كلابا حارسة ، وأنه يسعى أن يهذب الرعاة تهديبا صحيحا إذا أريد أن يستخرج أفضل ما في كور أهدتهم من لطف وحنان ومحبة لرفاههم الذين وصعوا تحت أيديهم .

وكان صوت أرسطو يرن في أعماق ضمير الإسكندر بقول أفلاطون : يبيت الحكام المستبدون من معالة الناس في التحلل من القيود تحلا يسميه لاس حرية ، وأن هذه الحرية تهوى آخر الأمر بالأمة إلى درك الاستعداد . إن كل شيء يزيد على حده يقلب إلى ضده ، وذلك لأن العامة التي ليس لها حاكم يسيطر عليها تختار من بينها في العادة زعيما يقودها ، وهو إنسان جرى لا ضمير له يسعى ليليل رضا الناس بما يعطيهم من أموال غيرهم ، ولما كان هذا

الرجل بخشي أشد الخشية أن يظل فردا كغيره من الأفراد ، فهمم يخلعون عليه حماية المنصب العام ويجددون له هذه الحماية على الدوام .

ومات هيبس المقدوني واستوى الإسكندر من بعده على عرش أثينا ، وأصبحت السلطة في يد أول مواطن في جمهورية أفلاطون يستطيع بموذه أن يشر آراء معلمه وأستاذ معلمه . وكان الإسكندر خير من يهض بهذه الرسالة فقد كان شابا يتقد حماسة ، وقد آمن بكل الأفكار التي نفحها أرسطو في روحه .

وسع أرسطو آفاق آمال تلميذه ، ملأ رأسه بأفكار كبيرة وأهداف اجتماعية عظيمة ، وشحبه بفضحة روحية جعلته يمتشق الحسام عندما صار إليه الأمر ليخضع العالم لسلطانه ويجعل منه دولة واحدة تدب بثقافة واحدة ، يسرى في أرجائها العدل والحرية والأحلاق العاضدة ، إنه حلم عظيم لرجل عظيم .

كان الإسكندر قائدا ممتازا فراح يعزو اممالك من حوله ، وسرعان ما ركعت الدول تحت قدميه مما أطمعه في عزو فارس الإمبراطورية التي شاحت ونخر فيها الفساد واليهود ومؤامرات ساء القصر العاتات .

كانت فارس تسيطر على أحد طرق الطريق التجاري العظيم الذي يربط عرب آسية بالبحر الأبيض المتوسط ، وكانت بلاد اليونان تسيطر على طرفه الثاني ، فكانت الحرب بين الدولتين واقعة لا ريب فيها لتمتولى إحداهما على الطريق كله . وكانت اليونان تترقب أن يقوم سيد منهم يضم شتاتهم ويؤلف بين قلوبهم ويخوصهم عمار المعركة المستظرة ، فلما وجد الإسكندر مدد اليونان في دولة واحدة وكون جيشا منظما أحسن تدريبه وروده برماح طويلة ، خرج بفيالقه المتراسة ليسدد طعنة قاتلة إلى قلب فارس سيدة العالم ،

ليخلو له وجه الدنيا .

واجتاز الإسكندر مضيق الدرديل دون أن يلقي مقاومة ومعه قوة من رجاله خالها الآسيويون ضئيلة ، إذ كانت مؤلفة من ثلاثين ألفا من المشاة وخمسة آلاف من الفرسان ، وكان كل من في آسية مقتنعا بأن اليونان لقلتهم لن يجرؤوا على الاشتباك في حرب مع المرس بكثرتهم .

وجاء جيش فارس قوامه أربعون ألف مقاتل ليصد جيش الإسكندر عند سهر عرانيقوس ، فحسر المرس في هذه الواقعة عشرين ألف مقاتل ولم يحسر الجيش اليوناني إلا مائة وخمسة عشر رجلا ، فقد كان الجيش الفارسي مسلحا بالسهام فكان هدفا صالحا لرماح المقدونيين الطويلة ، وراد الأمر سوءا أن فود المرس جاءوا معهم بسراريهم ولم يكن منهم من هو راعب في القتال . واتجه الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض المدن ويستسلم له بعضها ، وآخر ، ومر عام تمكن فيه دارا الثالث من جمع حليط من ستمائة ألف رجل بين حدى ومغامر ، وعبروا نهر الفرات على جسر من القوارب طيلة خمسة أيام ، وحملت أموال الملك على ستمائة بغل وثلاثمائة جمل ، وعند أسوس التقى الجيشان .

كان الإسكندر يؤمن بفكرة ويحارب لتحقيق هدف ، بينما كان دارا الثالث شاهنشاه إيران قد غرق في السدة حتى الآذان وهذا الترف بقاءه وروع نواده ، ونزع من قلوب جنوده ذلك الإيمان الذى عرسه ررادشت في أفعدة فلاحي فارس فحملهم إلى أطراف الأرض وجعلهم أعظم إمبراطورية عرفها التاريخ في ذلك الزمان .

كان لإيمان بفكرة فلسفية يقاتل جودا قلوبهم هواء ، غايتهم كأس خمر وجسد ترب وتفاهات الحياة . لم يكن مع الإسكندر إلا ثلاثون ألفا من رجاله

وكان مع دارا الثالث جنود لا قبل بالإسكندر بها ، ولكنه كان عيبا غيا لا يجد فاحترار ميدانا لقتال لا يتسع إلا لجزء صغير من جيشه ليقاتل اليونان ، على حين يبقى سائرهم معطلا .

ووقعت المجزرة بين يونان وفارس ، وم يحسر فيها الإسكندر إلا أربع مائة وخمسين رجلا ، بينما حسر دارا ألفا ومائة رجل قتل معظمهم وهم يولون الأدبار مفروعين مرعوبين .

وراح الإسكندر يضارد الخيوش المهزومة وعبر في مطاردته بحرى مائتا على حسر من حشث الفرس ، وفر دارا من الميدان هرا الأندال تاركا فيه أمه وروحة من أرواجه وابتين له وعربة وحيمة مترفة ، ووقعت السيدات في الأسر وبكر الإسكندر أكرمهن وأظهر شهامة فائقة في معاملتهن .

وخرج سكن بابل بلر حيت به وقدموا له مديهم وما فيها من ذهب ، فتقبل منهم ما عرضه في طف وبشاشة ، وسرهم بأن أمر بإصلاح هياكلهم المقدسة التي هدمها ملوك الفرس

وأرسل إليه دارا يعرض عليه الصبح ، وكان مما عرضه أن يقدم للإسكندر عشرة آلاف وربة من الذهب إذ رد إليه أمه وروجه واستيه ، وأن يزوجه استه ، وأن يعترف له بالسيادة على جميع بلاد آسية الواقعة عرب العرات ، وأنه لا يطلب لقاء ذلك إلا أن يأمر الإسكندر بوقف القتال وأن يتحده صديقا له . واجتمع الإسكندر بقواده وعرض عليهم شروط الصلح ، فقال بارمانيو القائد الثاني لجيوش اليونان :

— لو كنت الإسكندر لقتت هذه العروص الطيبة مسرورا ، فأخو بشرقي من شر هزيمة قد تكون ساحقة .

— لو كنت بارمانيو لقبلت هذه الشروط ، أما وأنا الإسكندر فإنني

أرفضها .

ورد الإسكندر على دارا . « إن عروصك لا معنى لها ، فإنى أملك بالفعل ما تعرضه على من بلاد آسية ، وى وسعى أن أتروح ابتك متى أشاء » .
وعزم دارا أن لا أمل فى عقد صلح مع ذلك الشاب الذى يطمع فى أن يسطر سلطانه على الدنيا ، فراح يجمع وهو كاره جيشا آخر أكبر من جيشه الأول ليقف به فى وجه ذلك المارد الذى يحلم بأن يضم العالم فى دولة واحدة ، ثقافتها واحدة ويحكمها رجل واحد .

ورأى الإسكندر أن يعزو سورية ومصر حتى يقطع عن فارس كل إمدادات محتمة ، فانطلق إلى سورية فقبول بالترحيب وفتحت له المدن أبوابها وهتفت للمقد والقائد المظفر . حتى إذا ما بلغ مدينة صور حصن العرب المنيح إذا بانقلاص شحنت بالحدود وأظنت العداوة من العيون
وبعث الإسكندر إندار إلى حاكم المدينة ، وأبت صور أن تسلم أو أن تسمح لأية حامية يونانية بالمرور فيها ، فأمر الإسكندر بالهجوم على المدينة وهو يخضع غضبه .

ولم تكن هذه أول مرة ترفض فيها صور التسليم فقد أبت أيام شلمنصر أن تفتح أبوابها للملك الأشورى وأبت أن تستسلم لبعثنصر ، رايها لتقف فى شجاعة نادرة أمام جيوش الإسكندر التى خرت جيوش فارس ساحدة عند أقدامها .

وصيق الإسكندر على المدينة الحصار فاضطر الأحرار من أهلها أن يفروا منها ليلاحقوا بأحواسهم فى قرطاجنة . تلك المدينة التى أسسها فى إفريقية أحرار فروا من صور من قبل ، أيام حصار شلمنصر وحصار بعثنصر ، فقد رفض أحرار العرب فى كل مكان الخضوع لحابرة الأرض ، أنفة من أن يكونوا

أرقاء .

وكان هؤلاء العرب الأحرار حملة ثقافة وعلم ، فقد شرروا الحروف المحاذية الفيسقية وهم يحشون تنحارهم بين آسية وإفريقية ، وقد أثرت ثقافتهم في الحصار اليونانية قبل أن يأتى ذلك المنك المقدونى ليدل بلادهم . وسقطت صور بعد أن قاومت مقاومة الأبطال وبعد أن حر منها أحرارها إلى قرطاجنة ، ولقد كانت قرطاجنة تردهر وتعظم كلما أخذت صور وصيدا في الصمور والاضمحلال .

وغزا الإسكندر مصر وسى الإسكندرية ، ثم انطلق إلى واحة سيوة إلى وحى إله آمون الذى دأع صيته في بلاد الإغريق بعد هلاك جيش قمسرى الصحراء ، وقد رصى آمون عن الإسكندر وأرصاده حين جعله ابنا له وألسه تاجه .

وعاد الإسكندر إلى بابل ، وبعد مسيرة عشرين يوما منها وصل جيشه إلى السوس واستولى عليها دون أن يلقي مقاومة ، ثم تقدم إلى برسوليس بسرعة لم تمكن دارا من حمل ما فيها من أموال ، فأخذ ثمانية آلاف وربة من الذهب وأطلق ساقيه للريح ، وسرعان ما دخل الإسكندر القصر واستوى على مائة وثمانين ألف وربة ، كانت ما بقى من خراج الهند وبابل وآشور وسورية وفلسطين ومصر وأرمينيا وبلاد الأناضول .

كان دارا قد جمع من الولايات الفارسية وخاصة من ولاياته الشرقية جيشا جديد عدته ألف ألف مقاتل، يتألف من فرس وميديين وباسيين وسوريين وأرمين وساكى وهنود ، ولم يسلمهم بالنقى والسهام بل جهرهم بالخراب والرماح والدروع ، وأركهم الخيل والفيلة والعربات ذات الدواليب لئلى ركبت فيها الماحل لكى يحصد بها أعداءه حصد الحطة في الحقول

حشدت آسية المعجور هذه القوة الهائلة لتحاول بها مرة أخرى أن تدفع عن نفسها أوروبا الناهضة الفتية ، ووقف الشرق أمام الغرب وجها لوجه ، التقى الإسكندر ومعه سبعة آلاف من الفرسان وأربعون ألفا من المشاة بذلك الخليط المختل النظام ، وعند كواكميلا صار الفرس حصيد سنوف الإسكندر وجوده ، وتبدد شمل الجيش الفارسي في يوم واحد ، واختار دارا مرة أخرى أن يفر من الميدان فنادى الإسكندر أن يؤسر دارا أسرا ولا يقتل ، بيد أن رحلين من حرس دارا طعناه من حنقه وقد أرادا بطعنها إياه الخطوة عند الإسكندر .

وبلغ الإسكندر ما أصاب دارا فصار حتى وقف عنده ، فراه يجود بأعاسه ، فرل عن دابته حتى جلس عند رأسه وقال :

— لم أهم قط بقتلك وإن الذى أصابك لم يكن عن رأى
ونظر إلى الشاهنشاه المسحى على الأرض فأحس رافة تسرى في كياه
فقال :

— سلى ما بد لك فأسعفك فيه .

فقال له دارا وهو يلفظ النفس الأخير :

— لى إليك حاجتان . إحداهما أن تنتقم لى من الرجلين اللذين فتكاني ،
والأخرى أن تتزوج ابنتى روشك وأن ترعى لها حقها وتعظم قدرها .
وأتاه الرجلان البدان وثبا على دارا يطلبان الخراء فالتفت إلى من عنده
وقال :

— اصربوا رقبتهما واصبوهما .

ولاحت الدهشة في وجه الرجلين واستولى عليهما رعب شديد ، فقال
هما الإسكندر :

— هذا جزاء من غش أهل بلده .

وأرسل الإسكندر حثة دارا مكومة إلى برسوليس في موكب حافل وأمر أن يدفن كما يدفن أجسام الملوك الأحميين ، وكان دارا الثالث آخر ملوك هذه الأسرة .

وتزوج الإسكندر روشنك ابنة دارا ، وشجع قواده أن يحذوا حذوه ليزيل الفوارق بين الشعوب ويجعل من ملكه الكبير أمة واحدة مؤمنة بثقافة واحدة ، ولا غرو فقد كانت فكرة إقامة جمهورية أفلاطون في الأرض تستولى على كل تفكيره .

واضوى الشعب الفارسي تحت راية الإسكندر إعجابا به بكرم أخلاقه ونضرة شبابه ، وبظم شغون فارس وجعن من الفرس شركاء له في الحكم ، ثم ترك في فارس حامية قوية لحراستها وواصل زحفه إلى الهند .

وامتد ملك الإسكندر شرق وغربا فعزم على أن يتحد بابل عاصمة إمبراطوريته ، فراح يصلح ما درس منها ليعيد إليها مجدها ، واستقر بقصرها فخفت شعوب الأرض إلى بابل بالهدايا تخطب ودرجل العصر وإمبراطور الدنيا غير مازع ، وتقدم له الولاء والخضوع . ولكن العرب في شمل الجزيرة العربية وفي جنوبها أنفوا من ذلك فلم يبعثوا إليه بالهدايا ولم يرسلوا إليه الرسل ، بل لاذوا بالصمت العميق .

واستشاط الإسكندر غضبا وورمت أنفه فراح يتوعد كل سكان جزيرة العرب بالويل والثبور ، وأقسم أن يبطأ بلادهم بحيله ورجله وأن يسوق من يسجون من حصيد سيفه أذلة صاغرين .

وقبل أن ينفذ وعيده ويغزو جزيرة العرب مات في بابل ولما يتجاوز الثالثة والثلاثين ، فحزنت عليه أم دارا الثالث حزنا جعلها تقضى على حياتها

بامتناعها عن الطعام حين علمت بموت الرجل الكريم الذى أظهر شهامة مادرة يوم أن وقعوا أسرى فى يده .

وبموت الإسكندر ماتت أحلامه وتحطمت آماله ، فقد كان يؤمن بفكرة فلسفية وما كان كل قواده يؤمنون بها ، فلو كان الإسكندر يحمل دعوة دينية لها مؤمنون بنقام خلعاء الإسكندر بنشر ذلك الدين ، أما وأن الإسكندر كان يحمل آراء معلمه وآراء أفلاطون المعلم العظيم ويعمل على نشر آراء أستاذه ويعمل على إقامة جمهورية أفلاطون فى الأرض ، تلك الإمبراطورية التى تقوم على أحلام ميلسوف ، فسرعان ما ذابت إمبراطورية الشاب الكبير وقسمت بين قواده ، وكان مهم من لا يفهم أفلاطون ولا فلسفته ، بل كان فيهم من يرتب فى الفلسفة ويرى أنها وسيلة شيطانية للقضاء على الأخلاق وكل التراث القديم .

وماتت جمهورية أفلاطون ، تلك الجمهورية التى لم يكن لها مقام فى مكان ما ولم تمش إلا فى حيال العلاسعة ، نفطت أنفاسها يوم أن لفظ الإسكندر الأكبر فى بابل النفس الأخير ، بل لفظت أنفاسها قبل أن يدوق الإسكندر الموت أيام أن بسط سلطانه على الأرض ولم يستطع أن يحقق حلم أفلاطون الجميل .

وصار الإسكندر فى الغابرين وبقيت جزيرة العرب لم يلحقها معرة غزو الإسكندر ، ليعث منها النور يوما ويشرق على العالمين . ومن لم يجعل الله له بورا فما له من نور .

ماتت أحلام الإسكندر بموته ، فما كان قواده الذين قسم إمبراطوريته
 بينهم يتمتعون بفضائل العنصر الحاكم . تلك الفضائل التي اتصف بها
 الإسكندر . ولم يكونوا مؤمنين بالفكرة الفلسفية الجميلة التي اعتنقها
 الإسكندر ، فما كان يخطر على بال أحدهم إمكان تحقيق حلم أفلاطون ،
 معاداة جمهورية أفلاطون كما كانت مجرد فكرة فلسفية جميلة لم يقدر لها أن تجد
 لها مكانا في الأرض ، بعد أن هلك في بابل أول مواطن آمن بالمدينة الفاضلة
 له نفوذ وسطان ، واتسعت رقعة ملكه حتى كادت تغطي وجه الدنيا .

وتشتت الجيش المقدوني بعد موت قائده وانقسمت وحدته ، فراحت
 بعض فيالقه تعمل تحت إمرة حليمة الإسكندر في بابل ، وراحت فيالق أخرى
 تأتمر بأمر خليفته في سورية ، وسيطر خليفته في مصر على جنود الإغريق
 الذين كانوا فيها ، ولما كانت اليونان قد أصيبت بداء الحرب الطبقية فقد فضل
 كثير من جنود الإسكندر أن يكونوا جنودا مرتزقة على أن يعودوا إلى بلادهم
 التي يتطاحن فيها زعماء البروليتاريا والرحميين ، وقد أعراهم على ذلك أن
 رواتب الجيود المرتزقة كانت تدفع بسبائك الذهب والمصصة .

وراد حجم النقود المتداولة زيادة مفاجئة في لبلاد التي انتشر فيها مرتزقة
 اليونان ، فأدى تصخم الأموال المتداولة إلى ارتفاع الأسعار ارتفاعا هائلا ،
 فشاع الدمار بين الفلاحين والصناع الذين كانوا مستقرين قبل أن يقوم
 الإسكندر بمغامرته العسكرية ، فانتشر السخط في البلاد التي قاست ويلات

التصخم ، وقد كان ذلك السحط هو السلاح الذى سحر به ممالك خلعاء الإسكندر التى تبدو فنية .

كان الإسكندر قد توعد سكان جزيرة العرب بالغزو وقد مات قبل أن ينفذ وعده ، ترى أيقوم خلفاؤه بتأديب هؤلاء العرب الذين أبوا أن يحملوا الهدايا إلى القائد المظفر وأن يحروا ساحدين تحت أقدامه .

مات الإسكندر فى بابل فتلاشت كل آماله وأمانيه ، ومات إلياس بن مضر فى مكة وبقيت تلك النهضة الدينية التى بثها فى المجتمع الذى تكون حول بيت الله ، إنه لم يأت بفلسفة جديدة ولا بدين جديد ، كل ما فعله أن أزال ركام الأساطير عن ضمائر المؤمنين وعسل رعو سهم من الشك والأباطيل وأعاد الروح إلى دين إبراهيم وإسماعيل . وأراح الغشاوات عن أبصار المسلمين وبصائرهم جعلهم يعمون ب نور الله ونور الوجدان ، نور على نور . ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم .

آمن العرب الذين استقروا حول الكعبة منذ أن أقام إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ، أن لهذا الكون ربا له ما فى السماوات وما فى الأرض يده الملك وهو العزيز الحكيم ، فأسلموا له وجوههم واستخفوا بكل جبار عنيد ، ولم ترتعد فرائصهم لما علموا أن الإسكندر هددهم بالعزو والسبي ، ولم تذهب نفوسهم شعاعا بل راحوا يتأهبون لقتال والدفاع عن بيت الله وكانوا على ثقة من نصر الله إن الله يدافع عن الذين آمنوا .

وجاءهم بئ هلاك الإسكندر فحمدوا الله وأثنوا عليه أن جعل لهم حرما آمنا بينما يتحطف الناس من حولهم .

نفع إلياس بن مصر الرماد عن نار الإيمان فى الصدور فأجج الحماسة الدينية فى قلوب الإياديين والبراريين والمضريين وكل من نزل إلى جوار البيت

المبارك ، وألف بين القلوب فتامت المطامع إلى حين .

كان المصريون يصممون في ولاية البيت ويتطلعون إلى انتراعه من أيدي الإياديين ، وقد قوى أملهم يوم أن ألتف الناس حول إلياس ورضوا به رضا لم يرضوه لأحد من ولد إسماعيل ، ولكن إلياس كان من الزاهدين لم يطمع في ولاية ولا ملئ . كل ما كان يرجوه أن يهديه الله وأن يهدي قومه إلى الصراط المستقيم . إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى .

ومات إلياس فالتف أشراف مضر حول ابنه مدركة وراحوا يريون له الوثوب على أبناء عمومته ، على أبناء إياد بن نزار لينتزعوا ولاية البيت منهم ، لينتقل لمضر الشرف والسيادة وعز الدنيا وزينتها .

كان مدركة زعيم قومه وكان صالحا من الأبرار بمقت البغي والعدوان ، فلم يلبس سمعه إلى قومه فولاة البيت من الإياديين يعرفون للحرم حقه ، وقد استقاموا بعد أن أثرت حكم إلياس فيهم وهدتهم سواء السبيل .

وكان يكره أن يستخدم الأسلحة الدنيوية في جلب مغن لعشيرته ، وكان يشفق على المصريين من أن يتردوا فيما تردى فيه اليهود من عبادة أنفسهم ، منذ ذلك اليوم الذي بلغ فيه عروورهم أن ادعوا أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الناس . كان يخاف على المصريين أن يعبدوا دواهم كما فعل اليهود من قبلهم ، وأن يعزلوا أنفسهم عن مجتمعهم ، فراح يحمد حركات التمرد التي كانت تحاول أن ترفع رأسها لتعارض سلطان الإياديين .

واقضت أيام مدركة في سلام وصارت رعامة مضر إلى خزيمة بن مدركة ، وكان خزيمة محبوبا في قومه ذا رأى شديد من عباد الله المتقين قد عرف عنه الصلاح ، وكان أمر البيت إلى وكيع بن سلمة بن رهير بن إياد فخاف وكيع مافسة خزيمة ، ورأى أن خير ما يفعله لدرء تلك المافسة أن

يشتهر بين قومه بالصلاح ، فسي بأسفل مكة صرحا وجعل فيه سلما وكان يرقاه ويقول إنه ياجي الله .

وشملت مكة بالدين وقوافل التجارة التي تعدو ونسروح بين الشام والعراق وفارس ومصر وكانت كلها تحت حكم حلفاء لإسكندر ، فكان رجال القوافل يعودون بالسلع والأموال وأنباء تلك البلاد السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ويروون على العاكمين بالحرم أساطير فارس وبابل والآراميين والمصريين واليونان .

كانت مكة على صلة وثيقة بالأحداث العالمية إلا أنها كانت بعيدة عن مسارح القتال بين جيوش الشرق والغرب ، لم تصل إليها جيوش بابل وآشور والفرس واليونان ، وكان كل ما وصل إليها تهديدات بختنصر ووعيد الإسكندر ولم يدر يحد أحد من الطوائف حول الكعبة أنه سيأتي يوم تحمل فيه الحزيرة راية الشرق ، وأنها ستكون محور الصراع بين الشرق والعرب وورثة العداوة التقليدية بينهما

وراح وكيع بن سلمة يعتزل الناس ويتعبد فقل الناس عنه :

— إنه صديق من الصديقين .

وراح يتكهن ويقول :

— من في الأرض عبيد لمن في السماء ، هلك جرمهم وأزيلت إباد ،

وكذلك الصلاح والفساد .

إنه يتكهن بانتهاء ولاية إباد للبيت كما انتهت أيام جرمهم ، وأنها ستزول يوم يزول الصلاح منها ويتشر الفساد . ترى أراى وكيع التراخي يسرى بين الإياديين وأن الفساد بدأ يستشري فيهم وأنهم باتوا مجتمعاً مشرقاً على الموت ، أم أنه رآهم أصبحوا أعجز من أن يقضوا على كبرياء مضر وتطلعهم إلى شرف (المدنانيون)

ولاية البيت ؟

استولى وكيع على مشاعر بنى عدنان جميعا فكان يحدث الناس أحاديث تستقر في سويداء أذهنتهم ، فأمتع الأحاديث ما يهز العواطف ويمس مكامن النفس ، كان يقول :

— يقول ربكم : ليجرين بالخير صوابا ، وبالشر عقابا .

وحضرته الوفاة فجتمع إبادا فقال :

— اسمعوا وصيتي : الكلام كلمتان ، والأمر بعد البيان ، من رشد فاتبعوه ، ومن عوى عارقصوه ، وكل شاة معلقة برجلها .

ومات وكيع فساد مكة وجوم وترقرق الدمع في العيون ، ونمى في الوادى المقدس ، ووقف أحد النعاة من إبادا على ربوس الجبال يقول :

ونحن إبادا عباد الإله

ورهبط مناجيه في سلم

ونحن ولاية حجاب العتيق

زمان النحاع على جرهم

وقامت نائحة وكيع على جبل قيس فقالت :

ألا هلك الوكيع أخو إبادا

سلام المرسلين على وكيع

مناجى الله مات فلا خلود

وكل شريف قوم في وضيع

وحزنت إبادا على وكيع حزن الثكلى على وحيدها ، ترى كيف يكون

حال الإياديين بعده ؟

كان النبط يحلمون بسلام دائم يسود المنطقة ، وأن يقوم الوفاق الاجتماعي بين الشعوب المتناحرة عوضا عن تلك الحروب المدمرة التي تعوق نمو تجارتهم وازدهار حضارتهم ، ولكن العالم انقسم على نفسه إلى معسكرات وشيع يضرب بعضه بعضا ، فالطبقات تتصارع والدول تشن الحروب بعضها على بعض وتحاول كل منها ابتلاع حضارة غريميتها وهضمها .

اعتنق الإسكندر وهم الدولة العالمية الفاصنة فراح يسطر سلطانه على العالمين ليقم لمدينة الفاضلة ، حلم أفلاطون الفيلسوف . وجاد الإسكندر بأعباسه قبل أن يحقق الوحدة العالمية السياسية المرتجاة بمرص إرادته المطلقة على بقية الدول ، وقسمت إمبراطوريته بين قواده وما كان أحد منهم يعتق مبادئ قائدهم بل كان جلهم يعجبون بفلسفة أرسطو من الظريف !

كانت فلسفته بسيطة صريحة ، فقد كان يقول : إن كل ما نفعله إما بعمله طمعا في اللذة أو خوفا من الألم حتى لو أفقرنا أنفسنا لخير أصدقائنا أو صحبنا بحياتنا من أجل قوادنا ، وعلى هذا فالناس كلهم مجمعون على أن اللذة هي الخير الذي لا خير بعده ، وأن كل ما عداها حتى العصيلة والفلسفة يجب أن يحكم عليه حسب قدرته على توفير اللذة .

وعلمنا بالأشياء مشكوك فيه ، وكل ما نعرفه معرفة أكيدة هو حواسنا ، فالحكمة إذن لا تكون في السعي وراء الحقيقة المخردة بل في اللذات الحسية ، وليست أعظم اللذات هي اللذات العقلية أو الخفية بل هي اللذات الحسية .

ولهذا فإن العاقل من سعى وراءها أكثر من سعيه وراء أى شيء آخر ، ومن الذى لا يصحى بحجر عاجل فى سبيل خير آجل غير مؤكد ؟

والخاصر وحده هو الموجود ، وأكبر الظن أنه لا يقل من حيث الخير عن المستقل إن لم يققه فى ذلك ، وفى الحياة هو التهاب الدائد وهى عابرة ، والاستمتاع بكل ما نستطيع أن نحصل عليه فى الساعة التى نحن فيها .

وليست فائدة الفلسفة فى أنها قد تبعدها عن البدة ، بل فائدتها فى أنها تهدىنا إلى أن نختار أحسن اللذات ونتفجع بها ، وليس صاحب السطبان على اللذات هو الزاهد المتقشف المتمنع عنها ، بل هو الذى يستمتع بها دون أن يكون عداها ، والذى يستطيع بفعله أن يفرق بين اللذات التى تعرضه للحظر والتى لا تعرضه له . ومن ثم كان الرجل الحكيم هو الذى يظهر الاحترام المقرون بالفضيلة للرأى العام وللشرائع ، ولكنه يعمل على قدر ما يستطيع على ألا يكون سيذا لإنسان ما أو عبدا له .

كان أرسطو يلحق تسميته لإسكندر أن الله روح العالم فهو المحرك الأول الذى لا يتحرك ، يحرك كل شيء ويظمه حسب القوانين الأربعة ، وأنه حقيقة العالم الفعلية ، فقام الإسكندر الشاب بفصل تلك الفحة الروحية يغزو العالم . أما قواده فقد اعتنقوا فلسفة البدة ، فلسفة أرسطوس الضريف ، فسرعان ما راح السوس يخمر عظام الإمبراطورية العتية .

وقد نوءد الإسكندر النبط والعرب بالعرو وبقتل الرجال وسبى النساء ، ولكن الإسكندر مات قبل أن يتحرك ويفذ وعيده ، وصارت سورية تحت حكم قائده أنطيوخوس ، ترى أنيسر أنطيوخوس محموده لتأديب هؤلاء العرب الذين بلغت بهم العطسة ألا يبعثوا بالهدايا والسفراء إلى بابل لتهنئة الإسكندر ملك الملوك الذى دات له بالولاء الأرض جميعا ؟

كان ملوك البط قد ضربوا النقود أسوة باليونان وروما ومصر والفرس . وقد يسر ذلك الاختراع القيم التجارة ، ولكن بعض التجار كانوا لا يزالون مستمسكين بالأساليب العتيقة يفضلون الماشية على العملات الفضية والنحاسية ويجدونها أعظم منها قيمة .

وتأهب الرجال في البتراء للخروج إلى أسواق المدن المحاورة فوضعوا النساء والأطفال والشيوخ والعجزة في « صخرة » حصن البتراء ، وتركوا بعض رجال الحراسة وما كانت مسورة ، وإن كانت مخارنها تفيض بخيرات ممالك دنيا من قمح وحرير وتوابل وبخور وفضة .

وانطلق الخارجون إلى معابد دى الشرى واللات ومنوتس والعزى ورب البيت يطوفون بأصنامها وأوثانها طواف العرب بالبيت العتيق ، ويتمسحون بها ويلتمسون منها البركة ، فقد كان في البط بعض ستن الآباء إبراهيم وإسماعيل وبنت . كانوا يعبدون الله إلا أنهم أشركوا معه آلهة أخرى فجعلوا اللات والعزى زوجة وأم الآلهة ورمزوا إليها بالشمس ، وجعلوا العزى ومنوتس والإلهات الأحر بنات الله يشفعن إليه .

وخرجت قوافل التجارة من البتراء في ركاب بعضهم النقود الجديدة الفضية والنحاسية ، بينما راح البعض الآخر يسوقون الماشية أمامهم فقد كانوا لا يزالون يعتقدون أن الماشية هي أفضل وسيلة للتبادل لما لها من قيمة عند جميع الناس ، ولسهولة نقلها من مكان إلى آخر .

وشغلت أذهان الرجال بالتجارة والبيع والربا ، فقد عرف الربا في أرض بابل وفي أرض مصر وفي كل سوق من أسواق الشام والعرب قبل أن يتحدث فلاسفة اليونان عن الفوائد المشروعة وغير المشروعة .

كان النبط مطمئنين لا يخشون غداً؛ فقد مات الإسكندر الذي هددهم

بالقتل والسبي وكانت علاقتهم بأنطيفونس حليفته على سورية طيبة في طاهرها ، فكان الهدوء يسود مملكتهم التي امتدت إلى حدود دمشق بعد أن استولوا على غرة وخان يونس وسيناء . وما دار بخلداهم أن أنطيفونس أوجس منهم حيفة ؛ إن هي إلا وثبة واحدة وتصبح دمشق في قبضة يدهم ، فمادا يبقى للإغريق بعدها في سورية ؟

وكان أنطيفونس يطمع في محالمتهم وكان يمسى النفس بأن يأتوا إليه يوما يقدمون له ولاههم ، ولكنهم لم يحملوا به . وكيف يحملون به وقد أفوا أن يرسلوا الهدايا إلى الإسكندر بعد أن صار إليها ؟ إهم لن يخلصوا له عن رضى من أنفسهم بل يجب أن يرغمهم على ذلك إرغاما .

كان ملك أنطيفونس قد استعمل وعظم سبطانه واستقر في أنطاكية ، وقد سمح ذلك النجاح في عروره فراح يحلم بأن يعبد في إسرائيل والسامرة وأرض البط وفي كل أرض يستطيع أن يسط عليها سبطانه من الممالك التي حوله

وراح الصاع يعملون ليل نهار ليصعوا أصناما على صورته ، ويحث بالتماثيل إلى إسرائيل لتوضع بالهيكل فأبى اليهود أن يقبلوها ، فسار أنطيفونس إليهم وأثنى عليهم بالقتل والسبي ، وفر بعضهم إلى الجبال والبراري فرجع واستحلف على بيت المقدس قائده .

قاوم اليهود وضع تماثيله في الهيكل ، أفيقبل النبط أن يضعوها في ذى الشرى واللات والعزى ورب البيت دون قتال ؟ واستدعى أنطيفونس صديقه أثينوس وروده بأربعة آلاف جندى من المشاة وستائة فارس ، وأمره أن يسير إلى البط ويذهبهم لبيل على حين غرة ليحبرهم على التحالف معه وعبادته وتأيد مصالحه في المنطقة .

وخرج أثينيوس من مقاطعة أدوم في هجمة الليل وسار في حفر شديد إلى البتراء وهاجم « الصخرة » فارتفعت أصوات تشق السكون ، وفي مثل لمح ابصر أسكتت تلك الأصوات إلى الأبد . باعت أثينيوس الأطفال والنساء والعجزة والشيوخ بهجومه المفاجئ وراح يقتل كل من يقاومه ، ويسوق ما في الصحرة من ماشية ويحمل الحبوب والتوابل والحديد وكل ما في المخازن من طيب وفضة .

وأمر أثينيوس جنوده بالانسحاب سريعا قبل أن يفضحهم النهار ، فانسحبوا وقد ملأت العبطة صدورهم وكانت الغنائم عظيمة أعظم مما كانوا يحلمون .

وانساب حملة أثينيوس في الصحراء مزهوة بنصرها ، وانقضى يومان فأتهك التعب الرجال فنزلوا ليستريحوا في معسكر أقاموه وقد سكروا بخمر النصر العظيم .

وجاء الليل وما كاد الرجال يستسلمون للدهذ الرقاد حتى أحاط النبط بالمعسكر إحاطة السور بالمعصم ، فقد فر أحد حراس « الصخرة » ليلة أن عاجأها أثينيوس وجنوده وانطلق إلى الأسواق ينبئ رجال النبط بما لحق بأهلهم ، فخرجوا يطيطون في مسالك الصحراء السرية كأنهم النسور يطلبون أنطيفونس والذين معه .

وراح النبط يعملون السيوف في النيام ، غدر بقدر ، فسالت الدماء ودب الدعر في المعسكر ، وخف رجال أنطيفونس إلى خيولهم يريدون النجاة ولكن أين المفر ؟ وسيوف النبط تحصدهم حصدا .

وتمكن أثينيوس وخمسون من رجاله أن يلوذوا بالفرار ، ليقصوا على أنطيفونس كيف روت دماء جنوده الصحراء وتركت أجسادهم لجوارح

الطير وقيط اليداء .

كان البط تجارا فكانوا أهل دهاء ، فدما قصوا على جنود أثيسوس كانوا على ثقة من أنه ما تحرك ، لا بأمر أنطيفونس ، ولكن السياسة الرشيدة أملت عليهم أن يشكوا إلى أنطيفونس ما فعله بهم صديقه كأن الأمر لم يكن بأمره ومن تدبيره .

وخرج رسل البط من التراء يحملون رسالة من ملكهم إلى أنطيفونس كتبت بالأبجدية السريانية ، أبجدية التجارة والمكاتبات بين ملوك المنطقة ، لأموا فيها غدر أثيسوس بهم واعنذوا فيها عما بدر منهم ، وقد حملوا صاحبه وزر صنعه .

وفي قصر الملك في أنطاكية قابل أنطيفونس رسل البط وأكرم وعادتهم وقال :

— إن ما حدث لم يكن بعلمي ورضاي ، عمل أثيسوس برأيه فحالف أمرى وإلى أحمله وزر ما فعل ، وأرجو أن نسي ما حدث وأن تسود يسا العلاقات الطيبة .

ولم يكن أنطيفونس صادقا في التعبير عن حقيقة مشاعره فقد كان بمقت أن تناخم حدود مملكته دولة قوية لها مطامع وأحلام ، وكان يريد أن يحذرهم إلى حين حتى يرى أمره .

وحان الحين الذي رأى أنطيفونس أنه أنسب وقت لتسديد طعنة بحلاء إلى قلب البط ، فاستدعى ابنه ديمتريوس وأمدّه بقوة فوامها أربعة آلاف مسلح من المشاة وأربعة آلاف من الفرسان ، وأمره أن يطلق ليجهز عن البط ويرميحه من هؤلاء العرب الذين يزاحمون الفوذ الإغريق في المنطقة .

وسمع البط بخروج حملة ديمتريوس فوضعوا أموالهم في حصون يصعب

الوصول إليها ووضعوا عليها حراسة كافية . وسلكوا دروباً تفضى بهم إلى الصحراء إلى حيث آبارهم السرية حيث يشربون ولا يشرب من يقتفى أثرهم .

وبلع ديمتريوس « الصحرة » فصدم بأن البيط خرجوا وحملوا معهم كل عال ونميس وأعلقوا الحصون على ما لم يحملوه معهم ، فاشتد حنقه وشن هجوما قاسيا على « الصحرة » ليتفص عن العصب الذى بوغر صدره ، ولكن هجماته تكسرت تكسر الموج على الشاطئ قبل أن تجد لها منفذا في صفوف العرب البواسل الذين كانوا يدافعون عن مدينتهم دفاع الليوث الكواسر .

وعصب ديمتريوس غصب الخيل على اللجم ، مراح يصرخ في جوده ويأمرهم بتشديد المحوم ، ولكن جود الإغريق عجزوا عن فتح ثغرة في صفوف الذين يقاتلون صفا كأنهم بنيان مرصوص

وأخيرا رأى المدافعون أن يعيشوا لديمتريوس ببعض الهدايا إرضاء لمروره حتى يرجع عن ذلك الإصرار العيد في قتاله ففعلوا ، ونقبل ديمتريوس الهدايا ورفع الحصار عن « الصحرة » وهو يكاد يمجى من العيظ ، بعد أن امتعت عليه المدينة وعاد إلى أبيه أنطيوخوس يجر أذيال الخيبة .

نشبت العدوة بين حلفاء الإسكندر وبين العرب ، فإن بعث أنطيفونس حليفة الإسكندر على سورية بحملة إلى « الصحرة » ليقضى على نفوذ النبط الذى كان خطراً على ملكه ، فقد ضاق البطالسة حلفاء الإسكندر على مصر بفوذ العرب التجارى فى البر والبحر .

وأخذت قبائل العدنانيين تستشر من عهامة على ساحل البحر الأحمر إلى بادية الشام وبادية العراق ، وراحت تمد ممالك بنى إسماعيل بدم فتى جديد ، فقد خرج أبناء معد من نزاريين وقصاعيين وبانديين ومصريين من مكة ليذهبوا بالبط فى البتراء وطور سبأ ودومة الجندل والحيرة ، وليتفلسحوا على الخليج الفارسى فى عمان والبحرين والأحساء .

كانت أساطيل النبط تحبب البحر الأحمر تنقل التوابل والبحور من بلاد بونت إلى مصر وإلى ميناء النبط ومنه إلى البتراء . ولقد كانت البتراء منتقى أهم الطرق البرية فى المنطقة ، إليها يصل طريق اليمن والعربية الحسوية الموازى للبحر الأحمر . ومنها يتفرع الطريق إلى مصر والشام وعرة والمدن الفينيقية على البحر المتوسط ، ويخرج منها طريق آخر إلى الخليج الفارسى ، فكانت فى يد النبط - تجارة الهند وما وراء الهند وحاصلات إيران والعربية الشرقية ، بل وتجارة الشام ومصر .

أنشأ البشر تلك الطريق لنقل خيرات شعوب إلى شعوب أخرى لرهبة الإنسانية ، ولكن تلك الطرق يسرت نقل الحيوش فاستغلها الطامعون فى

بسط سلطنتهم على جيرانهم وسلب ما من الله عليهم من حيرات . فراحت جيوش الآشوريين والبابليين والمصريين والإغريق والعرب تنطلق في تلك الدروب بحثا عن الصيد البشري ومجد الملوك وهب ما في خزائن الدول ! وكان الننيون بحارة مهرة شاركوا النبط في نشاطهم التجاري في البحر الأحمر ، فعرف ذلك البحر في تلك الحقبة ببحر العرب وخليج العرب . ولا غرو فقد كانت سفن عرب الشمال وعرب الجنوب في غلو وراح بين موافيه تنقل السلع وحضارات الشعوب المسيطرة على مصائر المنطقة . وورثت البتراء ما في صحف إبراهيم من حكمة وما في حضارة العراعين من ثقافة وعلوم البابليين وفلسفة أفلاطون وأرسطو ، فأحدثت اللغة العربية تتطور وتزدهر وترتقى لتليق بأن تصبح لغة القرآن .

وكان النبط قد جمعوا من التجارة ثروة عظيمة جعلت ملوك الإغريق في الشام ومصر وفارس من سلوقيين وبطالسة وأشكانيين يطمعون في بلادهم ، فاضطروا إلى تكوين جيش قوى لحماية القواصل التي كانت تسرى كالشرايين في ممالك الشرق الأوسط التي كانت تحت حكم خلفاء الإسكندر .

وبدأت سفن البطالسة تزاحم سفن النبط في بحر العرب لما قرر بطليموس الثاني أن تحمل تجارة مصر على سفن مصرية ، وكان جل من يعمل بها من اليونانيين الذين جاءوا إلى مصر في أثر الغزو الإفريقي ، واشتدت المنافسة بين أساطيل البطالسة وأساطيل العرب من نبط وعين . وأدت المنافسة إلى الاحتكاك بين الطرفين ، ومن ثم إلى هجوم من العرب على سفن البطالسة التي جاءت تنتزع منهم مناطق بموذهم .

واضطرب بطليموس الثاني إلى إنشاء قوة بحرية لحماية سفنه التجارية ، وقد شبت معارك بين تلك القوة وقوات العرب البحرية للسيطرة على تجارة

المناطق الحارة والتوابل والبحور . وقد شارك العدنانيون من نزاريين وقضاعيين وإياديين ومصريين لإخوانهم النبط في تلك المعارك ، وكانت قلوبهم وعواطفهم معهم فقد كانوا على يقين من أن الكساد سيسود جزيرة العرب شمالها وجنوبها وشرقها وغربها لو نجح البطالسة في السيطرة على تجارة بحر العرب .

ودارت معارك قاسية بين سفن العرب والسفن الإغريقية . وظهرت القوة البحرية الإغريقية التي كانت تحرس سمن مصر التجارية وأثرت بسفن العرب حسانر فادحة ، فانكمش العرب يرصدون الأحداث ويرقبون فرصهم .

وانشغل بطليموس الثاني بمحاربة سلوقي سورية ، فقد كان يطمع في أن يوحد مصر وسورية تحت رايته ، فانتز العرب هذه الساحة ووثب بحارتهم على سفن البطالسة مرة أخرى وبكهم عجزوا عن أن يقصوا عليها ، فقد حجج البطالسة في تطوير سفنهم وفي حمايتها بأساطيل حربية ، فصارت لهم السيادة في البحر الأحمر .

وابتنى بطليموس فيلادلفوس مدينة برنيس على خليج العقبة لحماية التجارة والسفن ، وراح البطالسة يضعون الحاميات اليونانية في جزيرة العرب على طول ساحل البحر الأحمر ، ليسيّطرو اليونان على البحر والطريق إلى الشرق وأصبحت التجارة العربية بصرية قاصدة بعد أن باعس البطالسة العرب في تجارة مصر والشام وإفريقية والهند ، وشاركوا تجارة الخزيرة العربية في الأرباح الطائلة التي كانت تحمل إلى التراء ويثرب ومكة ومأرب ومدن القوافل في العربية السعيدة وفي اليمن .

كان تجار العرب وحدهم في الميدان قبل أن يذوقوا مرارة منافسة البطالسة ، فكانوا يفرضون ما يشاءون من أسعار ويحصلون على ما يريدون ،

ما دام لم يكن لهم منافس في الأسواق التي كانوا يحتكرون تجارتها ، أما وقد قام البطالسة في منافستهم في تلك الأسواق فقد اهارت الأسعار وانكمشت الأرباح ، لما حدد سلوقيو الشام وبطالسة مصر أسعار السلع التي يبيعها العرب وفرضوا عليها ضرائب باهظة مصلحة حرائمهم ، وبذلك تحكموا في أسعار التجارة العالمية وحرموا تجار الجزيرة العربية وسادتها من ملوك تجار وأسر أرستقراطية ربما كان عظيمها ، وقطعوا سبيل تدفق الذهب والفضة إلى الخرائن التي كانت عامرة بالعملات اليونانية والمصرية والفارسية والهندية .

وبرل الصيق بالناس فمرعوا إلى آلهتهم يتصرعون إليها أن ترفع عنهم تلك العمة ، فاطبق أهل البتراء إلى معبد دى الشرى يسوقون الذبائح ويتهلون إليه في حرارة ويسألونه في رخاء أن يبدل عسرهم يسرا ، وراحوا يطوفون على معابد العزى ورب البيت واللات وموتس والآهة الأخرى يدحون الذبائح ويحرقون الحور ويستعرقون في الصلوات والابتهالات لعل الأرباب ترصى . وراح الرجال والنساء في ثمود يقدمون الولاء والخضوع هبل العظيم وساف واللات ولسات الإله ويلتمسون من الشفاعة ويدحون الذبائح ويعفرون الحياه بالسجود ، فقد كانوا يطعمون فيما عبد الآهة من حيرات وفي أن يعود إليهم ما كانوا فيه من نعم .

وعصت معابد البتراء ومدائن صالح ويثرب وبحران ومأرب وصعاء بالطائف بأصنام الآهة ، وشقت الدعوات أجوار الفضاء ، وارتفع البحور يعرج إلى السماء تقربا ورلقى لعل الآهة ترضى فتتمتع عبادها متاعا حسنا ، ويعود تدفق الذهب والفضة إلى الخرائن التي أوشكت أن تنصب من الأموال .

وطاف أهل مكة بالبيت العتيق وكان جوهر الدين الخالد الذي جاء به

إبراهيم لا يزال نقيًا ، فراحوا يدعون الله دون أن يشركوا به أحداً ، ووقفوا أمام باب الكعبة يسألوه أن يرزقهم من السماء ومن الأرض وأن يكشف ما هم من ضمير وأن يهديهم سواء السبيل .

كان أهل مكة يجذون في رحاب بيت الله الأمن والملاذ من عاصفة الفراغ السياسي ، وكانوا يرون مولد الحصارات من حولهم وفناءها دون أن يخشوا أن يأتي يوم يرون فيه حسوف حصارتهم ، فقد كانوا في قرارة نفوسهم مؤمنين بأن حصارتهم حادثة ما داموا يعتقلون في خلود الروح والحياة الأخرى . قال بسك مصر وصالحوا إباد إن البسط والشموديين والجميين ناعوا بعصب من الله لأهم جعلوا الله شركاء ، إن الله برىء من المشركين .

نقل اليونانيون إلى أثينا آلهة الشعوب التي تعيش إلى جوارها لتصبح آلهة إغريقية في جبل الأوليمب . فاستوردوا من مصر أوزيريس ليصبح الإله للإغريق ديونيسيس ، وإيزيس لتصبح أفروديت ، وجلبوا من سورية الإلهة عشت لتصبح أارجانيس ، و مرجوا بين أهورا مزدا إله الفرس وآمون إله الهواء والباطل وجعلوهما زيوس ، وأحدوا عشتار البابلية إلهة الشهرة والزواج والحب وجعلوها فينوس .

واعتقد اليونانيون أن آلهتهم على هيئتهم البشرية فراحوا يسحتون تماثيل للآلهة في صور رجال ونساء ، وأقاموا بين هؤلاء الآلهة وبين القدر حروبا يشيب من هولها الوليد ، وامتزج الدين بالفن ، وسحر المر كما سحر في مصر الفرعونية فخلعة الآلهة .

وجاء عصر الفلاسفة اليونانيين فشب الصراع بين الفلسفة والدين ، وعلى الرغم من أن بلاد اليونان كانت تبدو في قمة مجدها فقد كان ذلك الصراع هو الخنجر الذي انتحرت به من قبل أن تتحرك روما لغزوها وصمها إلى ممتلكاتها .

وفي ذلك الوقت ال اشتدت فيه الحرب بين الدين والفلسفة في اليونان كانت تتكون في إيطاليا دولة رومانية متدية تعيش بالدين والمدن ؛ فقد كان الطفل الروماني يشب في عالم تحقق في جسانه الروح ، فهو يلقي منذ نعومة أظفاره أن نار الموقد التي لا تحمد ليست إلا رمز الإلهة فستا ومادتها ،

وأما هي الشعلة المقدسة التي ترمز إلى حياة الأسرة وإلى دوامها . وأن الإله يانوس يحوم حول وصيد الباب وإن كانت الأعين لا تراه ، وهو ذو وجهين يرقب الداخلين من كل باب والخارجين منه ، وأب الأب رب والأم رب من الأرباب .

وإذا ما شب الطفل الروماني تعلم أن « كوب » تحرسه وهو ينام و « إبيونا » تهديه سواء المسيل ، و « فيليبا » تعلمه الكلام ؛ وأن الأرض إلهة وأن للساتين إلهًا وللماشية إلهًا وللزراع إلهًا ، وكان الكهنة يخفون في شهر مايو من كل عام في موكب عنائي إلى المزارع يطوقون الحجارة بتيجان من الرهر ، ويرشون عليها دماء الأصاحي ، ويتهللون إلى الأرض ويدعوها أن تخرج الفاكهة الموفورة .

كان الرومانيون يعيشون في دنيا غوج بآلهة وم يعرفوا الله الواحد انقهار ، وكان الشرث بالله طبع ذلك العصر ، ففي أرض البط في بلاد أحماد إسماعيل ورثة التوحيد أشركوا بالله آلهة استوردوها من مصر وثمود وبابل وسورية ، معد ذو مشرى وللات وهمل وموتس والعمرى ورب البيت مع الله الأحد .

وفسد الدين اليهودي في أورشليم ، فقد أشرك بولس إسرائيل بالله وعدوا بعلا والعجل وآلهة الوثنيين ، وفسد دين ررادشت في فارس فقد فعل الفرس بالأوستا كتاب ررادشت المقدس ما فعله اليهود بتوراة الله ، فأصبح هناك اختلاف بين الأوستا القديمة والأوستا الحديثة ، فقد عادت آلهة الفرس الشعبية لتظهر مرة أخرى في دين التوحيد لتشوب بصاعته ، ولترتد به إلى الشرك البعيص .

وشارك ميثرا إله الفرس القديم أهورا مردا الإله الحكيم في العبادة ،

ووضعت أدعية لميثرا رب الميثاق ورب النور ، وظهرت مرة أخرى أتايتها
إلهة الماء والخصب ، وتعددت الآلهة فصار للمعسر آلهة للنصر وآلهة للدار ،
وآلهة لحماية المنوك .

وانتشر الشرك بالله في روما وأثينا ومصر وأورشليم والبراء ودمشق وبابل
وبمبوى واصطحر ، وأما في مكة فقد ظل جوهر الدين نقيا وبقيت عبادة الله
وحده منذ أن بشر إبراهيم الخليل بدرة التوحيد في المجتمع الذي تكون حول بئر
رمزم ، وبقيت الحصة المؤمنة من بني إسماعيل التي لادت بالبيت على دين الآباء
لم تشرك بالله . ومن يشرك بالله فكأنما حر من السماء فتحصبه الطير أو نهوى
به الريح في مكان سحيق .

كل ما كان في مكة من نزاع كان حول ولاية بيت الله وقد قامت المنافسة
حول هذا الشرف العظيم بين بني إيداد وبني مصر ، فإن كان إلياس بن مصر
قد رهد في رحرف الدنيا وأعرض عن إعراف المصعب وأسلم وجهه لله وأحد
بمحجز الإياديين والمضريين عن أن يمتشقو الحسام في سبيل ذلك الشرف ،
ويؤلف بين قلوب الإياديين والقصاعيين والمضريين ، وإن كان مدركة بن
إلياس قد سار في نفس السبيل الذي احتاره أبوه وأسلس القياد لوكيع ، وإن
كانت أيام حريمه قد انقضت في سلام ، فإن أسد بن حزيمة بن مدركة طمع
في ولاية البيت ، ولم يجد عصاضة في امتشاق الحسام لانتزاع ذلك الشرف
للمضريين .

كان كنانة بن حزيمة وإخوته أسد بن حزيمة وأسدة بن حزيمة وهون بن
حزيمة أشرف مصر وساداتها ، وقد كثرت مصر حتى صارت شعا تملأ
مواشيه بطاح مكة وتحب قوافله الآفاق ثم نعود إلى الحرم تحمل العسى
والأوراق .

(العدنانيون)

وكان خزيمة يخرج على رأس قوافل مضر ، وكانت الصلة بينه وبين النبط وثيقة ، مما نسي أباء عدنان يوما أنهم من النبط بل من أشرفهم وساداتهم ، وبقيت وشائج القرى متصلة بين أباء عدنان وملوك البتراء . وكانت القوافل في عدو ورواح بين مكة والبتراء تحمل البخور والتوابل ، وتخرج قوافل مكة مع قوافل النبط إلى بصرى ودمشق وتدمر وبابل وبلاد الفرس ووادي النيل ، وقد استخدم المكيون العملة التي ضرمها ملوك النبط وكانت كعملة اليونان والرومان والفراصة وملوك بابل والفرس سواء بسواء .

ومات خزيمة ونهض كنانة بن خزيمة بتجارة المضريين ، فكان يخرج على رأس القوافل ويرى معابد الشرك في البتراء وفي بصرى ودمشق وأورشليم ، فكان يحمد الله أن ظل جوهر دين إبراهيم نقيًا . فقد تألق الإسلام حول البيت المحرم بينا تداعى في أرض النبط أرض يهودا وإسرائيل ودمشق ، فقد كان الإسلام ملة إبراهيم بعيدا عن أهواء الظلم السياسية التي تنشأ استغلال العقيدة لتحقيق غايات تجافي مبادئها .

وكان بقاء جوهر دين إبراهيم نقيًا في مكة انتصارا روحيا للعقيدة السمحة ، فقد حلت الكوارث بديانات الأوثان التي سعت إلى تحقيق غايات سياسية على حساب الدين من ببط ويهود وآراميين وفرس . واستقر أسد بن خزيمة في مكة يرقب أحداثها ويعبئ المضريين للحدث الكبير ، فقد كان يرى الوهن يدب في الإياديين وقد تفشت المطام فيهم ، فراح يناوشهم ويزلزل حكمهم ويرصد الفرصة المواتية ليقضى على سلطانهم . وسرعان ما واثته فرصة ، فقد خرج رجل من إياد ورجل من مضر يصيدان فمرت بهما أرب ، فاكتمعا بها يرمياها ، فرماها الإيادي فزل سهمه مظم قلب المصري فقتله .

وبلغ الخبر المضربين فخرجوا إلى الإياديين ثائرين يطلبون دم صاحبهم ،
قال الإياديون :
— وإنما أخطأه .

وارتفعت أصوات الاستكار وأنى المصريون أن يصدقوا أنه أخطأ
صاحبهم وهموا بقتله ، فهب الإياديون للدفاع عن صاحبهم . وتناوش القوم
وسرعان ما انقلب الأمر إلى محاللة بين المضربين ولإياديين . واشتد القتال
فظهر المصريون على أبناء عمومتهم ، وقال المصريون :
— اخرجوا من الحرم .

— أجْلُونَا ثلاثاً فلن نعصيكم أرضكم .

وبعد ثلاثة أيام خرج رجال إياد وسأؤها من الحرم وانطلقوا ليلحقوا بـ
إسماعيل في أرض البطح وفي العرق ، فقد كانت الحيرة ترحب بالعرب
الوافدين إليها لتشد بهم أزرها وتوطد أركان ملكها .

وصار أسد بن خزيمه بن مدركة بن إلياس خازن الكعبة وسيد أشراف
مكة ، وصار أخوه كنانة بن خزيمه أمين قوافل مضر التي تجوب مشارق
الأرض ومغاربها . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .
قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء ، وتنزع الملك من تشاء ،
وتعز من تشاء ، وتبدل من تشاء ، بيدك الخير إنك على كل شيء قدير .

كانت المدينة البيضاء تموج بالناس والقوافل التي تغدو وتروح بينها وبين
البتراء ، فقد كانت المدينة البيضاء ميناء النبط ، فكانت السفن الراسية عند
شواطئها المظلة على البحر الأحمر تفرغ بضائع مصر وتحمل التوابل والبحور
الآتية من بلاد بونت وخيرات الشام والعراق وفارس والهند ، فقد كانت أهم
الموانئ التجارية على ساحل الحجاز .

كانت القوافل صاعدة هابطة بين التراء وميناء المدينة البيضاء ، وكانت
كثيفة كأنها قطع من الحبوش تقوم بنقل السلع والأموال . وكانت السفن
تمخر عاب البحر الأحمر ثم تنساب في الفتاة المحصورة بين البحر ونهر النيل
لتسجد طريقها إلى موانئ البحر الأبيض ، بينما كانت القوافل تمخر عياب
الصحراء ثم تطلق إلى التراء لتتدفق منها السلع إلى ما حولها من أسواق تدفق
الدم من القنب إلى الشرايين .

وكان هرثمة الأول ملك النبط يستقبل وفود الدول المجاورة في قصره ،
وكان قصرا فخما تحت في الجبال يطل على وادي العربة وجبل هارون ،
وكانت عاية آمان هرثمة أن يعيش شعبه في سلام ، فهم قوم يمارسون
السحارة وأسباب الأمور في المنطقة يحقق لهم الاستقرار الذي ترددهر فيه
تجارهم ، أما الاضطرابات والماوشات والحروب فتعود عليهم بالخسران
والشر الطويل .

ولم يتحقق حلم هرثمة الأول ، فما عرفت المنطقة الهدوء مد ناصب
البطامة في مصر وحلفاء الإسكندر في سورية النبط العداء . وقد أثر ذلك
العداء على العرب جميعا عرب الشمال وعرب الجنوب على السواء ، صاق به
ملوك السط وولاة البيت ممكة ومبوك اليمن وشيوخ العرب المنتشرون في
الجزيرة في كل مكان ، لقد كان كساد لتراء يعكس على يثرب ومكة

ومأرب وصرواح وصنعاء وكل مدن القوافل ، وكان ازدهار التجارة فيها يجعل مدن الجزيرة جميعا تزدهر ازدهار الصحراء بالنوار .

وراح هرثمة الأول يتلفت حوله ويزن الدول بعقليته التحاربة الحاسبة ، فوجد أن دولة فتية تتكون في روما ، دولة ترى أن من الخطر أن تترك الحصارا تبتعد كثيرا عن الوحشية ، فكان رجالها يتبارون في رمى القرص والحربة والقمر من فوق الأعمدة والسباق والمصارعة والملاكمة والمخالدة ورفع الأثقال والرقص ، دولة تهتم بحيشها ونقسمه إلى فرق المشاة الثقيلة وتسليح كل جندي فيها بحريتين وخنجر وسيف وتلبسه حودة من البرونز ودرعا من الررد ، وإلى فرسان مرودين بالرماح والسيوف . وإن دولة حربية هذا شأنها لن تقع بأن تقع داخل حدودها .

كانت الإمبراطورية الرومانية آخذة في النمو ، فقد انتصرت أخيرا على هانيبال القائد العرنى الذى خرج من قرطاجنة ليستولى على إيطاليا ، وهرمت ذلك الخبر الذى اجتار جبال الألب ، واطبق يحصع المدن الإيطالية ، ولكن لا تمنح الآلهة كل موهبها لرجل واحد ، فقد كان هانيبال يعرف كيف ينال النصر ولا يعرف كيف ينتفع به .

فقط هرثمة الأول إلى أن الرومان الذين استعادوا أسبانيا من لقرطاجيين العرب هم الشمس التى ستشرق على العالم ، وأن شمس الإغريق أوشكت على الزوال ، فأسرع بالتحالف مع روما وقد شجعه على ذلك أن حكام الإغريق من بطالسة وسلوقيين أظهروا العداء للعرب بطييين ويميين على السواء

وكانت علاقة البسط بالمكابيين اليهود فى فلسطين طيبة ، بل كانت علاقتهم باليهود منذ أن فروا من اصطهاد تختنصر إلى حرية العرب علاقة حمسة ، وقد تأثر هؤلاء اليهود بعادات العرب وتقاليدهم حتى بدوا كأنهم كانوا بطا من

طوبهم .

وكان يوسراييل مد أن أعادهم قورش من أرض السبي إلى فلسطين في شقاق شديد ، فقد قام الرراع بين العائدين من أرض السبي وفي جعتههم أساطير البابليين وثقافتهم وبين من طوا في فلسطين لم يبرحوا الأرض المقدسة ، وتجدد ذلك النزاع يوم أن عاد العرير إلى أورشليم في ألف وخمسمائة من كانوا في المنفى وفي عييه التوراة التي كتبها أحبار اليهود في أرض السبي . ثم تعرف فلسطين الاستقرار يوما مد أن أعاد قورش أسرى بني إسرائيل إلى أورشليم ، فقد تجدد الرراع القديم بين إسرائيل في الشمال ويهوذا في الجنوب ، وشب نزاع بين الوافدين بتوراة جديدة كتبت في المنفى وبين من استقروا إلى حوار أطلال الهيكل يدرفون الدموع على المجد القديم .

وكان المكابيون قد انقسموا إلى ثلاث فرق : فرقة الفقهاء وأهل القياس وهم درباييون وكانوا يسمون القريسيين ، وفرقة الطاهرية المتعقنين بظواهر الألفاظ من التوراة وهم القراييون وكانوا يسمون الصدوقيين ، وفرقة العباد اسقطعين إلى العادة والتسييح والزهاد وكانوا يسمون الحيسديم .

واشتد الحدل بين أحبار اليهود وكهاسهم يوم أن اختار بطليموس الثاني سبعين من أحبار اليهود وعلمائهم واستضافهم في مصر ووكل إليهم ترجمة كتب اليهود الأربعة والعشرين سمرا في من العرية إلى اليونانية ، فشأت لتوراة السعيبية ، وادداد اليهود فرقة على فرقة وبدأ أن إسرائيل كانت تتشحر بيدها قبل أن يقصى عليها واحد خارجي .

عاد الأحبار السبعون من مصر إلى أورشليم يحملون مائدة من الذهب نقشت عليها صورة أرض مصر والبليل وقد رسمها بطليموس بالجواهر والفصوص لتوضع في الهيكل ، وبعث معهم من كان بمصر من سبي اليهود

وكانوا نحو من مائة ألف ، فقام نزاع بين الوافدين من أرض مصر وسكان بيت المقدس ، ودب الشقاق بين الشباب والشباب ، وبين الفقهاء وأهل القياس وفرق الظاهرية وبين الأحرار السبعين الذين قاموا بترجمة تورا اليهود إلى اليونانية . بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون .

وقام في يهوذا نزاع على منصب الكاهن الأعظم بين ياسون وأحيه أونياس . وعلى الرغم من أن اليهود كانوا يعتقدون أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أمم لا يرتقون إلى درجة بني إسرائيل ، فقد كانوا يولدون بالسط ويلتسمون عونهم .

كان ياسون من المعجبين بالثقافة اليونانية والمثأثرين بها ، فكان لذلك يعارض التحالف مع روما الدولة الفتية التي تطمع في أن تسيطر سلطتها على الأرض وترفع من اليونان مجدها ، وكان يعلم أن الحارث الأول بمقت الإغريق واليونان فقد حاولوا مرارا أن يسترقوا بلادهم وأن يسبوا نساء شعبه وأطفالهم وأنه من أنصار التحالف مع الرومان . وعلى الرغم من ذلك فر ياسون إلى البتراء لما انتصر عليه أخوه أونياس .

ولم يرحب هرثمه الأول بياسون ولم يدعه يستقر بأرضه بل طرده شر طردة ، فراح يفر من مدينة إلى مدينة والجميع يسبونه ويعصونه بعض من ارتد عن الشريعة ويمقتوه مقت من حد أهله ، واستمر في عراره حتى ارتد إلى مصر مذموماً مذخوراً .

وانتقل أمر اليهود إلى يهودا المكاني ، ولم يكن من المعجبين باليونان فنار عليه وأبده هرثمة الأول في ثورته ، فقد كان أمل هرثمة أن تنقص ظل اليونان عن بلاد العرب بعد أن انتشرت الخبايا اليونانية ها وهناك على شاطئ البحر

الأحمر وفي فلسطين وسورية ، وقد كانت تلك الحاليات تنافس البط مافسة شديدة في التجارة وتراحمهم السلطان في المنطقة .

ودخل يهودا القدس فهدم كل ما بناه أنطيوخوس من المذابح وأزال ما نصبه من الأصنام وظهر الهيكل وبني مذبحاً جديداً للقربان ، واتحد اليهود ذلك عيداً سموه عيد العساكر .

وعاد أنطيوخوس الثاني يتطلع إلى إخضاع فلسطين فبعث جيشاً لتأديب يهودا المكاني والاستيلاء على إسرائيل ، فخرج يهودا للقتال وقد حلف وراءه معضيه فما اتحدت كلمة اليهود يوماً ، واشتهر شملاوش عدو يهودا الدود الفرصة فسار إلى أنطيوخوس وراح يكشف له مواضع الضعف في جيش اليهود

ودار قتال مرير بين أنصار يهودا المكاني وبين اليونانيين الذين أسسوا ملكهم في أطاكية . وما كان لشملاوش أنصار في أرض يهودا فقد حذل هؤلاء الأنصار يهودا المكاني ، وظهر جيش اليونان على عدوهم فقتل كثير من اليهود ، ولاد يهودا المكاني ويوناثان أخوه بأذيال الفرار وعبرا نهر الأردن وسارا ثلاثة أيام في الصحراء حتى التقيا بالبط مقابلوهما بالرحاب ، وراح يهودا ويوناثان يقصان على البط ما أصاب اليهود في أرض طعاد من أهوال . كان السط في وئام مع المكابيين في حين لم يكن إخوانهم العرب في كل مكان على وفاق معهم ، فما كانوا يأمنون جانبهم بل كانوا يحشون غدرهم ، فكانوا يحاربون يهودا المكاني والدين معه ليستأصلوا شوكتهم قبل أن يعذبوا .

وكان العرب يعجبون من عملة هرثة الأول ملك إخوانهم النبط

ويتساءلون في دهش : كيف يبدى النود للمكايين ويركن إليهم ، بينما كان كل من له عيان في المنطقة يرى أن المكايين يطمعون في دولته ويرصدون الأحداث ليثبوا ونسبهم إذا ما أسست الأمور لهم قيادها .

وفي ذلك الوقت الذي كثرت فيه الفتن وشبت الممارعات وسادت الفوضى سورية وفلسطين وأسالت الأطماع لعاب الشعوب ليأكل بعضها بعضا ، جرحت الفيالق الرومانية من حدود بلادها لتنتشر في الأرض وليروفي النسر الروماني على الشرق والغرب .

انقسمت إسرائيل بعد موت سليمان إلى إسرائيل واليهودية ونشبت
العداوة بين الشمال والجنوب منذ ذلك الوقت ، ثم عادت وانقسمت إلى
فريسين وصدوقيين وحيسديم وتفرقت أحرابا وشيعا وقام لتنافس بين
الإخوة على منصب الكاهن الأعظم ، فشبت المعارك بين اليهود واليهود .
تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى .

وراحت إسرائيل تتحرر بأيدي آبائها ، فاشقاق بين الأحزاب قد أهلك
قواها وأدمى قوادها ، إنها لا تواجه الموت على يد قاتل مما تحرك أحد بعد من
خارج حدودها ليكتم أنفاسها ، بل كانت تقضى على حياتها بأيديها .
وقتل قبيلة عربية يوحنا المكاني ، فقد كان العرب يحشون عذر اليهود
ويعجبون لسداجة ملوك البط الذين كانوا يعاونون المكانيين على توطيد
سلطانهم في فلسطين ، وقد تولى أمر اليهود من بعده أخوه يوناثان فبعث إلى
هرثمة الثاني ملك النبط ليطلب منه الحماية والتأييد .

وهلك يوناثان أخو يهودا المكاني فقام بأمر اليهود أخوهما الثالث شمعون ،
فاجتمع إليه اليهود من كل ناحية وعظمت عساكره وتأهب بصد هجوم
الرومان الذين استولوا على أنطاكية إدا ما فكروا في الزحف إلى الحبوب
ليصعوا أيديهم على بيت المقدس ، ولكن الطعنة لم تأت من الخارج بل جاءت
من الداخل .

وثب عليه صهره روح أخته فقتله وقضى على بنيها وامراته ، وهرب ابنه

الأكبر هركانوس بن شمعون إلى غرة فامتنع بها ، وجاء إليه المكابيون وبادوا به ملكا على إسرائيل ، وسار هركانوس بن شمعون على رأس جيشه حتى دخل أورشليم .

وبعث هركانوس رسله إلى روما فاجتمعوا بمجلس شيوخها وأبرموا معاهدة صداقة بين إسرائيل والرومان المتطعين إلى السيطرة على العالم ، وقد أُنعمت روما على هركانوس بلقب ملك اليهود بعد أن كان من سف قبله من آبائه يسمى بالكوهن .

كان هركانوس وآبائه من الفريسيين الربانيين أهل القياس ، فجمع قومه ذات يوم وقال لهم :

— أريد منكم النصيحة .

طمع بعض الربانيين فيه وقال :

— إن النصيحة أن تنزل عن الكهونة وتقتصر على الملك ، وقد فاتك شرطها لأن أمك كانت سبية من أيام أنطيفونس .

فغضب لذلك وقال للربانيين :

— قد حكمتكم في صاحبكم .

كان ينتظر منهم أن يقتلوه بعد أن أهدن جلالته على الملأ وطعن في صلاحيه في أن يكون الكاهن الأعظم لليهود ، ولكنهم أخذوا في تأديبه بالضرب فحقد على الربانيين وتصر لهم وأراد أن يباعد بينه وبينهم ، فعارق مذهبهم إلى مذهب القرائين .

ونشأت الفتنة بين هاتين الطائفتين من اليهود واتصلت بينهما الحرب ، وقتل هركانوس من الربانيين خلقا كثيرا انتقاما لكرامته التي أهملها فريسي على أعين الناس .

دب الاحلال في نفوس حكام اليهود فراحوا يثيرون الفتى بين الطوائف اليهودية ، وقلدوا اليونانيين في حياتهم وتشبهوا بهم وسموا أبناءهم بأسماء قواد الإغريق .

وهلك هر كابوس ومدك من بعده ابنه أرسطوبولوس ، وكان له أخوان هما أنطيفونس والإسكندر ، وكان أرسطوبولوس يحب أخاه أنطيفونس ويغض الإسكندر ، فقبض على الإسكندر وأمه واستخلص أنطيفونس وقدمه على العساكر واكتفى به في الحروب .

وترفع أرسطوبولوس عن تاح الكهنة ولبس تاح الملك ، ونفست الطائفة مكانة أنطيفونس عند أحبه فكثرت السعاية فيه ، فلما قدم أنطيفونس من عزوة كان يغروها وكان ذلك في عيد المظال ، وكان أخوه متزما بيته نمرص طرفه ، فذهب إلى الهيكل للتبرك .

فجاء السعاة إلى الملك يهيمسون :

— إنه ما عدل عن بيتك إلى الهيكل إلا لاستمالة الكهوتية والعامة وأنه يروم قتلك ، وعلامة ذلك أنه جاء بسلاحه .

ونادى أرسطوبولوس خدمه وحشمه وعلمان قصره وقال لهم :

— إن جاء أنطيفونس متمسكاً فاقتلوه .

وجاء أنطيفونس في سلاحه بعد أن ترك بالهيكل ليزور أخاه ، فانقض عليه غلمان الملك وقتلوه . وبعد أن قال السيف كلمته علم أرسطوبولوس أنه قد جدع في أحبه فدمع واغتم ولطم صدره حتى قدف الدم من فيه ، وأقام عليلاً بعده حولا كاملاً ثم هلك .

وجاء الشعب إلى حيث حبس الإسكندر وأخرجوه من محبسه ، بايعوا له بالملك ، فصار إسكندر جيوس المكاني ملك اليهود ، وتلفت حوله فرأى أن

هرثمة الثاني ملك البط قد هلك وتولى مكانه عبادة الأول ، وأن البطرا بن كليوباترا مدكة مصر قد شق عصا اطاعة وثار على أمه واجتاز البحر بأعوانه ونزل قبرص . ولما كان الإسكندر جنيوس ذا أطماع واسعة فقد فكر في أن يستغل الاضطراب السائد في المنطقة لمصلحته .

وحرح الإسكندر بجيوشه ليعبر بالبط حلفاء الأمس ، فلاقاه عبادة الأول وهرمه ، واضطر الإسكندر أن يفر إلى القدس . ولم يقف عبادة لأول بل راح يجرد في أثر من قلبوا طهر المحن لحلفائهم .

وساد الاضطراب صفوف اليهود ولم يحدوا بدأ من أن يستدعوا أحد السلوقيين السوريين لحكمهم والوقوف في وجه الجيش السطى ، الذي أصبح قاب قوسين أو أدنى من حدود بيت المقدس .

وحاصر البط المدينة ونقبوا أسوارها وكادوا أن يستولوا عليها ، فلم يجد الحاكم السلوقي الذي استعان به اليهود بدأ من مصالحتهم ، وقد صالحهم على أن يتنازل هم عن مؤاب وجلعاد ، ولم تعرف القدس الاستقرار حتى بعد أن رفع البط عنها الحصار ، فقد جاء عيد المطال واجتمع الناس بالمسجد وحصر الإسكندر معهم ، فتلاعبوا بين يديه مرأمة بما عندهم من مشموم ومأكول ، وصاب الإسكندر رمية من الطعام رماها أحد الفريسيين ، فغضب لها وشم الصدوقيون الفريسيين وشم الإسكندر ، ونشب القتال بين الرياسيين والقرائين وسالت الدماء أنهارا .

وأمر الإسكندر بأن يسي حائط يفصل المذبح والكهنة عن الناس ، واتصلت الفتنة بين اليهود ست سنين قتل فيها من الرياسيين نحو من خمسين ألفا والإسكندر يعين القرائين عليهم .

ومات عبادة الأول ملك النبط وتولى الملك من بعده هرثمة الثالث ، فوجد

أن السوس قد نخر في ملك السلوقيين ، وأنه إذا وثب على دمشق فسيطعنهم طعة في الصميم ويرث سبطانهم .

وخرج هرثة الثالث في جيوشه وقابل جيوش السلوقيين وهرمهم ، ثم اتخذ طريقه إلى دمشق وما لشت العاصمة أن وقعت في أيدي البط أحفاد بابت ابن إسماعيل ، وبذلك أصبحت هذه الدولة العربية محيطة بالأرض التي كان يسكنها المكابيون اليهود من جميع الجهات .

وأحس الإسكندر حنيوس أنه أصبح في قبضة النبط فخرج بجيوشه للقاءهم ، وعد الحديثة على مقربة من اللد التقى جيش البط بجيش اليهود ودارت معركة انتهت بانتصار هرثة الثالث والقضاء على جيش اليهود .

وأصيب الإسكندر إصابة قاتلة فاستدعى امرأته الإسكندرية وأوصاها بكتفان موته وأن تسير بشلوه إلى القدس فدفنه فيه . وتصابع الربانيين على ولدها فتملكه ، لأن العامة إليهم أميل .

ودفنت الإسكندرية زوجها في القدس واستدعت من كان ناهرا من الربانيين وجمعتهم وقدمتهم للشورى واستبدت بملك .

وكان لها ابنان من الإسكندر اسم الأكبر مهما هركانوس والآحر ألاستوبولوس ، وكانا صغيرين عند موت أبيهما فلما كبرا عيت هركانوس للكهنة وقدمت أرستوبولوس على العساكر والحروب وضمت إليه الربانيين ، وقد سألها اربانيون في الأحد بثأرهم من القرائين فيمن قتله الإسكندر مههم برأيم فأدنت هم في ذلك ، فقتلوا من القرائين حلقا كثيرا ، وجاء القرائون إلى ابنها لكهوت يذكرون ذلك وقالوا لهركانوس :

إن أحاك أرستوبولوس أطلق يد الربانيين ف قد ك شيما لأبيه ، وإنه بفعله ذلك قد وسع هوة الخلاف بينا وبين الربانيين ، فالتمس لنا من

الإسكندرية إذنها في الخروج من القدس والبعد عن الربانيين .
 فأذنت لهم الإسكندرية رغبة في انقطاع الفتنة ، وخروج مع الصلوقيين
 وجوه العسكر ، وسرعان ما لفظت الإسكندرية أنفاسها .
 وكان أنتيباطر أبو هيرود صديقا لهركانوس ، وكان من عظماء بنى
 إسرائيل من الذين عادوا مع العرير من بابل ، وكان ذا شجاعة وبأس وه يسار
 يقتنى الصياع والمواشى ، وقد تزوج من البط فكان له من زوجته النبطية
 أربعة من الأبناء وهم فزائيل وهيرود وفرواوس ويوسف وبنت اسمها
 سالومي .

ولما شعر أرسطوبولوس قائد العسكر بموت أمه الإسكندرية فكر في أن يقتل
 أنتيباطر لينتخلص من مكره وليبيض جناح أخيه ولكن أنتيباطر أحس بالخطر
 فراغ من الشرك الذى نصبه له أرسطوبولوس .

وضرب أرسطوبولوس البوق إعلانا للحرب ، ورحف لحرب أخيه
 هركانوس والربانيين . والتقوا بالأردن واهزم هركانوس والربانيون ودخلوا
 بيت المقدس فحاصروهم أرسطوبولوس وعزم على هدم الحصص ، فخرج إليه
 عُيان اليهود والكهنوتية ساعين في الصلح بينهما ، وأجاب أرسطوبولوس على
 أن يكون ملكا ويبقى هركانوس على الكهنوتية ، فتم ذلك واستقر عليه الأمر
 غير أن أنتيباطر لم يرض عن ذلك ، فأخذ في التدبير على أرسطوبولوس وراح
 يغيض الناس فيه ويدكر لهم أن هركانوس أحق بالملك منه .

وراح يحذر هركانوس من أخيه ويوسوس له أنه يريد قتله ، ثم أشار عليه
 بالخروج إلى هرثمة ملك البط من هزم السلوقيين ووضع يده على دمشق ،
 يستنصره على أخيه .

وانطلق هركانوس وأنتيباطر إلى البتراء وراحا يربنان لملك النبط حرب

أرستوبولوس ، فأخذ يروعهما وأراد أن يعرياه بالسيف لقتال ملك اليهود فوعده بالتنازل للنبط عن بعض الأرضين وعن المدد الاثنتى عشرة التى كان الإسكندر الأكبر قد استولى عليها يوم أن دخل فلسطين دخول الفاتحين .
وتزاحف النبط واليهود ووزع الكثير من عسكر أرستوبولوس إلى هركانوس ، فرجع أرستوبولوس هاربا إلى القدس فانطلق هرثمة في أثره .
اتصفت الحرب و طال الحصار ثم سقطت القدس في يد هرثمة ، وما كاد يستقر بها حتى كان بومبيوس القائد الرومانى قد جاء بنفسه إلى سورية للإشراف على إحصاع جميع أجزائها .

وهرع الأخوان هركانوس وأرستوبولوس إلى مبيوس وحمل كل منهما إليه هدايا أسالت لعابه وجعلته يفكر في أن يبعث بجيوشه إلى فلسطين ليضع يده على كوزها . راح هركانوس يسب أحاه ويكيل له التهم ثم أخذ أرستوبولوس يسب أحاه أشنع سباب ومبيوس يصغى إلى ضغتهما مرة ويطلق لحياله العنان يفكر في الاستيلاء على بيت المقدس مرات

وأرسل مبيوس جيشا رومانيا بقيادة سكورس ليعزو فلسطين فاستولى على بعض أجزائها ، وقبل أن يجتاز حدود أرض يهودا أرسل إلى هرثمة ملك النبط يخبره بين البقاء في القدس والدفاع عنها وعداوة الرومان وبين تركها وترك الدفاع عنها ومصادقة القائد ، فرأى هرثمة الارتحال عنها ومصادقة الرومان . واحتل الرومان القدس وأرض يهودا وسائر فلسطين ، وأمر مبيوس بالحقاقها بالمقاطعة الرومانية السورية ونصب عليها سكورس حاكما ، وانتزع من يهودا مدنا وقرى ألحقها بهذه المقاطعة ، وأصبحت مملكة يهودا الصغيرة في حماية الإمبراطورية الرومانية بعد أن أخذ أرستوبولوس وأكثر أفراد أسرته أسرى وبعث بهم إلى رومة ليسيروا في موكب الأسرى الذين جرى بهم من

الشرق يوم الاحتفال الكبير بانتصار بومبيوس العظيم .
وسار سكورس ليستولى على مملكة البط فهب هرثمة للدفاع عن بلاده ،
وقاوم مقاومة عيفة جعلت سكورس يعقد مع هرثمة اتفاقية واعدى بموجبها ملك
البط على المحافظة على الأمن وعلى التعاون مع الرومان ، وقد ضرب هرثمة
وسكورس نقدا هذه المناسبة عليه صورة رمزية تشير إلى هذا الاتفاق .

وراح العلم الرومانى يتشتر فى الأرض وراحت التجارة تسير فى أثر العلم
الرومانى ، فأخذ التجار يشترون الأرقاء ويشترون الأرض وينشئون فى
الأقاليم ضياعا أوسع رقعة من إيطاليا ، ولم يعد من المستطاع على سورى أو
فلسطينى أن يقوم بعمل تجارى إلا عن طريق مواطن رومانى ، ولا يتقل درهم
واحد من يد إلى يد دون أن يمر بسجل أحد الرومان .

كان اليهود تجارا ذوى خبرة بشئون المال ، وكان البط تجارا يعيشون على
التجارة وإقراض الناس ، وقد جاء الرومان إلى المنطقة بعقليتهم التجارية
المستعملة التى جعلت بعض الآباء يبعون أطفالهم فى أسواق الرقيق سدا
لديونهم وفوائدها . وقد قضوا على اليهود قضاء مبرما وأموا منافستهم ، ترى
أيتكون دولة البط تراحمهم فى سورية وفلسطين ؟ كان ملوك البط ذوى
أطماع عريضة وكان قواد الرومان ومجلس شيوخ روما يخون السيطرة على
الأرض ، وكان لا بد أن يقع صراع رهيب بين ذوى الأطماع التى لا تحد ،
والتي أخذت تترايد على مدى الأيام .

كان إيطالس ملك الصقليين قد احتل أنتريا وهي مكان الإصبع الكبرى في الحذاء الإيطالي ، ومعنى أنتريا أرض السيد لكثرة ما كان فيها من كروم ، فلما أصبح إيطالس ملك أنتريا بدل أهل البلاد اسمهم فلم يعودوا يسمون أنفسهم أنتوريين بل سموا إيطاليين ، وكما أن الرومان أطلقوا على الهلنيين جميعا اسم الأغارقة وهو اسم جماعة قليلة هاجرت من شمال أتيكا إلى نابولي ، وكذلك توسع الإغريق في معنى إيطاليا حتى شمل هذا الاسم جميع أرض شبه الجزيرة من جنوب سر إلى أقصى طرفها الجنوبي .

وقد ظلت روما جمهورية الكلمة العليا فيها لمجلس شيوخها حتى عاد بمبيوس من الشرق يحمل الغنائم ويسوق الأسرى ، وجاء يوليوس قيصر من أسبانيا مزهوا بنصره يظنم في يكون قنصلا على روما ، بل حاكما مستبدا تنقلص أمامه سلطة شيوخ روما ، فتكونت الحكومة الثلاثية من قيصر وكراسس ومبيوس .

ولد قيصر في بيت متواضع في حى سابورة وكان الحى من أحياء روما القديمة تكثر فيه الحوانيت والحدائق والمواعير ، فلما شب عن الطوق أظهر استعدادا عظيما للخطابة وبدأ في شبابه يكتب ويؤلف ، وكان على الرغم من نشأته البسيطة يزهو بأصله ويرجع نسبه إلى مبيوس الزهرة ربة الحسن والجمال . فهو من نسل الآلهة .

وعين يادرا حريا في آسية فلما عاد إلى رومة تزوج كوسوتيا استعجابه

لرغبة أبيه ، وقد طلقها بعد أن تولى والده برمن يسير وتزوج كورنيليا ابنة سناً الذى تولى قيادة الثورة بعد ماريوس .

وتولى صلا زمام السلطة فى روما فأمر قيصر أن يطلق كورنيليا ، فلما أبى أن يطع هذا الأمر صادر أملاكه التى ورثها عن أبيه كما صادر بائنة كورنيليا وسجل اسمه فى المحكوم عليهم بالإعدام .

ولما علم قيصر بذلك هرب من إيطاليا حتى إذا مات صلا عاد إلى رومة ، ولكنه رأى أن أعداءه هم أصحاب الأمر والنهى فيها فعاد وغادرها مرة أخرى إلى آسية . وأسره القراصنة فى الطريق واقتادوه إلى كمين لهم فى قليقية ، وعرضوا عليه أن يطلقوا سراحه نظير فدية قدرها عشرون تالنتاً ، فلما سمع ذلك لامهم على أنهم لم يقدروه حق قدره وعرض عليهم هو نفسه أن يعطيهم خمسين تالنتاً وأرسل خدمه ليأتوه بالمال . وأخذ فى تلك الأوقات يسلى نفسه بكتابة القصائد وقراءتها على أسريه ، فلما أظهروا عدم إعجابهم بقصائده سماهم برابرة همجا وأندرهم بأنه سيشفقهم فى أول فرصة تتاح له .

وعاد خدمه بالبقاء وما كان مبلغاً يستهان به ، وما كاد يتنسم نسيم الحرية حتى أعد السفن والملاحين وراح يطارد القراصنة حتى قصص عليهم واستعاد مهم المداء ثم قطع رقابهم قبل أن يصلهم .

وعاد إلى رومة ووزع جهوده بين السياسة والحب ، وكان وسم الوجه وإن كان سقوط شعر رأسه فى تلك السن المبكرة أخذ يشغل باله ، ومات كورنيليا زوجه فتزوج بمبيا حميدة صلا ، وقد كان ذلك الزواج سياسياً محضاً لذلك لم يتورع عن العلاقات الجنسية غير المشروعة ، وما كان ذلك أمراً مستهجناً فى ذلك الوقت .

كان ازدياد الثراء فى رومة من أكبر عوامل فساد الأخلاق وانفصام رابطة

الرواج المقدس ، وازدهرت الدعارة وكثر عدد الباحثات عن الذهب لما تدفق الذهب والفضة من ممتلكات رومة في آسية وأوروبا . وربما عدد المواخير والحانات التي تؤوى هؤلاء العاهرات زيادة جعلت بعض الساسة يلجئون في الحصول على أصوات الناخبين إلى اتحاد أصحاب المواخير ، وصار الزنى أمرا مألوفا . لم يعد يثير انتباه الناس إلا إذا استخدم لأغراض سياسية ١

ولم يكن ثمة امرأة موسرة إلا أطلقت مرة على الأقل ، ولم يكن اللوم في ذلك واقع على النساء فقد كان أكبر أسباب انتشار الطلاق أن الرواج عند الطبقات العليا أصبح حاضعا للمال وللسياسة .

أراد صلا أتيام كان صاحب السلطة في روما أن يصمم بومبيوس إلى جانيه ، فأقنعه بالتخلص من زوجته الأولى والاقتران بإميليا ربيته وكانت وقتئذ متزوجة وحاملا . ووافقت إميليا على هذا الزواج مكرمة ولكنها ماتت في أثناء الوضع عقب انتقالها إلى بمبي .

وأرسل قيصر إلى أسبانيا حيث تولى قيادة الحملات العسكرية التي سبرت لتأديب القبائل الوطنية وعاد بها وهو يحمل من الغنائم ما يملأ خزائن الدولة بالمال . وكان بمبي قد عاد قبله من الشرق يحمل ثروة عظيمة من الصرائب والخراج والبضائع التي غنمها في حروبه فاستطاع أن يعمر خزائن الدولة وأن يضمن لها إيرادا سنويا قدره ثلاثمائة وخمسون مليون سترس ، وأن يوزع على جنوده ثلاثمائة وأربعة وعشرين مليونا ، وأن يستبقى لنفسه رغم هذا كله من المال ما ينافس به كراسس فيصبح أحد رجلين هما أغني أغنياء رومة .

وطلب بمبي من مجلس الشيوخ توزيع الأرض على جنوده فأبى المجلس ذلك ، فرأى قيصر أن يتهرز هذه الفرصة السانحة فألف من نفسه ومن بمبي ومن كراسس الحكومة الثلاثية الأولى وتعهدوا جميعا أن يقاوموا كل تشريع

لا يرضى عنه أى واحد منهم ، واتفق بمبى أن يساعد قيصر فى أن ينتخب قنصلا ، كما تعهد قيصر إذا ما اختير لهذا المنصب أن ينفذ الاقتراحات التى عرصها بمبى ورفضها مجلس الشيوخ .

وزوج قيصر ابنه يوليا إلى بمبى ليضمن بذلك وفاءه له ، وأغضبت هذه الحال كاتوزعيم المحافظين فقال : « إن الإمبراطورية أصبحت توكيلا لإدارة شئون الزواج » .

وكانت الحملة الانتخابية شديدة مريّة استخدمت فيها الرشوة من كلا الجانبين ، ولما سمع كاتوزعيم المحافظين أن حزبه يتنازع أصوات الناخبين نسي مبادئه ووافق على هذا العمل بمحجة أنه وسيلة إلى غرض نبيل .

ولم يتحقق الغرض النبيل الذى كان يقصده كاتوزعيم فقد اختار العامة قيصر واختار الأشراف آخر ، وما كاد قيصر يتسلم مقاليد منصبه حتى عرض على مجلس الشيوخ المطالب التى تقدم بها بمبى ، وهى توزيع الأرض على عشرين ألفا من المواطنين الفقراء ومهم جنود بمبى والتصديق على الاتفاقات التى عقدها بمبى فى بلاد الشرق ، وتخفيض المبالغ التى تعهد الملتزمون بمجمعها من ولايات آسية بمقدار الثلث .

ولما عارض المجلس كل مطلب من هذه المطالب بجميع ما لديه من وسائل عرضها على الجمعية مباشرة ، فوافقت الجمعية عليها ، وقد تجاهل قيصر المجلس فى نفس العام فعرض على الجمعية مباشرة مشروعه الثانى الخاص بتوزيع الأراضى التى تملكها الدولة فى كمبانيا على من كان له ثلاثة أبناء من المواطنين الفقراء ، فوافقت عليه الجمعية ، وكان ذلك بداية اهتزاز الجمهورية الرومانية وظهور عصر الحاكم المستبد فى الدولة التى يقضى دستورها بأن كل من يحاول أن ينصب نفسه ملكا يجور قتله من غير محاكمة ، وكل من يحاول أن يتولى

منصبا من غير رضاء الشعب يعاقب بالإعدام .

وقبل أن تنتهى فترة هذه القنصلية التاريخية أضح قيصر فى أن يعين واليا على بلاد الغالة الجنوبية وغالة ناربونة فى الخمس السنين اثنى تلى سنة توليه القنصلية . ولكى يستوثق من بقاء تشريعاته السابقة عمل على أن يتخب اثنان من أنصاره قنصلين لروما . وقد طلق زوجته الثالثة بميا بسبب ارتياحه فى استقامتها وتزوج كلبرونيا ابنة أحد الصديقين اللدين رشحهما للقنصلية .

ولم يكد قيصر يعتزل منصبه حتى اقترح بعض المحافظين إلغاء كل التشريعات التى أصدرها إلغاء تاما ، ولم يكتم كانوا زعيم المحافظين رأيه فى تلك « القوانين اليوليوسية » وطالب بمحوها من سجلات القوانين الرومانية ، وتردد مجلس الشيوخ فى الاستجابة لهذا التحدى الصريح لقيصر ومن ورائه الجحافل الرومانية .

وتوغل قيصر فى بلاد الغاليين وتواترت أنباء ما كان يلاقه فيها من الأخطار الكثيرة ، فأخذ الأمل يداعب المحافظين وقال شيشرون خطيب روما ومن كان لسان الحكومة الثلاثية قبل ذلك الوقت بقليل : « من لم يمت بالسيف مات بغيره » . وتلون شيشرون بلون الزمان فاقترح أن ينظر مجلس الشيوخ فى إلغاء قوانين قيصر الخاصة بالأراضى الزراعية .

كانت القبائل الألمانية تتحرك فى جميع الأصقاع الممتدة من سهر الراين إلى المحيط الأطلنطى وكان قيصر يحتال لإيقاد روما ، فيما كانت روما نفسها تدبر المؤامرات للقضاء عليه .

وانتصر فيصر على الألمان وحرر عالة من أعدائها واعتقد أن تحريرها هذا لا يفترق فى شىء عن فتحها ، فشرع من فورهِ يعيد تنظيمها على أساس خضوعها لسلطان روما ، وحجته فى ذلك أن هذا التنظيم هو الوسيلة الوحيدة

لحمايتها من الألمان ، ودعا بمبي وكراسس أن يقابلاه ليضعوا معا خطة مشتركة للدفاع عن أنفسهم أمام الحركة الرجعية التي يقوم بها المحافظون . واختير بمبي وكراسس قنصلين بعد أن قدما الرشا السحبة المعتادة ، وعاد قيصر يعمل على إقناع الغاليين أن السلام أحل من الحرية .

وراح قيصر يحارب الألمان ويزحف بجيوشه حتى يغزو بريطانيا ويقضى على الفتن في غالة ويحمي روما من أعدائها ، حتى إن شيشرون بعد أن تقلب مرة أخرى في مبادئه السياسية أخذ يتغنى بمدح قيصر : « ليست معاقل الألب المنيعه ولا مياه الرين الفياضة الصاخبة هي الدرع الحقيقي الذي صد عنا غارات الغاليين والقبائل الألمانية الممجية ، بل الذي صدها في اعتقادي هو قيادة قيصر وقوة ساعديه . ولو أن الجبال دكت وسويت بالسهول ، والأشجار جفت ، لا استطعنا أن نحتفظ ببلادنا حصينة منيعه بفصل ما ناله قيصر من نصر مؤزر وما قام به من أعمال مجيدة ، ألا ما أعظم فضائله علينا » .

احتطت السياسة الرومانية في خلال السنين الخمس الثاية من ولاية قيصر على حالة ، فقد راح القنصلان بمبي وكراسس يسيران في حكمهما على خطة شراء أصوات الناخبين وإرهاب المحلفين والالتجاء إلى القتل في بعض الأحيان .

وانقضت مدة ولايتهما فجند كراسس جيشا كبيرا وأبحر به إلى سورية ، ثم عبر نهر الفرات والتقى بالفرس ، فدارت الدائرة عليه لتفوق فرسان الفرس وقتل ولده في المعركة .

وبما كان كراسس يرتد بقواته بنظام ، دعاه قائد الفرس إلى الاجتماع به ، فأجاب الدعوة ، ولكن قائد الجيوش المارسية غدر به وقتله وأرسل رأسه إلى البلاط الفارسي ، وأصبح بذلك قيصر ومبي في الميدان وحدهما .

كان كل منهما يطمع في أن يكون سيد روما ، وقد حدث أن انفصلت
العروة الوثقى بينهما لما ماتت يوليا ابنة قيصر وروحة بمبي في أثناء الوضع ،
وقد حاول قيصر أن يستميل بمبي إليه فعرض عليه أن يزوجه أكتافيا حفيدة
أخيه وأقرب قريباته في ذلك الوقت ، وطلب أن يتزوج هو ابنة بمبي ولكن بمبي
رفض كلا العرضين .

وعقد بمبي حلفا صريحا مع المحافظين ولم يبق أمامه من عقبة للاستيلاء على
السلطة إلا مطامع قيصر وجيشه الحرار . ولما كان يعرف أن قيادة قيصر
للجيش مستتة قريبا فقد أصدر مراسيم تقضى بمد أجل قيادته هو إلى ما بعد
انتهاء قيادة حليف الأمس وغريم اليوم ، ليخلو له وجه الجيش .

وقامت اضطرابات في روما وراح الأغنياء يستأجرون عصابات من
المجالدين يدفعون عنهم الأذى أو يؤيدونهم في الجمعية ، واستهوت رائحة المال
أو هبات الحبوب أحط الطبقات في أيطاليا فهرعت إلى روما وجعلت
اجتماعات الجمعية مهزلة من المهازل ، حتى إن من ليس حق الاقتراع كان
يقترع . وأضحت العصابة التي ترفعها قوتها على سائر العصابات المنافسة لها
هي التي تشرع للدولة .

وقامت عصابات بقتل كوديس وكان من أعظم الخراء المتنازعين في
المهزلة البرلمانية ، وكان ينظم عصابات من أحط الطبقات ليصل بها إلى
أغراضه السياسية ، فرفعه صعايلك المدية إلى مرتبة الشهداء واحتملوا بجنائزته
احتفالا عظيما وجاءوا بجثته إلى مجلس الشيوخ وحرقوا البناء فوقها .

وجاء بمبي وفرق الغوغاء ، ثم طلب إلى المجلس بناء على نصيحة كاتو أن
يعينه « فصلا عاما بلا زميل » ، وقد قال له كاتو إن هذه العبارة أخف على
السمع من لفظ « كاتور » .

واستسلمت عناصر الثروة والنظام جميعا في عاصمة البلاد إلى دكتاتورية
عسمى ، أما الطبقات الفقيرة فطلت تتلهف على عودة قيصر
لم يختلف قيصر مع عسمى في أن الجمهورية قد ماتت وأنها أصبحت اسما على
غير مسمى لا جسم لها ولا صورة ، ولم يكن ثمة معر من الدكتاتورية ، ولكنه
كان يريد أن يصع الأمور في أيد قيادية تعمل لتقدمها ورفقها .

كان قيصر في الرابعة والخمسين أو هنته حرره الطويلة في غالة ، ولم يكن
محب أن يتورط في محاربة مواطنيه وأصدقائه السابقين ، ولكنه كان على علم
بالمؤامرات التي تحاك له والمحتاج التي تنصب لاقتناصه ، وكان يؤله أشد
الأم أن تكون هذه المؤامرات والمحتاج هي الجزء الذي يجزى به من أنجي
إيطاليا من الدمار والحراب .

وطلب بعض أنصار عسمى من مجلس الشيوخ عزل قيصر قبل أن تنتهي مدة
قيادته للحيش الروماني في غالة . ومعنى ذلك أن يحاكم أو يبقى خارج البلاد ،
وأى المجلس ذلك ، ولم يدحر قيصر جهدا في إزالة أسباب الخلاف بينه وبين
بمبي دون جدوى ، فطلب قيصر على لسان مؤيديه في مجلس الشيوخ أن يعاد
العمل بقرار الجمعية السابق الذي كان يحير له أن يرشح نفسه لمصب القنصلية
وهو غائب عن روما ، ولكن المجلس رفض الاقتراح وطلب إلى قيصر أن
يسرح جسده .

وعرض قيصر على مجلس الشيوخ أن يعتزل هو وبمبي منصبيهما ، وبدأ هذا
العرض معقولا في نظر الشعب حتى إنه كلل جين رسوله بالأرهار . ووافق
المجلس على هذا الرأي إلا أن عسمى أبى أن يخضع لهذا القرار ، وأعلن أن قيصر عدو
الشعب إذا لم يتخل عن القيادة .

وانقسم المجلس على نفسه : كان مارك أنطونيو صديق قيصر يؤيد قيصر

في مطالبه وكان كاتو يعارض تلك المطالب ، وانتهى الأمر بأن نجح كاتو في أن يجعل المجلس يوافق على دكتاتورية بمبي وحكمة العسكري .

وشبّه الحرب الأهلية بين بمبي وقيصِر ، واضطر بمبي إلى الفرار من روما ودخلها فيصِر ، وأعلن حين دحوها العفو العام عن جميع أهلها وراح يقتعى أثر بمبي في أسبانيا ، وبعث بالحبوب إلى الخائفين من الجوع في روما ، فلم يمانع مجلس الشيوخ في أن يعينه دكتاتورا على إيطاليا ، وصار يوليوس قيصر من سيصبح حكام الرومان قياصرة تيمنا باسمه ، الحاكم المطلق وسيد روما .

واستأنف القتال بين بمبي وقيصِر على كره من قيصر ، فقد كان يمتنع أن يقتل الروماني رومانيا ، ودارت رحى المعركة لفاصلة في فرسالس في اليوم التاسع من شهر أغسطس عام ٤٨ ق . م وكانت معركة طاحنة ، وكان عدد قليل من أنبل رجال روما يشاهدون المعركة عن كثب ويفكرون فيما صارت إليه الإمبراطورية بسبب المطامع الشخصية ، لقد اشتبكت زهرة شباب المدينة الواحدة وعماد قوتها في صراع عيب ، فما أخط ما في الطبيعة البشرية من مشاعر إذا ما أثّرت شهواتها .

وفر بمبي إلى الإسكندرية ، وفر بروتس من الميدان وكان قيصر يحبه حبا جما وإن انضم إلى أعدائه ، وقد بعث بروتس برسالة إلى قيصر ، فاعتبط قيصر أشد الاعتباط لما علم أن بروتس حي يرزق وعماعه من هوره .

وقابل بمبي زوجه في الإسكندرية ، وما كادت قدماه تطأ أرض مصر حتى طعمه خدم بوتيبس حصى الشاب بطليموس الثاني عشر طعنة قاتله ، بينما كانت زوجته تنظر إليه في هلع وهي على ظهر السفينة .

وقتل بمبي في أرض مصر ، وكان على عرشها بطليموس الثاني عشر وأخته كليوباترة ، وكانت كليوباترة شقراء ولم تكن بارعة الحمال ولكن قوامها

الرشيق المعتدل وخفة روحها وتوسع ثقافتها وحسن صوتها ومقامها الملكي جعلتها فتنة تسلب الألياب .

كانت من أصل يوناني مقدوني ، فكانت على علم بتاريخ اليونان وآدابهم وفلسفتهم ، تجيد الحديث باللغات اليونانية والمصرية والسورية ، وقد جمعت بين فتنة العقل المتوقد وفتنة الغانية المتحللة من كل قيد ، وكانت تجيد تدبير الشؤون المالية حتى في الوقت الذي كانت تنصب فيه شراك الحب .

ونجح يوتيس حصي أحبه ووزيره أن ينهبها عن البلاد ، وبلغ ذلك قيصر فاستاء ، فذهب إلى الإسكندرية وأرسل إليها سرا أن توافيه ، فأخفت نفسها في مراش حملة تابعها أبولو دورس إلى مسكن قيصر بالإسكندرية .

ودهل القائد الروماني حين رآها وأسرت به بشجاعتها وسرعة بديتها وهو الذي لم يدع انتصاراته في ميدان القتال ترقى على انتصاراته في ميادين الحب ، ونجح في أن يوفق بينها وبين أحبها وأحسهما على عرش مصر كما كانا .

وعرف قيصر أن يوثيبس والقائد المصري أخلاص كانا يأتمران به ليقتلاه ويبيدا القوة العسكرية الصغيرة التي جاءت معه إلى مصر ، فدبر في الخفاء اغتيال يوثيبس وهر أخلاص واتصل بالحيش المصري وحرصه على الثورة ، وسرعان ما امتلأت الإسكندرية بالجنود ينادون بالويل والثبور لقيصر ، وراح أخلاص يمرض ضباط الحامية الرومانية التي وضعها مجلس الشيوخ في تلك المدينة على الانضمام إلى الحيش الثائر في وجه هذا الدخيل الخائن الذي سوت له نفسه أن يقرر وراثته عرش البطالمة ، وأن يعمل على أن يولد له من صلبه من يرث هذا العرش في المستقبل .

وعمل قيصر في هذا الظرف الحرج ما كانت تسعفه به سعة حيلته ، فأحال القصر الملكي والملهي المحاور له إلى قلعتين تحصن فيهما هو ورجاله ،

ثم أرسل يطلب المدد من آسية الصغرى وسورية ورودرس ، ولما أدرك أن أسطوله الضعيف الذى لم يكن فيه من يحميه لئلا يلبث أن يقع فى يد أعدائه أمر به فأحرق ، والتمت النار جزءا من مكتبة الإسكندرية .

وانطلق رسل قيصر إلى البلاد القريبة لجذته ، واعتذر أغلب الحكام بأن الرجال القادرين على حمل السلاح قد بيعوا فى سوق الرقيق لوفاء بمطالب جاة الضرائب الرومانيين العادحة ، وقوبل رسول قيصر فى البتراء بمعامرة بالغة .

كان ملك البط ممالك الأول بن عبادة الأول ، فما إن طلب منه رسول قيصر النجدة حتى سار الأساطيل إلى الإسكندرية ، وانطلق انبحارة العرب لإنقاذ حليفهم يوليوس قيصر من المأزق الحرج الذى وضع نفسه فيه .

ورأى قيصر أن لا بد له من الاستيلاء على جزيرة فاروس لأنها هى المدخل الذى يمكن أن يصل إليه عن طريقه المدد المنتظر ، فهاجمها هجوم اليائس واستولى عليها ، ثم جلا عنها ثم عاد فاستولى عليها .

وفى إحدى هذه المعارك صوب إليه المصريون عاصفة من السهام ، ونجحوا فى أن يقذفوا به وبأربعمائة من رجاله إلى البحر بعيدا عن الحاجر الذى يصل الجزيرة بأرض المدينة ، وطس بطليموس الثانى عشر أن الثوار حالهم النصر فخرج من القصر وانضم إليهم ، ولكن كليوباترة لم تتحل عنه أبدا ، وراح قيصر يسبح لينجو من الموت وقد استطاع أن يصل إلى الشاطئ .

وجاء الأسطول انبطى وانضم إليه قيصر ومن بقى على قيد الحياة من جنوده ، ودارت الدائرة على المصريين وحامية مجلس الشيوخ الروماني وانهمزوا فى معركة الليل ، وكافأ كليوباترة على إخلاصها له بأن عين أخاها الأصغر بطليموس الثالث عشر ملكا معها على مصر ، فجعلها بدلت حاكمة

البلاد الحقيقية .

وعاد الأسطول النبطي إلى بلاده وقد توطدت الصداقة بين البسط والرومان . وقد كانت كليوباترة تمقت الأنباط إذ كانت تطمع أن تكون ملكة العربية ، إلا أن الأنباط لم يتيحوا لها تحقيق ذلك الحلم فراحت تنتظر الأيام لتثار منهم بعد أن عجزت عن تحقيق حلمها .

وقعت العداوة بين قيصر ومسي ، فأطلق قيصر أرسطوبولوس ملك اليهود من محبسه في روما وأطلق معه قائدين في اثني عشر ألف مقاتل وسرحهم إلى سورية وإسرائيل ليردوا الناس عن طاعة مسي .

وكتب مسي إلى أنتيپاطر بيت المقدس أن يكفيه أمر أرسطوبولوس ، فبعث قوما من اليهود لقوه في سورية ودسوا به سماً في بعض شرايه كان فيه حتفه . وقتل مسي في مصر وأصبح الأمر في يد قيصر وحده ، فحف إلى ه أنطيوخوس بن أرسطوبولوس وأنتيپاطر وهركانوس ، فشكا أنطيوخوس بأن هركانوس وأنتيپاطر قد قتلأ أباه حين بعثه أهل روما للحرب بمسي ، فقال أنتيپاطر مدافعاً عن نفسه :

— إنما فعلت ذلك لخدمة من ملك علينا من الرومان ، وإنما كنت ناصحاً لقائدهم مسي بالأمس وأنا اليوم أيها الملك لك أنصح وأحب .

فحسن موقع كلامه من قيصر وقدمه على عساكره لحرب الفرس ، فلما عاد هركانوس وأنتيپاطر من حرب الفرس أعاد قيصر هركانوس إلى ملك بيت المقدس وأنتيپاطر مدير المملكة في ظل الاحتلال الروماني . وكان هركانوس صعيقاً عن لقاء الحروب فتغلب عليه أنتيپاطر وعين ابنه هيرود عاملاً على الخليل ، وكان قد بلغ الحلم .

واحتاروا الملك من أطرافه ، وامتلأ أهل الدولة منهم حسداً وكثرت السعاية فيهم ، فهدب الشقاق بين هركانوس وأنتيپاطر .

وراح قيصر يفكر في أن يبعث حملة عظيمة لإخضاع الفرس ، وأن يزحف حول البحر لأسود وأن يرتاد سمر الدانوب ويفتح ألمانيا ، ثم يعود إلى روما لينها العالم بالسلم بعد ذلك .

وسربت هذه الأحلام إلى روما فرحب بها العامة وتلمظ لها رجال الأعمال إذ شموافها رائحة الحرب ، وفرعوا من المطالب التي ستهال عليهم ؛ أما الأشراف فرأوا السوء يحل بهم عند عودة قيصر ، لذلك عقسوا إليه على قتله .

وروعهم وجود كليوباترة وابنها قيصرون في روما ، وراجت الإشاعات في روما أن قيصر يريد أن ينصب نفسه ملكا وأن ينقل عاصمة دولتهما المتحدة إلى بلاد الشرق .

وأقبل كيوس كاسيوس وكان قائداً من قواد بمبي على بروتس واقترح عليه اغتيال قيصر . وقد اشتهر بروتس بين الناس كافة بأنه أعظم الناس استمساكاً بالفضيلة ، وكانت أمه أختاً غير شقيقة لكاتو علو قيصر البلدود ، وكانت زوجته ابنة كاتو ، وكان الناس يطوبون أن بروتس نفسه ابن قيصر لأن قيصر كان عشيق أمه في الوقت الذي ولد فيه ، وكان قيصر يعتقد أن بروتس ولده بل بـ وكان بروتس نفسه يعتقد هذا الاعتقاد ، فكان يحقد أشد الحقد على قيصر لأنه أفسد أخلاق أمه وجعله مضعة في أفواه الرومان .

ودهب قيصر إلى المجلس وما كاد يدخل حتى هجم عليه « دعاة الحرية » وطعه بروتس ، فقال له :
— وأنت أيضاً يا ولدي .

ثم استسلم للطعات وسقط عند قدمي تمثال بمبي الذي أتى قيصر إلا أن يقام في أروع ميدان .

وشب انقتال بين كاسيوس وبروتس وجود المحافطين ، وبين مسارك أنطونيوس صديق قيصر وأكتافيوس متبني قيصر والوجود الثائرين لمقتل قائدهم ، وفر بروتس وكاسيوس وحيوش الجمهورية إلى الولايات الشرقية للإمبراطورية ، وطلبا منها ضرائب عشر سنين مقدما ، وحصلوا بالفعل على تلك الضرائب . ولما عارض أهل رودس هذه المطالب هاجم كاسيوس ثعرهم العظيم وأمر الأهلين جميعهم بتسليم ثروتهم وقتل كل من تردد منهم ، وحمل معه أموالا طائلة لا تعد . وفي فينيقية أنزل جوده في بيوت طرسوس ولم يبارحوها حتى أدت إليه ما فرض عليهم من مال . ولم يستطع السكان أداء هذا المال حتى باعوا بالزاد جميع أراضي البلديه وصهروا جميع آنية الهيكل وحلبها وباعوا الأحرار عبيدا ، فباعوا البس وانبسات ، ثم النساء والشيوخ ، وباعوا آخر الأمر الشباب ، وقد انتحر الكثيرون من الأمهين حين علموا أنهم يبعوا بيع العبيد .

وانطلق كاسيوس إلى القدس وطالب اليهود بسبعين بكرة من الذهب ، فجمع له أنتياطر وبنوه ما طلب ، ثم عاد كاسيوس إلى مقدونية بعد أن ترك قائدا رومانيا في القدس .

وجاء أعداء أنتياطر إلى ذلك القائد وراحوا يزيتون له قتل ذلك الثعلب ، فأذن لهم :

وجاء الخبر إلى ابه هيرود في الخليل فثار ورأى أن يثار لأبيه من قاتليه ، بل من هركانوس نفسه . وراح يهكر فاهندي إلى أن أمه من البط وأنه إذا استعان بمالك ملك النبط فسيعيه ، فقد كانت صلات أنتياطر بالنبط طيبة على الدوام .

وانطلق هيرود يريد البتراء ليلتمس العون والمساعدة والمال على سبيل الهبة

أو الدين ، وبينما هو في الطريق وصلت إليه رسل الملك تخبره أن الملك لن يستطيع مقابلته .

وكان ذلك بناء على رجاء تقدم به الفرس إلى مالك الأول ، فكتبها هيرودس في نفسه ثم جمع من استطاع جمعهم وذهب إلى القدس مجعاً قتل هر كانوس ، فكفه أخوه فزائيل عن ذلك .

وحاء كاسيوس من مقدونية إلى صور ، ففزع إليه هر كانوس وهيرودس وبعض أنصارهما وشكوا إليه ما فعله قائده من تواطئه مع أعداء أنتيباطر من تواطئه مع اليهود ودرس السم له ، فأذن لهم في قتله فقتلوه .

واستصر أكتافيسوس وأطوبيو على كاسيوس ، وأصبح أكتافيسوس أوغسطس قيصر . فأرسل إليه هر كانوس ملك اليهود هدية وفيها تاج من الذهب مرصع بالخواهر ، وسأل تجديد العهد لهم وأن يطلق السبي الذي سبي منهم أيام كاسيوس وأن يرد اليهود إلى بلاد اليونان وأثينة ، فأجابته إلى ذلك .

صارت إسرائيل ولاية رومانية بيساطلت مملكة البسط تنعم باستقلالها ، وقد أرسلت كليوباترة إلى مالك ملك البسط أن يؤدي لها الجزية فأبى ، وأرسل إليه الرومان أن يؤدي لهم الجزية فكان جوابه الرقص . وكرهت كليوباترة مانكا كما كرهت هرثة من قبله ، فقد كانا صحرة صلدة في سبيل تحقيق أميتها أن تكون مدكة مصر والعرب ، وراح الرومان يتحيون الفرصة لإدلال العرب وتمزيق أنوفهم الشائخة في التراب .

واطلق أنطونيوس إلى الشرق وكان قد استسلم للشهوات الحسية استسلاماً أعمده احترام رعاياه ، إذ أحاط نفسه بالراقصات والموسيقيات والعشيقات والمهرجين ، واتخذ له روحات ومحظيات .

(العدنانيون)

ووصل إلى طرسوس فأرسل إلى كليوباترة يدعوها للمثول بين يديه لتجيب عما اتهمت به من مساعدتها كاسيوس على جمع المال والجود . وجاءت كليوباترة ، فبما كان أنطونيو جالسا على عرش في السوق العامة ينتظر منها أن تحضر وتدفع عن نفسها ما اتهمت به ، ثم يقصى لها أو عليها ، إذا ما جاءت في نهر سندس في قارب ذي أشعة أرجوانية وسكان مذهب ومحاديف من فضة ، تصرب الماء على أنغام الناي والمرمار والقيثارة ، وكانت وصيفاتها هن بحارة القارب ، وقد ارتدين رى حور البحار وربات الحمال . أما هي فقد تربت بزي فيوس ورقدت تحت مرادق من قماش موشى بالذهب .

ولما انتشر بين أهل طرسوس نأ هذا اسطر الفتان أقبلوا على الشاطئ زمرا ، وتركوا أنطونيو وحده جالسا على عرشه . ودعته كليوباترة إلى العشاء معها في قاربها فأقبل عليها ومعه حاشيته الرهيبه ، فأولت لهم وليمة فاخرة وقدمت لهم أشهى الطعام والشراب ، وأمسدت القواد بما قدمت لهم من الهدايا والابتساماته .

وبدا حديثه معها بلومها على ما فعلت . واحتتمه بأن أهدى إليها فينيقية وسوريا الوسطى وقبرص وأجزاء من بلاد قنيقية وبلاد العرب واليهود .

وحف هركانوس إلى أنطونيو يقدم له ولاءه وولاء اليهود ، وجاء جماعة من اليهود يشكون هيرود وأحاه فرائيل وتصلموا منهما ، ولكن هركانوس اسرى للدفاع عنهما فأمر أنطونيو بالقبض على الشاكين

واحتلت كليوباترة هيرود وراحت ترين له محاربة مالث ملك السيط ، وقد كانت تريد بذلك أن توهن هيرود ومثك السيط لتمكن من إسرائيل وأرض النبط وتصبح سيده العربية .

وعاد هركانوس إلى القدس ، ورجع هيروود وأخوه كما كانا : هيروود حاكم الخليل وفرائيل ناظر القدس ، وفي حلال ريادة أكابر اليهود لأنطونيوس لحق أنطيوخوس وجماعة من اليهود بالفرس ، وما لشوا أن عادوا بجيوش فارسية وهاجموا القدس وأسروا هركانوس ملك اليهود وكاهنهم وفرائيل ، ثم ققموا عائدتين إلى فارس . وفي الطريق مات فرائيل ، ولما وصل قائد الفرس بأسيره إلى البلاط الفارسي أمر ملك الفرس بإطلاق سراح هركانوس .

واطلق هيروود إلى مصر يريد أنطونيوس ، فما بعها كان أنطونيوس قد عاد إلى روما فأكرمه كليوباترة لا حافية فقد كانت عمقته من كل قلبها ، بل طمعا في أن يشن الحرب على العرب الذين نالوا من كبريائها وأبوا أن يحملوا الجزية لها .

وأركته كليوباترة السمن إلى روما ، فخرج إلى أنطونيوس يخبره خبر الفرس وما حاق بالقدس ، فدخل به أنطونيوس على أوغسطس قيصر ولم يخرج من عنده إلا وقد ألبسه أغسطس قيصر التاج وأركبه في روما في رى الملك ، وراح هاتف يهتف بين يديه بأن أوغسطس قد ملكه على اليهود .

وخرج أنطونيوس لقتال الفرس وخرج هيروود معه ، حتى إذا ما بلغت جيوش الرومان أطاكية فارقها هيروود وركب البحر إلى القدس ، وكان أول ما فعله أن بعث يستدعي هركانوس من فارس ليعينه كهوت على اليهود كما كان ، فصدق هركانوس ذلك وفعل عائدا إلى القدس وكان قد بلغ الثمانين من عمره ، فقابله هيروود بالترحيب ورح بخاطبه بأني في الجمع والحلوة .

وكانت ابنة أحي هركانوس تحت هيروود وقد علمت عما يبيت له هيروود من عسر ، فأرسلت إلى هركانوس رسالة تقول له فيها : الحق بملك العرب ليكون في جوارك .

وكتب هركانوس رسالة إلى ملكك يلتمس منه أن يبعث إليه من رجالاته من يخرج به إلى البتراء ، وأعطى الرسالة لمن يحملها إلى ملك البتراء ، ومن سوء حظه كان حامل الرسالة ممن يعضون هركانوس لأنه قتل أخاه وسلب ماله . فأخذ الكتاب ووضعها في يد هيرود ، فلما قرأه رده إليه وقال : — أبلغه إلى ملك العرب وارجع إلى بحواب .

واطلق الرسول إلى البتراء وعاد برد الرسالة ووضعها في يد هيرود ، فلما قرأها غضب ، فقد قال ملك العرب لهركانوس إنه أسعفه وبعث الرجال وحدد المكان وطلب منه أن يبقاهم به وأن يأتي إليه .

فبعث هيرود جنوده إلى ذلك المكان وقض على رجال البتراء وحىء بهم إليه ، ثم أحضر حكام البلاد اليهود والسبعين شيحا وأحضر هركانوس وقرأ عليه الكتاب بخطه فلم يجر جوابا وقامت عليه الحجة ، فقتله هيرود لوقته وأصبح ملك اليهود غير منازع .

وأعاد هيرود ساء هيكل سليمان وشيد مسرحا وحلقه بالألعاب الرياضية في المدينة المقدسة ، فثار المتديون على ذلك ثورة عارمة واعتبروه خروجا على الدين ، ولم يأبه هيرود بتلك الثورة بل راح يدعو قومه إلى أن يتعلموا من الحصار أهلية كل ما ثبت أن تحصينه أمر ضروري لليهود .

وراحت كيبوباطرة تثير حميظة هيرود على العرب ، وما كان هيرود في حاجة لمن يؤحح نار عداوته ، إنه لا يسي أن ملك العرب قد رده ردا غير كريم يوم ذهب إلى البتراء يطلب عونا للثأر من قتلة أبيه ، وهو لا يسي مكاتبة هركانوس له وإسراعه في الوقوف إلى جوار هركانوس ، فسار بجيوشه لقتال العرب ، وعند اللد نشبت معركة سقطت فيها ضحايا كثيرة من الجانبين ، ثم وقعت سلسلة حروب كلفت اليهود والعرب خسائر فادحة ، وبدأ أن

الصحوة التي سرت في أرض اليهود في أيام هيرود هي صحوة الموت .
وعاد أنطونيوس من حرب فارس ونروح كليوباترة ، وثبتها هي وقيصرون
حاكمين معا على مصر وقبرص ، وحلج الولايات الشرقية من الإمبراطورية
على ابنه وابنته من كليوباترة ، وراحت كليوباترة تشجعه على أن يغامر آخر
معامرة في سبيل أن يصبح سيد روما وحده ، وراحت تساعد على حشد
جيش وأسطول وتقسّم أسبا وثقة من النصر وثوقها بأسبا ستولى ذات يوم
الحكم من الكايتول .

والتقى أكتافيوس وأنطونيوس في معركة بحرية فاصله عند أكتيوم ، فلما رأى
أنطونيوس أن الدائرة قد دارت عليه أحد كليوباترة وعاد إلى الإسكندرية ،
وأرسل رسله إلى أكتافيوس بطلب الصلح ، إلا أن أكتافيوس أعرض عنه
واطلق ليعضى عليه .

وانتحر أنطونيوس وانتحرت كليوباترة ، وحلّس أغسطس قيصر الرجل
العيل على عرش البطالمة ، وعقب وريث قيصر وريثة الإسكندر ، وانتصر
العرب على الشرق ودب الدعر في قلب هيرود ، فقد انصم إلى أنطونيوس في
حربه لأغسطس قيصر ، ترى ماذا سيفعل به من فار في صراع الحاضرة ؟

بعث هيرود بوجه وابنته إلى حصن الإسكندرونة واطلق إلى روما يقال
أوعسطس قيصر ويواجه مصيره ، فإن قنله قيصر لاصصامه إلى أنطونيوس كان
أهله في أمان ، وإن عما عه عاد إلى ملكه وأعاد إليه أهله .

ودخل هيرود على أوعسطس قيصر فرأى العصب في وجهه ، وإن هي إلا
خطات حتى كان أوعسطس يرعى ويريد ويعفه وهو يدور حوله ، ثم أراح
التح عن رأسه وهم بأن يصدر عليه حكما بعقابه فتطلف هيرود في
الاعتذار ، ثم قال في خضوع :

— إن موالاتي لأنطونيوس مولاي إنما كانت لما أو لاني أنطونيوس من إحميل
في السعاية عند مولاي ، وهي أعظم أياديه عندي ، ولم تكن موالاتي له في
عداوتك وحريث ، ولو كان ذلك وأهدكت نفسي دونه كنت غير منوم فإن
الوفاء شأن الكرام ، فإب أزلت عني التاح فما أزلت عني ولا نظري ، وإن
أبقىتي فأنا محل الصنيعة والشكر .

وعاد هيرود إلى بيت المقدس ليعيش عيشة انرومان وقد اقتفى كثير من
اليهود أثره ، بيا بقي بعض المحافظين متمسكين بأهداب الدين . وقد كانت
الناصره تتحدث عن الأسياء والأيام الطيبة الحالية ، فقد كانت أسراتها تتحدر
من أصلاب الأسياء وكانت كل أسرة تحترف حرفة يتوارثها الأبناء عن الآباء .
فقد احترف فرع دود التجارة ، واحترف فرع هسرون تجارة
الأحشاب يجلبونها من التلال ، واحترفت الفروع الأخرى

صناعة النعال أو تخفيف التين .

وكان عمران من فرع داود وكان يعمل بالتجارة ، ولكن آمانه تعبت بحدمة الهيكل العظيم بأورشليم ، وشجعه على ذلك أن زكريا روح إليصابات أحث روحه حثّة هناك في معبد الرب يقوم بحدمته ويكرس حياته للمادة والاستفجار .

وذاث يوم خرج عمران وحنة قاصدين بيت المقدس ليهبا نفسيهما لله ، حتى إذا ما أشرفا على السامرة أحدا يتقدمان في حذر ، فالسامريون يعصون اليهود فهم يعتقدون أنهم ، أى السامريين ، أبناء إسرائيل الحقيقيون ، ولا يعترفون إلا بكتب موسى الخمسة دون باقى التوراة ، ويحفظون بنسخة من هذه الكتب دونت على جلد الماعز ، ويقولون إن هارون كتبها بخط يده .

وعكف عمران وحنة على العادة في هيكل سليمان ، وحمست حنة وهرها الفرح لأن أعظم ما تفعله فتاة في إسرائيل أن تحب لزوجها أولادا ، وشعلت بما في بطنها فراحت تمكر فيه وتسمى أن يكون كجده داود .

ومرض عمران وراح زكريا وروجه إليصابات يعودانه ، واشتدت عليه وطأة المرض فشعلت به حنة عما في بطنها ولم يفعه حب روجه فذهب إلى ربه ، وحررت حنة أن انقطع بموت عمران شرف حدمة المعبد ، فشحصت بصرها إلى السماء وقالت :

— رب إني نلت لك ما في بطني محررا فتقبل منى ، إلك أنت السميع العليم .

ورجعت إلى الباصرة وعادت إلى بيتها تنتظر تمام شهورها ، ثم جاءها المخاض ووضعت ما في بطنها فإذا به فتاة ، فظرت إلى السماء وقالت :

— رب إني وضعنها أنثى .

والله أعلم بما وصعت ، وليس الذكر كالأثى ، وفكرت في اسم لها
وكانت مريم أخت هارون وموسى امرأة تقية ، فماداً لا نسمى ابنتها باسمها
تيمناً ؟ فشخصت إلى السماء ثانية وقالت :

— وإني سميتها مريم ، وإني أعيدها بك وذريتها من الشيطان الرجيم .

وكان مالك منك السط على صنة طيبة بالرومان ، فلما مات مالك وتولى
من بعده عبادة الثانی طلب الصلوات الطيبة بين الحبيين . وقد كان عبادة ملكاً
مسالمًا ذا شخصية متهاقة ، فيما كان وريره صالح شاباً قويا آماله عريضة
لا تحد .

كان صالح قادراً وكفئاً على الرغم من صغره ، وكان هو المتصرف في
أمر الدولة والمدير لشئون المملكة ورجل الدولة الحقيقي ، وكان صديقاً
هيروديروره ويزن عليه وكاد أن يتزوج أخته لولا اختلاف الديين ، ورفض
صالح الدخول في الديانة اليهودية ليم ذلك الزواج .

وجعل أغسطس قيصر مصر تابعة لحكم قيصرية روما ، وعين أوليوس
غالوس حاكماً عليها وأمره بأن يصلح الطرق ويظهر القصة التي تصل النيل
بالبحر الأحمر ، وأن يظهر ذلك البحر من القراصنة الذين كانوا يهددون
الأساطيل المصرية . .

وحاء إلى أغسطس قيصر من يعريه بعرو أرض العرب للاستيلاء على ثروتها
المعطية التي تكسدت لديها من الاتجار بالمر واللبان والبحر ، وللفضاء على
القراصنة الذين كانوا يحتمون سواحل الحجار واليمن .

وبعث أغسطس قيصر إلى أوليوس غالوس والي الرومان على مصر أن سر
إلى بلاد العرب للبحث عن شعوبها ، وعن حدود بلاد الحبشة والأرض

المقابلة لبلاد العرب والأقسام المخورة لها يقصدها عنها مضيق ضيق ، لعقد معاهدات معها أو احتلالها .

كانت الأساطير التي تروى عن بلاد العرب وعن غناها تسيل لعاب الرومان ، بها تقايض التوابل والبخور بالذهب والفضة والأحجار الكريمة ، وهي عنية حتى إنها في غنى عن أن تستورد أشياء من خارج حدودها ، فأراد أغسطس أن يكون له حلفاء أغنياء أو أعداء أغنياء في قبضة يده وتحت سيطرته .

كان الإسكندر يحلم بتحقيق مثل هذا المشروع الخطير ولكنه مات قبل أن يحققه ، وحتى لو أطل الله في عمره بما كان تحقيقه ميسورا . كان أغسطس قيصر يعرف هذه الحقيقة ويرى أنه أسعد حالا من الإسكندر ، لأن البط وهم أقوى شعوب العرب حلفاؤه ، ولأن ملكهم عبادة الثاني وعده خيرا وتعهد بتقديم الرجال والمؤن وأن يصنع وريثه صالحا الخطير تحت تصرف قواده ليكون لهم مستشارا ودليلا .

وخرج أوليوس غالوس من مصر على رأس الحملة الرومانية وكان قوام الحملة عشرة الاف جندي جمعوا من مصر من المصريين والرومان وحلفائهم ، وألف بطى ، وخمسمائة يهودى بعث بهم هيروود إلى القائد الرومانى الذى ما كان يعرف عن البلاد التى خرج لفتحها إلا أنها بلاد غنية ! أراد أوليوس غالوس أن يفقد حملته برا ولكن حليفه صالح ومستشاره الذى يعرف دروب الصحراء أقنعه بعدم وجود عدد كاف من الجمال لحمل الحيوش والمؤن ، وعدم وجود طرق برية تيسر رحل الجيش ، ونصحه بأن يحمل قواته في البحر إلى ميناء البط على ساحل البحر الأحمر ميناء « لويكة كومة » .

واستمع أوليوس غالوس إلى نصيحة مستشاره وحمل قواته على السفن الرومانية والمصرية ، واطلقت الأساطيل قاصدة ساحل الحجاز ، وإذا بقرصان البحر من العرب واليمن يهاجم تلك الأساطيل ويتلف بعض السفن وينجح في أن يفرق سفنا بكل رحالها وما تحمل من عتاد ومؤن . وبعد خمسة عشر يوما من المخاطر والأهوال وصلت السفن إلى مباء النبط العقيم .

كان الرومان قد همموا على هذا المباء ووضعوا فيه حامية رومانية لحماية السفن من قراصنة البحر ولحماية الطرق البرية من قطاع السفن والتجار ، وكانوا يخبون المكوس على البضائع التي ترد إلى المباء وكان مقدارها ٢٥ ٪ من ثمن تلك السلع .

وبرزت القوات الرومانية والمصرية إلى البر ، وبعد أن استراحت طويلا من أهوال البحر وانضم إليها رجال هيرود اليهود ورجال النبط انطلقت الحملة لتتوغل في قلب الجزيرة العربية ، وقد كانت كلمة صالح وزير عبادة الثاني هي الكلمة المسموعة في الجيش كله .

ودخل أوليوس غالوس أرض قبيلة الحارث بن كعب وكان شيخها من ذوى قرابة عبادة ملك النبط ، فاستقبلت القبيلة الرومان استقبالا حسنا فطن الرحال أن الأمر نرهة في الصحراء ، وإن هي إلا أيام حتى تحر بلاد العرب ساجدة للنصر الرومانى .

واستأنف الحملة رحفها في أرض وعرة قليلة الررع والماء ، وبدأ الخود يحسون التعب والعطش ، وكانوا كلما توغلوا في الصحراء يقاسون لدع الشمس ونقص المؤن وشدة العطش ، وراح القود يتطلعون إلى صالح فيؤكد لهم أن هذه طبيعة الصحراء .

ونقضت ثلاثون يوما ولا شيء إلا بحر الرمال وقرص الشمس في السماء

سهارا ، والقمر والجوهر ليلًا ، والريح الصرصر العاتية التي تكاد ترهق الأرواح في كل وقت وحين ، كانوا يتوغلون في قلب نجد قاصدين اليمن وسط هذه المخاطر القاتلة .

وتصرفت الأيام وبعد خمسين يوما من التعب والعطش والجوع والمرص وصلوا إلى بحران ، وكانت منطقة حصبة ، وقاتل الرومان أهل المدينة قتال المستميتين فقد كانوا يتشوقون إلى ماء المدينة وأن يتميعوا ظلال الأشجار ، وسقطت بحران وهر ملكها ودخل الرومان المدينة ينتقون أنفاسهم وينعمون ببعض الراحة بعد طول ما تحملوا من مشاق .

وراحت نظرات الريّة توجه إلى صالح فقد بذرت بذور الشك في نواياه ، إنه يغني تصليل الحملة بل هلاك الجيش في البيداء ، وكان صالح ثابت الجنان يؤكد لأوليوس غالوس أن ما قاساه رجال الحملة إن هو إلا طبيعة الرحف في الصحراء .

وأستأنفت الحملة زحفها إلى المجهول ، وبعد مسيرة ستة أيام دارت معركة بين الزاحفين والعرب عند نهر غيل الخارد ، ولما كانت أسلحة الرومان متفوقة فقد خسر المدافعون عشرة آلاف رجل ، ورأوا أن خير ما يفعلونه ألا يستأنفوا هجومهم وأن يدعوا القادمين من روما ومصر وأورشليم للطبيعة القاسية تتأثر منهم لتحاسرهم على هتك حرمتها .

ومكنوا في الجوف يستريحون ، ولكن أي هي الراحة وقد دب اليأس في نفوسهم وتسربت الأسقام إلى أبدانهم وباتوا يتلفتون مذعورين ؟ وبعد أيام استأنفوا سيرهم فراحوا يتوغلون في اليمن وأمسوا على بعد يومين من أرض التوابل ، ولكن حارب قوهم وأصبح غاية آمالهم أن يعودوا سالمين إلى مصر .

انقضت ستة أشهر منذ خرج الجيش من « لويكة كومة » إلى آخر موضع بلعه الرومان في الخنوب ، كانت كلها عطشا وبسا وعدابا وأسقاما ، تصعصعت فيها روح الرجال وتحركت فيها أحقادهم على صاح دليهم ومستشارهم ، ولكن لم يستطيعوا أن يبدوا له العداوة فقد كانوا يرجون أن يقلل بهم عائدين إلى بر السلامة .

لم يعثر الجيش الروماني على ذهب ولا فضة وتقوضت الأحلام ، وسار بهم صالح في طريق العودة وقد بلغ نحران في تسعة أيام . ودارت هناك معركة بين العرب والرومان ، معركة كان الرومان كارهين لها فقد تيقنوا أن محنتهم باءت بالإحراق وأهم يحاربون لإنتقاد جلودهم ، وانتهر أوليوس غالوس أول فرصة ليستأنف عودته .

وبعد مسيرة أحد عشر يوما بدعوا « العيون السبع » . ومن ذلك الموقع انطلقوا إلى حوران ومنه إلى تبالة ، ومن تبالة دخلوا ينبع وقد أنهكهم المرض والتعب . وانقلب الشك إلى يقين لما عاد بهم صالح إلى ينبع في مدة أقصر كثيرا من تلك المدة التي قطعوها في ذهابهم ، فاتهموا صالحا بالخيانة وسوء المشورة ، وتعمده تصليل الحملة واستخدامها في ضرب المدن التي يريد صرعا وإصعاف القبائل التي يخشى بأسها وتوهين قوى الرومان ، ليصبح سيد الموقف في بلاد العرب .

وأضنى الرومان الذين عادوا من المغامرة الصيف والشتاء في ميناء ينبع يعالجون من الأمراض التي فتكت بهم ، فقد ابتلوا بنقص في الطعام والشراب وصرنات الشمس الحامية ، ثم ركبوا السفن التي جاءت تحملهم بعد إحفاق الحملة واطبقوا إلى ققط ومها إلى الإسكندرية وقد وصعوا ورر ما حاق بهم على صالح ورير عبادة الثاني ملك البط .

تقبل الله مريم بقبول حسن ونبأنا حسنا ، وكبرت مريم فصار على حجة أمها أن تمى بدورها ، فانطلقت إلى أورشليم لتسلمها إلى العباد المقيمين في المعبد ، فتسارع العباد في أيهم يكفلها ، وأراد ركريا أن يستبد بها دونهم فإليصابات خالنها فأبوا وقالوا :

— نقترع فمن حرجت قرعته كان له حق كفالها .

وجاء كل منهم بقلم معروف به وحملوا الأقلام ووضعوها في موضع أمروا علامة لم يبلغ الحِجْن أن يخرج قلما منها ، فأخرج واحدا فكان قلم ركريا ، فقال الرجل :

— لا نقترع مرة أخرى ، بلقى قلامنا في النهر .

وذهبوا إلى النهر وألقوا أقلامهم ، فسارت جميع الأقلام مع التيار إلا قلم زكريا فقد جرى خلاف جريه في الماء ، فكفلها ركريا ، وراحت مريم تقضى نهارها في اعاده والاستعمار وتمضى ليلها في مناجاة ربها . وفي ذات ليلة بينما كانت عارقة في ابتهالاتها أحست كأن شخصا في محراها قتلعت فلم تجد أحدا ، فمشى الخوف في أوصالها ومن أذنيها حفيف صوت فقالت :

— من هناك ؟

وإذا بصوت عذب يقول :

— أنا رسول ربك إليك يا مريم ، إن الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على

ساء العالمين . يا مريم اقتنى لربك واسجدي واركعي مع الراكعين .
ودخل عليها زكريا المحراب وكان قد نال منه الكبر ، فوجد عندها فاكهة
في غير أوانها فتعجب وقال لها :
— يا مريم أتى لك هذا ؟

— هو من عند الله ، إن الله يرزق من يشاء بغير حساب .
وعاد زكريا إلى محرابه ، إنه قارب الثمانين ولم يرقق ويدا . وحر في نفسه
أن ينفى فردا وتسمى أن يهب الله له علما ، ولكن ما كان له أن يطمع في ذلك
وإليصابات عقر ، ولكن ما رآه في محراب مريم أحيا الأمل في نفسه فراح يدعو
الله :

— رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيئا ولم أكن بدعائك رب
شقيا ، وإني خست الموالى من ورأى وكانت امرأتى عاقرا هب لي من لدنك
وليا ، يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رصيا .
فرأى ملكا كريما يقول :

— يا زكريا إنا نبشرك بعلام اسمه يحيى ، لم نجعل له من قبل سميا .
قل زكريا :

— رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا .
قال الملك :

— كذلك قال ربك . هو على هين ، وقد خنقنك من قبل ولم نك شيئا .
— رب اجعل لى آية .

— آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا .

وخرج زكريا إلى قومه ورمز إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ، فقد استجاب
له ربه ووهب له يحيى .

وقفت مريم لربها وسجدت وركعت ، وبينما هي في محرابها هبت سائم رقيقة وعبق الجوى بروائح زكية وعرق المكان في نور سماوى ، وإذا بالملائكة أمامها .

قالت الملائكة :

— يا مريم إن الله يشرك بكلمة مه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها في الدنيا والآخرة ومن المقربين ، ويكلم الناس في المهد وكهلا ومن الصالحين .

— رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ إيليا قد قام .

— كذلك الله يخلق ما يشاء ، إذا قضى أمرا هانما يقول له كى فيكون .

وانتبدت مريم من أهدبها مكانا شرقيا ، فانتخذت من دونهم حجابا فأرسل الله إليها رسوله فتمثل لها بشرا سويا . قالت :

— إى أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقا .

قال :

— إنما أنا رسول ربك لأهب لك علاما ركبيا .

قالت :

— أنى يكون لى علام ولم يمسسنى بشر ولم أك بعيا ؟

قال :

— كذلك قال ربك هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا .

ونفخ الله فيها من روحه ، ثم عادت إلى محرابها تفكر فحشيا هم وقلق ، فهل يصدقها الناس إذا قالت هم إنها حملت بالمسيح المستطر ؟

فحملته فانتبذت به مكانا قصيا ، فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة

قالت :

— يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا .

فأدأها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا ، وهري إليك بجذع
الحنلة بساقط عليك رطبا حيا ، فكلى واشرفى وقرى عينا ما ترى من البشر
أحدا فقولى : إني ندرت لرحمن صوما فلى أكلم اليوم إنسيا .
فأنت به قومها تحمله قالوا :

— يا مريم لقد جئت شيئا فريا . يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما
كانت أمك بغيا .

فأشارت إليه قالوا

— كيف نكلم من كان فى المهد صبيا ؟

قال :

— إني عبد الله آتأتى الكتاب وجعلنى نبيا ، وجعلنى مباركا إنما كنت
وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا ، وبرا بوالدى ولم يجعلنى جبارا
شقيا ، والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .

وشعل الناس عن مريم وابنها بالثورة التى اندلعت فى أرجاء فلسطين ، فقد
مات هيرود الكبير ذلك الطاغية الذى رفع السر الرومانى فوق هيكل
سيمان ، وأمرت روما بإحصاء اليهود ورأى اليهود أن ذلك الإحصاء إن هو
إلا مقدمة لفرص السيادة القيصرية عليهم فردا فردا ، وتقييدهم عبيدا لقيصر
تفرض عليهم عبادته وافتتاح الصلوات باسمه .

ضاق اليهود بالصرائب حميعا فقد كانوا يؤدون ضريبة لدهيكل وضريبة
للدولة ، وصافوا بقسوة سيطرة الرومان ، فلما دعا يهودا الجليلى إلى حرب
روما حلف إليه الثوار وانطلقوا إلى أورشليم واحتصوها ، وحوصر الفيق
الرومانى الذى يحميها ودمر قصر هيرود وأشعل فيه النار .

وعضب أغسطس في روما فأمر حاكم سورية أن يؤدب العصاة ،
فخرجت الجنود العربية والفرسان الرومان ودخلوا فلسطين يقتلون الرجال
ويتركون المدن طعمة للبرابرة ، ففر منهم الثوار إلى القلاع فمس لم يمض بالسيف
مات بالعطش والجوع .

وسيطر الرومان على أورشليم ورفع الحصار عن حاميتها ، ونزل الكرب
بالمدينة اليهودية فاجتمع الفلسطينيون ومشايخ اليهود وبعثوا سفراء إلى أغسطس
يلتمسون منه أن ينصب عليهم ملكا بعيد الهدوء والسلام .

كانت العداوة قد شبت بين هيرودس الكبير وبين صالح ، ولقد ذهب صالح
إلى روما وقابل أغسطس قيصر وحاول أن يقصى على هيرودس دون جدوى ،
فقد كان هيرودس عبدا مخلصا لروما عنى أبناءه بحبها ، فلما جاء وفد اليهود إلى
روما يتمس صيانة لأرواح ، قسم فلسطين إلى ولايات ونصب أبناء هيرودس
الخمسة حكاما على تلك الولايات ، فكان أنتيباس هيرودس الثاني على الجليل ،
وكان إسخرون على الولايات الأخرى ، أما أورشليم ، القلب المقدس ، فقد
جعلها أغسطس ولاية رومانية يحكمها حاكم روماني يتلقى الأوامر من قصر قيصر .
ومرت الأيام وشب يحيى^(١) في أورشليم ونما عيسى في الجليل ، ونشأ
يحيى منذورا للبتولة وكان عليما بالكتب الدينية يسمعه من أبيه ويتلوها في
حوائه . وكان كثير العزلة شديدا على نفسه في تهجد ونسكه ، وكان يعيش
بانقرب من نهر الأردن ليتطهر على الدوام فقد كان من المنتظرين ، وكان
يرتدى ثوبا حشا من الوبر يصف حقويه بمسقة من الجلد ، يصوم أكثر الأيام
ويقتات من الجراد والعسل .

(١) يحيى هو يوحنا المعمدان .

وَوَحى إِلَيْهِ وَهى صَبِي : يَا بَحِي حَذِّ الْكِتَابِ بِقُوَّةٍ ، فَكَانَ لَا يَتَقَى حَرْجًا فِي كَلَامِهِ عَنْ ذِي خَطِيئَةٍ أَوْ دَسٍّ ، لَا يَحْشَى فِي اللَّهِ لَوْمَةً لَأَلَمٍ . فَلَمَّا رَأَى قُصُورَ حُكَامِ الْأَهَالِيمِ مَرَاتِعَ لِبَهْرِ ، وَأَنْ أُنْتِيَّاسَ هِيرُودَ غَارِقَ فِي الدَّسِّ تَسَاقَ إِلَى قُصُورِهِ أَهْمَلَ الْغَنِيَّاتِ رَاقِصَاتِ عَارِيَّاتٍ ، وَكُتُوسَ الْحَمْرِ تَدُورُ عَلَى الْأَصْغِيَاءِ ، وَأَنْ الْفُسَادَ دَبَّ فِي مَجْلِسِ السَّنَهْدَرِيِّينَ مَجْلِسِ رِجَالِ الدِّينِ ، رَاحَ يَشْنُ أَعْنَفَ حِمْلَةٍ عَلَى دَوْلَةِ الْأَغْنِيَاءِ وَرِجَالِ الدِّينِ ، وَسَمِعَ النَّاسَ بِهِ فَذَهَبُوا إِلَى نَهْرِ الْأُرْدُنِّ وَأَلْقَوْا إِلَيْهِ سَمْعَهُمْ قَالَ :

— إِنْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَنِي بِحُمْسِ كَلِمَاتٍ ، أَنْ أَعْمَلَ مِنْ وَأَمْرَكُمْ أَنْ تَعْلَمُوا بِهِ . وَأَوْلَادُهُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ لَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ، فَإِنْ مَثَلُ ذَلِكَ مَثَلٌ مِنْ اشْتَرَى عَبْدًا مِنْ خَالِصِ مَالِهِ بِوَرَقٍ أَوْ ذَهَبٍ ، فَيَجْعَلُ يَعْمَلُ وَيُؤَدِّي عَلَيْهِ إِلَى غَيْرِ سَيِّدِهِ ، فَأَيُّكُمْ يَسْرُهُ أَنْ يَكُونَ عَبْدُهُ كَذَلِكَ ؟ وَأَنْ اللَّهَ خَلَقَكُمْ وَرَرَقَكُمْ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا .

وَأَمْرَكُمْ بِالصَّلَاةِ فَإِنَّ اللَّهَ يَنْصُبُ وَجْهَهُ قَبْلَ عَبْدِهِ مَا لَمْ يَنْتَفِتْ ، فَإِذَا صَلَّيْتُمْ فَلَا تَنْتَفِتُوا .

وَأَمْرَكُمْ بِالصِّيَامِ فَإِنْ مَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ مَعَهُ صِرَةٌ مِنْ مَسْكٍ فِي عَصَابَةٍ ، كُلُّهُمْ يَجِدُ رِيحَ الْمَسْكِ ، وَإِنْ حُلُوفٌ مِمَّنْ الصَّامِ أَطْيَبُ عَبْدَ اللَّهِ مِنْ رِيحِ الْمَسْكِ .

وَأَمْرَكُمْ بِالصَّدَقَةِ فَإِنْ مَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَسْرَهُ الْعَدُوَّ فَشَدُّوا يَدَهُ إِلَى عِقْفِهِ وَقَدَمُوهُ لِيَضْرِبُوا عِقْفَهُ ، فَقَالَ : هَلْ لَكُمْ أَنْ أَتَدْبِيَ نَفْسِي مِنْكُمْ ؟ فَجَعَلَ يَمْتَدِّي نَفْسَهُ مِنْهُمْ بِالْقَلِيلِ وَالكَثِيرِ حَتَّى فَلَكَ نَفْسُهُ .

وَأَمْرَكُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ كَثِيرًا ، فَإِنْ مَثَلُ ذَلِكَ كَمَثَلِ رَجُلٍ طَلَبَهُ الْعَدُوُّ سَرَاعًا فِي أَثَرِهِ ، فَأَتَى حَصْنًا حَصِينًا فَتَحَصَّنَ فِيهِ ، وَإِنْ الْعَبْدُ أَحْصَنَ مَا يَكُونُ

من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل .

وراح يحيى يقول للوفود التي توافدت عليه :

— توبوا فقد اقترب ملكوت السماء .

وذاع في البلاد أن نبيا حشنا قام في البرية يدعو إلى الله ويبشر باقتراب ملكوت السماء . ولما كان اليهود يترقبون عودة إيليا ليخلصهم من الفساد قالوا إن إيليا قد قام .

وخرج الرجال والنساء والأطفال من كل فج مهطعين إلى الأردن ، وأقبل الفريسيون في كبريائهم الغرور يملؤهم فهم يعتقدون أنهم أهل علم وكتاب ، فهم لا يعادرون بضد التوراة يقرعون فيها ويقرعون ثم يعودون فيقرعون ، لا شغل لهم إلا قراءة التوراة حتى حفظوا النصوص وترمتوا في تطبيقها ، أما الروح فكانت شيئا لا يؤبه له .

نظروا إلى ذلك الرجل الباحل العارى إلا من مدرعة من شعر ، وأعاروه سمعهم وهو يبشر الناس باقتراب ملكوت السماء ، ثم دنوا منه وقالوا له :

— من أنت حتى نخبر من أرسلوك . ألمسيح أنت ؟

— لا .

— ألتى أنت ؟

لا أنا صوت صارخ في البرية . قوموا طريق الرب كما قال أشعيا النبي . فطروا إليه في راية وقالوا :

— فما بالك تعمد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبي ؟

كانوا ينتظرون محيى المسيح وقيام إيليا ومبعث النبي الآمى ، الدين آتياهم

الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم».

قال يحيى لمن كانوا يحسبون عرورا أنهم الناس ومن عداهم أمم ، وأن الحبة لهم دون الناس جميعا لأنهم أبناء إبراهيم :

— يا أولاد الأفاعي من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصعوا ثمارا تليق بالتوبة ، ولا تفكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أباً ، لأنى قول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم ، والآل وصعت الفأس على أصل الشجرة ، فكل شجرة لا تثمر ثمارا جيدا تقطع وتلقى فى النار .

الناصره غارقة في الصمت تطوف بها الأحلام ، راح الناس في نوم عميق وهجعت نجوم السماء وكانت ليلة لم يزرع فيها نجم ، وفي ذلك الصمت والحلال كانت مريم فائمة تصلى لله ، فابنها خرج إلى يحيى بن زكريا الذي بعثه الله بشيرا بمدكوت السماء ، وتقضت أيام وليالي وأسابيع ولم يرجع عيسى إليها ، كان اليقين يملؤها أن أواد بعث ابنها قد آن ، ولكن تلك الغيبة أقلقته ، إنها لم تفارقه منذ وضعته ، وإنها لتذكر مرارة الأيام الثلاثة التي فقدته فيها وهو جالس في الهيكل بين العلماء وإنها لترجو أوبته ليعود إليها الاطمئنان .

كاس العيون غافلة إلا عيني مريم في بيتها الراقد في تواضع عند أقدام التلال ، وعيسى عيسى وهو فوق الجبل قد تعلقتا بالرجاء .

وتوافدت إلى رأس عيسى الأفكار ، إلى أين يذهب بعد أن بعثه الله رسولا إلى بني إسرائيل ؟ أذهب إلى الناصرة تلك القرية المغمورة في الجليل وينطلق يدعو الناس إلى عبادة الله ؟ أيقوم بين الناس داعيا إلى الهدى وما قام بينهم واعظا قبل الآن ؟ ونبتت في جوفه رهبة ولكن ما كان له بعد أن أبده الله بروح القدس أن يخاف .

وقفزت إلى رأسه صورة يحيى وهو في مدرعة الشعر ناحلا من التقشف والوجد ، يعظ قومه لا يهاب أحدا ولا يخشى بطشا ، ينزل القوارع بالفريسيين ويهاجم دولة المال ؛ فأمدته تلك للشاهد بقوة وعزم ، فأتضح الطريق أمام عينيه . سيجوب المدن اليهودية داعيا إلى الرشاد موطدا النفس على

احتمال الأذى والعذاب ، فما أحلى الاصطهاد في سبيل الله .
وسار في ذلك الفضاء العريض يحس كأنما مئىء عما وحكمة ، فالصحراء
والحجارة والسماء تمدّه بألوان جديدة من التفكير . وذلك الانطلاق في
الفلوات لم يعد عزلة وانقطاعا بل صار مؤاسة ، فما كان في تلك المقاور
وحده بل كان فيها مع الله .
وفي الطريق لاحت له أرباض مدينة فيمم شطرها ودخلها ليدعو أهلها إلى
المصالح ، وألقى الناس في السوق عاديى رائحين فاعتلى مكانا عاليا وراح
يقول :

— يا بنى إسرائيل ، يا بنى إسرائيل .

فاجتمع الناس إليه يصغون فقال :

— يا بنى إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم . إنه من يشرك بالله فقد حرم الله
عليه الحنة ومأواه النار ، وما لظالمين من أنصار .

فارتفعت أصوات تسألّه :

— من أنت ؟

— إني رسول الله إليكم .

— وما أدرانا أنك رسول ؟

— جئتكم بآية من ربكم .

— وما هي ؟

— أنى أخلق لكم من الطين كهية الطير ، فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن
الله .

وأخذ عيسى قطعة من الطين وشكلها على هيئة الطير ، ثم نفخ في الطين
فهدبت الروح فيه ، وطار في الجو وعيون الناس معلقة به . وعقد الدهش

ألستهم ولاحت الحيرة في وجوههم وظلوا في دهول حتى سرى همس :
— هذا سحر .

وأفاقوا من دهشتهم فقالوا في تأكيد :
— إن هذا إلا سحر مبين .

وانفضوا من حوله وتركوه وحده ، واتعد عنهم رويدا رويدا وهو
حزين ، إنه يدعوهم إلى النجاة فيعرضون عنه ولو أنه دعاهم إلى الضلال
لأقبلوا إليه يتسابقون .

وأطرق يفكر فيما كان ؛ إنه دعا الناس فجاءوا يصعرون إليه وتركوه يبلغ
رسالات ربه ، فإذا كانوا لم يؤمنوا بما دعا إليه ولم يصدقوه فسيأتى يوم
يسارعون إليه وقلوبهم عامرة باليقين ، فرأى أن يعتصم بالصبر فالصبر من عزم
الأمور .

وغابت الشمس وراحت تخفى وراء تلال الناصرة، فبدت أشجار التين
والزيتون نابتة في الشفق كأنما لصقت على لوحة في لون العقيق ، فحقق قلبه
وأعد السير فقد أحس شوقا إلى أمه في أن يفضى إليها باصطفاء الله إياه ويعنه
رسولا إلى بنى إسرائيل .

واساب في طرقات الناصرة وقد سيطر السكون وبشر انجيل ألوته ،
ودلف إلى فلما رآته مريم هرعت إليه تضمه إلى صدرها في حنان ، وجلسا في
جوف الليل يتناجيان وقال لها فيما قال :

— وفيما أنا في صلاتي وابتهاى فوق الجبل سقط من السماء نور باهر ،
وإذا بمجربيل الأمين يجبرني أن الله بعثنى رسولا إلى بنى إسرائيل .

وغادر الناصرة وسار صوب الحليل ، واحترق الوادى الزاهر ومس ذنبه
خريف الماء كتسييح الملائكة ، ومس الحمال المكان بيده الساحرة فبدت

الحقول زاهية ناضرة ، وقامت أشجار سامقة شاخضة ، وامتدت الكروم رائعة تسر العيون ، وغردت الطيور وبدأت البحيرة على هيئة قلب ممد من قوارير ررقاء صافية .

ولاحت على شاطئ البحيرة العربي الجبال الخضر ، وامتدت على الشاطئ الشرقى الصحراء القاحلة الماحلة ، ومد بصره أمامه فرأى الجبال العالية تتوجها الثلوج الناصعة ، وسقطت أشعة الشمس عليها فبدت كمرمر مصفى .

وشيدت على الشاطئ الغربى مدن وقرى . مدن يؤمها يهود وسوريون ورومان وصيادو أسماك ، فهي محاط للقوافل الذاهبة إلى الأردن ومصر وسورية ، وكانت فى هذه المنطقة طبرية العاصمة التى شيدها أنتىاس وسماها بذلك الاسم متملقا للإمبراطور الرومانى طياروس ، فلا غرو والتلق ديدنه أن يطلق على المدينة التى يسبحا اسم العاهل الذى يستمد منه السلطان ، فقد سمى من قبل مدينته قيصرية إرصاء لإمبراطوره السابق أغسطس قيصر .

ووقف على الشاطئ البحيرة ينظر ، وهب النسيم يعايب الماء قطعا الزبد على سطح البحيرة كالحبيب ، وأقبلت مراكب الصيادين تتهاذى ووضحت أصوات المخاديف ، وراحت الشمس تبعث إلى الأرض آخر أنفاسها وتصيغ الشفق بالذهب إيذانا بانتهاء يوم العمل .

واردحم الشاطئ بالناس فقام عيسى يعطهم ويدعوهم إلى الله ، وإن دعوته تمتاز بالحرارة والإيمان ، كان فى براته قوة وفى صوته صدق وكلماته تندفق من القلب لتصب فى القلب ، فأحسوا نحوه انجذابا وإعجابا ، ولكن ذلك الإعجاب لم يكن ليجعلهم يصدقونه لأول وهلة .

وبين هؤلاء الحموع وقف صيادان بصعبيان ، كان للكلام وقع السحر فى

أنفسهما ، خيل إليهما أنه يدعوهما وحدهما ، فتفتحت له قلوبهما وتعلقت به
أبصارهما وأرقيق في جوفهما نور ، فقد أوحى الله إليهما أن آما لي وبرسولي
فآما به وصدقاه .

وانقص الناس من حوله وسار ، وسار في أثره أندراوس ويوحنا ، وسمع
وقع أقدامهما فالتفت إليهما وقال في رقة :

— ماذا تطلبان ؟

كانا يطلبان الهدى والرشاد ، ولكن أرتج عندهما فقالا .

— أين تسكن ؟

لم يكن له دار ، جاء يدعو إلى الله ويام في المصء في حراسة الله فقال
لهما :

— تعاليا وانظرا .

وحلسا يصغيان إليه وهو يدعوهما إلى الله فأحسا سعادة ، فكل كلمة
ينطقها تمس شعاف الفؤاد ، وظلوا في مناجاة حتى تصرم الليل فانصرف
أندراوس ويوحنا بعد أن شهدا أن عيسى رسول الله .

وذهب أندراوس يقب عن أخيه سمعان ليشره بظهور نبي بعثه الله رسولا
إلى بني إسرائيل ، وترقب يوحنا عودة أخيه يعقوب ليخبره أن عيسى هو
الأممل المرتقب الذي ينتظره اليهود .

وأقل سمعان وقد شرح الله قلبه للإيمان ، فما تحدث إليه عيسى حتى آمن
بالله وبرسوله .

ووفد شائيل إلى الخليل وكان رجلا صالحا ، عدهب إلى شجرة التين وراح
يصلي وعيسى يرصده من بعيد . قرأ « الكريشما » وهي خدمة الصلاة
اليومية في خشوع وابتهل إلى الله من قلبه ، ف شعر بروحه تتفتح وبالدينا حوله

تزهو كأنما رد إليها شامها وسرى فيها روح مقدس .

ودهب عيسى إلى البحيرة وصادف شابا صيادا فوقف يحادثه قليلا ، ثم قال له في رقة :

— اتبعنى .

فترك فيبس شباكها ومركبه وتبع عيسى كطبه ، فما كان له أن يفارقه بعد أن أوحى الله إليه الإيمان به والتصديق برسالته .

« واعتزل عيسى هؤلاء الصيادين الذين اتبعوه وراح يصلى لله ويناجيه فتشف روحه ويتمكن من قلبه إيمان عميق ، وانطلق فيلبس يبحث عن صديقه ثنائيل فلما قابله قال له في حماسه :

— إن الذى كتب عنه موسى فى التاموس والأنبياء قد وجدناه .

— عمن تتحدث ؟

— عى السى الحديد .

— أين وجدته ؟

— هنا فى الجليل .

— ومن هو ؟

— عيسى بن مريم من الناصرة .

فقال ثنائيل فى استعجاب :

— من أين ؟

— من الناصرة .

فقال ثنائيل وعلى فمه بسمه هازئة :

— أخرج من الناصرة شىء صالح ؟!

كانت الناصرة حقيرة فى الحبل أهله فقراء فى العلم والمال ، لا يخرج منها

إلا نحارون وقرويون بسطاء يتعلمون ولا يعلمون ، فمن أين جاء هذا
الناصرى بمواعظه التى يتحدث عنها فيلبس ؟

أصغى شائيل إلى فيلبس فى عجب فكل ما يقوله عجيب ، حتى فيلبس
لاح فى عيسى صديقه عجيبا ، لم يعرفه متدقعا فى حديثه كما هو شأنه اليوم ،
ما كانت له حرارة الكلمات التى تخرج فى قوة من بين شفثيه وما قال له : تعال
وانظر حتى ألقى نفسه يذهب معه وهو مأخوذ .

وجاء إلى عيسى فرنا إلى ثنائيل وقد أشرق وجهه بالبور وقال :

— ها هو ذا إسرائيل لا عيش فيه .

فعجب ثنائيل وقال له :

— من أين تعرفنى ؟

— رأيتك وأنت تحت التبة قبل أن يدعوك فيلبس .

وأصغى ثنائيل إليه مشرّح الصدر ، فأحس كأنما يلسم مس روحه
وكان صوتا آتيا من السماء يدعوه إلى الإيمان والتصديق ، فقال فى انفعال .

— أشهد أنك رسول الله .

وهجر لصيادون شبّاكهم ووهبوا أنفسهم لله ، وذهبوا مع عيسى
ليعاونوه فى أداء رسالته ، ويلقوا شبّاك الإيمان على قلوب من أراد الله لهم الهدى
والرشاد « وإذ أوحيت إلى الخواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد
بأننا مسلمون » .

انطلق هيرود أنتيباس إلى عاصمته الجديدة طرية ، فهو حاكم الخليل وقد كان أمله أن يرفع عاصمته ليجعلها قطعة من روما ، فجعل فيها الملاعب وأحواض السباحة والمسارح والملاهي وبث فيها الحدائق ، وراح يشاهد مصارعة الرجال للأسود ، فهو يقنص آثار أبيه هيرود الكبير في التقرب من روما وفي خضوعه لنزواته وشهواته . ولما كان معجبا بأبيه فقد راح يستمد منه حية ويحاكيه .

وكان يظهر لليهود أنه من حماة الشريعة المخلصين ، فإذا ما جاءت الأيام المقدسة ذهب حاشعا إلى الهيكل بأورشليم يقدم أنفس الضحايا والقرايين ، فإذا ما ضاق بالتظاهر بالتقوى والدين ترك قصره وذهب إلى قبة ماكيروس القائمة على تل عال يطل على صحراء البتراء عاصمة النبط المنيع ، وهناك يتحرر من قيوده ويعيش لشهواته ونزواته وهو آمن أن يطلع عليه أحد من اليهود ، فهذه القلعة قائمة في أرض سيلون وكانت مدينة عامرة دمرها الله تخطئة أهلها ، وما كان اليهود يدخلون أرضا حث عبيها لعة السماء .

كان يتظاهر لليهود بتقواه وإن كان في قرارة نفسه يشتهي أن يكون في هيئة روماني أصيل ، يتكلم اليونانية واللاتينية ويرتدى ثياب الأسياد ويقوم مثلهم بالخفلات ويتحد لنفسه بلاط من الفلاسفة والعلماء ورجال الفنون ، ولكن سحته وعيبه السوداء والذين ورثهما عن أمه البطية تفصح له أنه رجل شرقي ثابت في لفحة الصحراء .

وتأهب للحروح إلى روما لمقابلة طيباروس إمبراطور الرومان يقدم له
فروض الولاء ، وقبل أن يخرج جاء إليه رسل السنهريين الذين بعثهم إلى
الأردن ليروا ذلك الصوت المبعث في البرية يبشر الناس بقرب ملكوت
السماء وقالوا له :

— إن ذلك الرجل يقتل الناس ودعواه تهدد الأمن العام ، فهو يبشرهم
بنى حديد يستل الملوك من عروشهم ويحضهم على الثورة على المال
والسلطان .

وفكر هيرود أنتيباس في ذلك النثر الحديد فهاجت وساوسه وحشى إن
سافر وهو طليق أن يقلب القوم عليه ، فإذا عاد وجدته قد أفسد الناس ، فأمر
جنوده أن يقبضوا عليه وأن يسجنوه في قلعة ماكبيروس .

وابطلق جنود هيرود أنتيباس إلى الأردن وألقوا القبض على يحيى الذى
يبشر بملكوت الله ، وانفص الناس من حوله ليجمعوا في جبال السامرة
معين سحقهم على ما حاق ببيهم الذى أحبوه وآمنوا به ووجدوا فيه المبشر
بالخلاص .

لم تكن السامرة تحت حكم أنتيباس بل كانت تحت حكم بيلاطس ، وكان
بين أنتيباس وبيلاطس حقة ، كان كل منهما ينتظر أن يبدأ أخوه بزيارته بعد
أن عين حاكما على ولايته فكل منهما يحسب نفسه أعظم شأنًا من أخيه ، ولم
تقع الزيارة المرتقبة تغيرت النفوس وحل الخفاء .

بعث بيلاطس جنوده إلى النافرين اللائذين بالحال وقتل بعضهم وفرق
شدهم ، ولكنه كان يحشى أن يعود الناس للثورة فأرسل إلى أنتيباس ليرى رأيه
في ذلك الرجل الذى سجنه والذى تعلقت به قلوب المؤمنين المتعصين .

وشغل أنتيباس هيرود بذلك السجين الذى لا يملك من دياه إلا مدرعة من

وبر الحمل ومطقة من جند ويا ايزلر به عروش الطعنة ، فلو أطلق سراحه
لجمع قلوب المتعصبين حوله وهدد ملكه بالروال ، وإذا أبقاه في سجنه أو عر
صدور الناس ، فرأى ألا يشتط وأن يدع للصدور اعثرة بالحماسة مفعد ،
فصرح بأن يرور بجي حواريوه وأن يعث إلى الشعب من سجنه بما يشاء
وأقبل يوم نسمر إلى روما فعذت روحته ابنة هرثمة الرابع ملك النسط
تودعه فودعها في قور ، ثم انطلق للقاء سيده تداعه آمال عراض . كان عبادة
الثاني قد هلك وولى أمر انسط من بعده هرثمة الرابع ، وقد تروح أنتيياس
هيرود ابنته ليقوى مركزه هذه المصاهرة .

وبرل هيرود الصعير على الإمبراطور طيباروس صيما عزيزا ، وفكر وهو
في روما أن يزور أحاه فيلس الذي حرمه هيرود الكبير من الميراث فعاش
في روما عيشة الرومان . دخل هيرود الصعير على أخيه فيلبس فأعجبه
هيروديا روح أخيه ، كانت رائحة احسن أندى من البدى وأنصر من أرهار
الربيع ، وكانت هيروديا معامرة تهفو إلى أن يرين ناح الملك حبيها ، فراحت
تلاقى هيرود في عملة من العيوب ، وملك حبه لها حواسه عزيز ها في بحوى
الهرب معه فقالت :

— ورجتك ؟

— أصلقها .

ما أيسرها من كلمه في بيت هيرود ، فهيرود الكبير طلق وتروح مرات
ومرات حتى إن رجال الدين صاقوا بذلك ورفعوا إليه أنهم يخشون ثورة
الناس . وكان هيرود أنتيياس سر أليه لا يجد في طلاق زوجه أى إثم مادام ذلك
الطلاق يمكنه من إرضاء بروات وإطعام شهواته .

وفي عملة من فيلبس الأخ المخدوع والمصيف الكريم فر هيرود وهيروديا

وانتهى سالومي الصغيرة الحميلة ونزلت هيروديا القصر الرائع في طبرية . ولم تختم الروحة العربية ابنة هرثمة الرابع ملك البطر العار الذي لحق بها من جراء فعة هيروود الطائشة ، فالتحست من روحها الاعتكاف في قلعة ماكيروس حتى نهأ عيرتها ، فسمح لها ليحويه وجه هيروديا الساحرة .

امتثلت ابنة هرثمة الرابع حقدا ، مما بغت قلعة ماكيروس وأشرفت على البتراء عاصمة ملك أبيها حتى فاض عصبها وتلوت من الطعنة لمسمومه التي سددها لكبريائها ، ورأت أن لن تطفئ تلك الوقدة التي أحجها في أحشائها قبل أن تشعل مدكه نارا ، ففرت إلى البتراء لتصرم نار العداوة في قلب أبيها هرثمة الذي ثار للإهانة التي ألحقها أنتيباس بابته التي يحبها ، ستكلف هذه الإهانة اليهود غالبا .

وتروح أنتيباس هيروود من هيروديا زوج أحيه فيليس ، وفيليس حي في روما لم يطلق روحه ، وعصب الشعب لذلك الروح ولكن غضبه لم يبيع القصر الصاحب بالوقوف الرومانية والعلماء والفلاسفة والمثدين والراقصين والوافدين من روما ليرىوا بلاط هيروديا .

وضاق هيروود اصغير بالحملات والرسميات ، وأحس رغبة في أن ينحدر من قيود اللياقة والتظاهر بالمدينة ، فالوحش الفايح في أعواره يبح عليه أن يلبو في صورته الحقيقية ، فدعا هيروديا إلى قصره بقلعة ماكيروس بعيدا عن أعين القريبيين المترمتين ، وإن كان يتظاهر أمام شعبه أنه من شيعتهم وأنه مثلهم بتمسك بحرفية الشريعة الموسوية .

وبلعا القلعة وأطبت هيروديا منها ، إنها شاهقة تطل على الصحراء المترامية ، كاس كحارس ساهر على حدود الحبل الماصة بين هيروود الصغير وصهره هرثمة الرابع ملك البطر وقد وقعت العداوة بينهما ، فمد يسعى لذلك

الحارس أن يتام .

وراحت هيروديا تجوس خلال القلعة فصك أذنيها صوت يحيى : « تورا
فقد اقترب ملكوت السماء » ، فعادت إلى هيرود والتفتت منه أن تصغى إلى
ذلك الرجل الذى أغلقت دونه الأبواب .

وتمدد هيرود في فراشه الوثير ووقفت هيروديا خلف الستارة وجاء الحراس
بيحيى ، فلم تهره الطافس الرائعة ولا الستائر الفاخرة ولا الحرير الذى
يعوص فيه الملك ، وقال فى قوة :

— اهر هذه المرأة .

— لماذا ؟

— إنها لا تحل لك .

ولم يجد هيرود ما يقوله فأشار للحمود أن يأخذوه وأطرق مهموما ،
وحررت هيروديا من وراء الستائر وذهبت إليه بتطاير شرر العصب من عسيها
وهتفت :

— كيف سمحت به أن يطبق بما يطق به ؟ مرهم أن يقتلوه .

وبكى هيرود الصغير لم يفعل شيئا . كان فى أعماقه يباهه ويخاف أن يمد إليه
يد السوء ، إذا قتله تار الناس عليه وحلت عليه لعنة السماء .

وعاد يحيى إلى سجنه وبذرت بدور الحقد والكراهية والمقت فى صدر
هيروديا . ومرت الأيام ورأى أنطياس هيرود أن يحتفل بعيد ميلاده فى قلعة
ماكيرس ومحاكيا ساداته من الأباطرة الرومانيين ، فدب الشاطئ فى القلعة
ووفد أصدقائه من الرومان ورجال البلاط وعظماء ولايته ورجال الدين
الرسميين الذين كانوا صالعين معه فى خداع الشعب والظهور أمامه بالتقى
والصلاح .

كانت تلك القفعة مسارح للهو والعبث والانطلاق ، يختلس فيها هيرود
البدعة بعيدا عن رقابة شعبه الذى لا حديث له إلا الخرام والحلال . وكانت
سجما رهيبا للثوار الخارجين على السطان ولالأسياء ، كانت كامرأة ذات وجه
بسام وقلب مظلم رهيب لا يشرق فيه بصيص من نور الرحمة ، ولا تعرف
الشفقة إليه سيلا .

وذهب هيرود وهيروديا وبطانتها إلى القلعة يستقبلون الروار . وأتى
المساء وأصيبت المشاعل في القاعة العليا المقامة على أعمدة من رخام . وبدت
في الشرفة الصحراء المترامية في سكوبها والسماء المريبة بمصاييحها والبحر
الميت يعكس أضواء النجوم المتلألئة ، ومدت الموائد وتكدست فوقها
صحاف لفصة وأواني الذهب ملئت بالماكل وانفواكه والشراب .

ووفد المدعوون : الرومان والأمراء وأعيان الخليل ورجال الديس
السائرون في ركاب السطان ، وتحلقوا حول الموائد وامتألت ابطلون وبعثت
الحمر بالزعوس وجاءت الراقصات يرقصن وهن شبه عاريات رقصات حليلة
ماجنة .

وكانت هيروديا إلى جوار هيرود تعابث ابنتها سالومي وكانت رائعة الحسن
كرنيقة ببت في الصحراء . ونظر هيرود إليها وقهرت إلى رأسه فكرة : لماذا
لا ترقص سالومي في عيد ميلاده وقد ذاعت شهرتها كراقصة مبدعة حتى
قرعت أبواب القياصرة في روما ؟

فمال هيرود على سالومي وقال :

— ارقصى لى يا سالومي .

— لا أشعر برغبة في الرقص .

— إذا رقصت لى أعطيتك ما تشائين .

— حقا ؟

— أقسم لك يا سالومي ما سألتني شيئا إلا أعطيتك .

وقامت سالومي ورقصت في حقة الطيف وتشت كأفعى وهيروديا ترقبها وقد بيتت في رأسها أفكار شريرة ، وحبست الأنفاس سالومي ترقص في حرارة كأنما تندفق في عروقها الزئران تميل فتميل معها القلوب ، وما انتهت من رقصتها حتى هرعَت إلى هيروود وحنَّت رأسها أمامه فقال لها في انشراح :
— انتهضي لأمنحك ما تطلين .

وهبست والتفتت إلى أمها فهمست أمها في أذنها : « أطلبني رأس يحيى » . فذهبت إلى هيروود فقال لها :

— هيه ، ماذا تطلين ؟

— هدية في طست من فضة .

— هدية في طست من فضة ؟ وما هذه ؟

— رأس يحيى .

فأربد وجه هيروود وطارَت الخمر من رأسه فصحا من سكره وقال في فزع :

— لا .. لا .. غير هذا يا سالومي .

— أريد رأس يحيى .

— لا .. لا .. إنه رجل صالح ، غير هذا يا سالومي .. اسألي نصف مملكتي ..

فقالت هيروديا في إصرار :

— لقد أقسمت .

وأيدها أصدقائها الرومان والرهبان الوالعود في الإثم والعدوان .

— أقسمت قسماً عظيماً فير يقسمك .

و ثارت فيه بريرته فلم يشأ أن يحث أمام مدعويه في قسمه ولو كان احث
أشرف من سمك دم برىء . فقال في صوب حافت .
— أعطوها ما طلبت .

وهبط الحوود إلى القلعة ، وساد القاعة صمت ووجوم ، وانقشعت
النشوة وحل قبح ورهة ، وردا بالحوود يعودون يحملون طستا من فضة فوقه
رأس يحيى ، وتناولت سالومي الطست وعبون الفزع ترمقها ، ودهست إلى
أمتها تقدم لها رأس من سبها ومرغها في العار .

ذبح يحيى ، ذبح من قال عيسى عنه لم تلد النساء مثله ، ذبح وما اقترف
إثماً ولا خطيئة ، ذبح طاهر الدليل العميف ، ولو كانت دعوى الفداء حقاً وأن
الله يريد فداء عن خطيئة آدم الموروثة ، ولو كان الآباء يكفرون عن خطايا
الآباء لكان ذلك الدم الطاهر الذى أهدر بلا حريرة أركى دم يقدم للعناء ،
وخير كفارة عن خطيئة آدم . ولكن ما كان الله ليأخذ الآباء بجريرة الآباء ،
فقد قرر في التوراة أن النفس التى تحطى تموت ، الابن لا يحمل من إثم الأب ،
والأب لا يحمل من إثم الابن ، بر البار عليه يكون وشر الشرير عليه يكون .
و قرر أن الآباء لا يقتلون عن الأبناء ولا يقتل الأبناء عن الآباء ، كل إنسان
بخطيئته يقتل .

إن الله عادل . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فإنما يضل عبثاً
ولا تزر وازرة ورر أخرى . وقد كتب الله على نفسه الرحمة ، فإذا كان آدم
أحطاً فقد نال جزاء خطيئته ، طرد من الجنة وهبط إلى ديبا الشقاء وراح
يستغفر الله ويلدرف دموع الندم ، وما كان الله يعفر الذنوب جميعاً فقد عفا عن
زلة عبده . «تلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم» .

راح الفريسيون المترمون ينطلقون في طرقات أورشليم يتحسسون على الناس ليتحققوا أن كل شيء نظيف وطاهر كما تقضى الشريعة الموسوية ، ومع ذلك لم تزكم أنوفهم رائحة روث الثيران والغنم التي تكدست في هيكل سديمان ، فجار الثيران والأغنام من الأغنياء وما كانت أخطاء الأعياء تثير ثائرة الفريسيين ، حتى هليل وشمائ وكبار رجال الدين لم يجدوا في قذارة الهيكل ما يخذش قدسيته وجلاله !

وفي طرقات أورشليم تدفق الحجاج : المصريون في ثيابهم امرعونية والسوريون في أرديتهم الوطنية والأغنياء في ثيابهم الغالية والفقراء في أسمالهم البالية ، والجوود الرومان في عدو ورواح يطرون إلى البحر الملاطم من الأحناس المتبائنة جامعا يقدمون خشوعهم ليهوه إله إسرائيل .

ووفد حجاج الحليل : النساء محجبات على ظهور الحمير والبغال ، والرجال بلحاهم الطويلة يسيرون جماعات ، والصبيان يلعبون في مرج ، وير تلك النسوة كانت مريم . إياها في كل فصيح تذهب إلى الهيكل المقدس ، الإيمان العميق يسكن فيها . أما في هذا الفصح فقد دحست المدينة المقدسة وقلها في خوفها يخفق كجناح حمامة ، الرهبة تكتنفها والقلق يسرى فيها ، فقد كانت تعلم أن ابنها قادم إلى أورشليم ليعرض نفسه على الناس ويطلب منهم أن يؤمنوا به ويصدقوه .

ودلف عيسى إلى الهيكل فإذا بالتجار يحتلون رواق الأعم ، وإذا الثيران

وانغمم تملأ المكان ، فراح يطرد الثيران والغنم ثم ذهب إلى تجار الحمام وقال لهم بصوت آمر :

— ارفعوا هذا من هنا .

فأذعن التجار وحملوا أقفاصهم وخرجوا فقد كانوا في أعماقهم يشعرون أنهم مخطئون فما كان الحرم مكان بيع وشراء . وذهب إلى موائد الصيافة وقلبها ولم يحتج الصيافة على ذلك الذي لم يدروا يأى سلطان يطردهم فقد كانوا مشغولين بجمع أموالهم .

ودخل عيسى إلى الهيكل يصلى واندفع الناس خلفه ، فلما أتم صلاته دنا منه رجل وقال له :

— إن الشعب يحب أن يسمعك .

وراح عيسى يعظ الناس ، واشتد على الشعب لأهم نسوا أوامر الله ، وعنف الكهنة لحشعهم ، ووبخ الكتبة الذين تركوا التعاليم الصحيحة وراحوا يعلمون الناس تعاليم باطللة زائفة .

وأثرت موعظته في الناس فجرت دموعهم على حدودهم واهمرت دموع مريم ، واستشعر الشعب رهبة وأحسوا الله في أنفسهم فقد كانت موعظته قوية تمس أوتار القلوب ، أما الفريسيون والكتبة والكهنة فامتألوا وعطفا وتحركت بعضاؤهم فقد نال منهم على ملأ من الحجاج ، بيد أنهم كتموا ما في قلوبهم خشية من ثورة الناس إذا مسوه بسوء . وكان أعضاء السهديرين حاضرين يسمعون محققوا عليه إلا نيقوديموس فقد كان لكلامه وقع حميل في نفسه .

كان نيقوديموس غنيا حكيما وثالث عصفو في السهديرين ، المجمع المقدس ، فقد أثرت فيه دعوة عيسى فأحس رغبة في أن يصعى إليه ، ولما كان

علما جليلا حشى أن يخلص إلى جليل فقير أمام الناس يتلقى منه علما وحكمة .

وتريث حتى إذا أقبل الليل حرح مسترا بالظلام ، وجاء إلى عيسى فألقاه يسير ملكوت الله كما كان يحكى يسير به ويقولون : « توبوا فقد اقترب ملكوت السموات » وما قام ثالث رجل في السهدين من عبده إلا وقد شهد أن لا إله إلا الله وأن عيسى عبده ورسوله .

ورأى عيسى أب يعادر أورشلیم معقل الكنة والمريسين المرائين وأن يذهب إلى الجليل يسير الناس باقتراب ملكوت السماء ، فإذا كثر تابعوه ومؤيدوه جاء إليهم عرير الخاب يباوئهم في معقهم تظاهره قوة تعاونه على إصهار الحق المين .

وهبط من اتلال العالية التي شبت فوقها أورشلیم يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا ويعقوب وغيبس وصديقه برنوبو ماوس الإسرائيلى الذى لا عش فيه ، وانطبقوا مع الطريق حتى خرجوا من اليهودية ووقفوا على حدود السامرة ، وأراد الحواريون أن يدوروا حولها فما كان اليهود يدخلوها فهم يحتقرون السامريين ويصعوبهم في مصاف الوثنيين لأنهم يعتنقون مذهب عاريزيم ، ذلك المذهب الذى لا يعترف إلا بالإصحاحات الخمسة التى نزلت على موسى ، أما ما بعد موسى من مرامير وأناشيد وقصص إستر ومردحاي فلا يعترفون به ، فالتوراة نزلت على موسى وكل ما بعد موسى إن هو إلا تاريخ بى إسرائيل واليهود .

كان اليهود يعصوبهم من سويداء قلوبهم ويحدون وررا في محادثتهم ، حتى إذا سقط ظل سامرى على واحد منهم أوجب ذلك التطهر من الجس الذى حل به وقالوا : « إن قطعة الخبز التى تأكلها من سامرى هى قطعة من لحم

الخنزير .

ولم يلتفت عيسى لتلك الأوهام فقد كان يدعو إلى الإسلام الذي دعا إليه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وموسى وداود وسليمان ، ذلك الدين الذي لا يفرق بين بني إسرائيل وسائر الأمم ، ولا بين اليهود والسامريين ، فقد كان عيسى يعلم أن الناس جميعاً لآدم وآدم من تراب ، فراح يخرق السامرة والحواريون معه حتى إذا ما بلغ شكيم (نابلس) راح يبحث عن مكان يستريح فيه ، فألقى بثر يعقوب تظللها أشجار التين فانتقل إليها بينما ذهب الحواريون إلى المدينة يشترون طعاماً .

ونظر عيسى أمامه فرأى معبد السامرة وقد شيد على أحبل ليساس أورشليم . ففي ذلك المكان سجد إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب لله رب العالمين ، وجاءت امرأة سامرية تملأ جرتها فقال لها :
— اسقني .

عجبت السامرية لذلك الطلب وترجمت عن عجبها بقولها :
— كيف تطلب مني أن أسقيك وأنت يهودي وأنا امرأة سامرية ؟
فقال لها في هدوء :

— لو كنت تعمدين عطية الله ومن هذا الذي يقول لك اسقني ، لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حياً .

فطرت المرأة إلى البئر وقالت في استخفاف :
— يا سيد لا دلو لك والبئر عميقة ، فمن أين لك الماء الحي ؟ لعنك أعظم من أينما يعقوب الذي أعطانا البئر وشرب منها هو وبنيه ومواسيه ؟
فأراد عيسى أن يرفعها من الماديات إلى المعنويات فقال لها :
— كل من يشرب من هذا الماء يعطش ، ولكن من يشرب من الماء الذي

أعطيه أنا فلن يعطش إلى الأبد .

ودار حوار بين عيسى والمرأة ، حوار ألقى ضوءاً على جوانب حياتها فقالت له :

— أنت نبى .

ووقعت عيناها على الهيكل الذى أقامه السامريون فى شكيم فقالت :

— آباءنا سجدوا فى هذا الحبل وأنتم تقولون إن فى أورشليم الموضع الذى ينبغي أن يسجد فيه .

— يا امرأة صدقيني ، إنه تأتى ساعة لا فى هذا الحبل ولا فى أورشليم تسجدون لله ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون أما نحن فنسجد لما نعلم .

وسواء صدقته أم لم تصدقه فقد صدقه الزمان ، وجاء الدين الذى جعل الأرض كلها مسجداً ، والله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله .

فقالت المرأة وقد تأثرت بما قال :

— أعلم أن المسيح يأتى فإذا جاء أخبرنا بكل شيء .

— أنا هو الذى أكلمك .

وجاء التلاميذ فوجدوه يتكلم مع امرأة ، ذلك المعلم الكبير الربى الصادق يخالف ما يقول به الربىون ، فقد كان محرماً أن يتكلم الربى علانية مع امرأة حتى ولو كانت زوجته . ولاح الدهش فى وجوههم فهو لا يتكلم مع سامرية فحسب ، بل يتحدث مع سامرية فاجرة .

وذهبوا إليه وقد كتموا دهشتهم ، وفرت المرأة محملة حرتها وانطلقت إلى المدينة تذيع على الملأ نبأ ذلك النبى الذى كشف لها عن أسرارها . ووضع التلاميذ الطعام أمامه وقالوا له .

— كل .

— أنا لى طعام لستم تعرفونه .

فالتفت الحواريون بعضهم إلى البعض وقالوا :

— لعل أحدا أتاه بشيء يأكله .

فقال لهم عيسى مؤكدا رسالته :

— طعامى أن أعمل مشيئة الذى أرسلنى وأتمم عمله .

وحاء سكان شكيم تقودهم السامرية يتدققون ، وعص هم المكان فراح
يشرهم باقتراب ملكوت السماوات ، فتفتحت قلوبهم له ودعوه أن ينزل
عدهم يومين . فقام عيسى وذهب يحيط به بطرس وأندراوس ويوحنا
ويعقوب وفيلبيس وبرثلوماوس الإسرائيلى الذى لا غش فيه ، ليمضوا يومين
فى ضيافة السامريين أعداء اليهود ، غير آهين لذلك المثل الذى يقول : « إن
قطعة الخنز التى تأكلها مع سامرى هى قطعة من لحم الخنزير » .

انطلق عيسى وحواريوه إلى كفر ناحوم وهي مدينة لصيد الأسماك ومرقاً
لتصدير فائض الحليل من القمح والزيت والصوف والخواكه ، فكان محصل
الضرائب يمارسون أعمالهم ، يزبون كل ما يخرج إلى المراكب ويقدرّون عليه
الرسوم ، وما كانوا تابعين لسلطة واحدة بل كانوا عريقين : فريقاً يجبى
الضرائب للرومان وفريقاً يجمعها لحاكم الولاية ينفقها على أهله وبنواته
وشهواته .

وراح عيسى يقول :

— يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم ، إنه من يشرك بالله فقد حرم
عليه حصه ومأواه النار وما للظالمين من أنصار .

واجتمع الناس يصيحون أسماعهم لسك السى الذى يعظهم ويقول لهم :
— توبوا لأنه اقترّب ملكوت السماوات .

وتعطل العمل في المرقاً ولكن سرعان ما جاء أصحاب الأعمال وصاحوا
بالصيادين والحمالين :

— إن الوعظ ليس في المرقاً بل هناك في الجمع .

انصرف الناس إلى أعمالهم إلا اثنين أحدهما كاتب يعرف التوراة ويعلم
الناس في المجامع ، والآخر محصل ضرائب باع نفسه لرومان ، وتسلم
الكاتب إلى عيسى عارضاً نفسه :

— أتبعك أينما تمضى .

وفي نظرة أحاط عيسى بذلك الكاتب الذي فيه غرور الكتبة فلم يفرح به ولم يقبله تلميذا من تلاميذه ، بل قال له :
— للشعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، أما ابن الإنسان فلا يدري أين يضع رأسه .

إنه في كفر ناحوم يمضي ليله في بيت سمعان ، ولكنه ما كان يمكث في مكان واحد طويلا ، إنه في رحمة دائمة : يوم في أورشليم ويوم في كفر ناحوم ويوم في الناصرة ويوم في غيرها من المدن والقرى اليهودية ، ينام حيث ينام ، وما كان ذلك لكاتب بقادر على أن يعيش هذه الحياة أو يحتمل ذلك التقشف الذي لا يحتمله إلا رجل عميق الإيمان .

وانصرف الكاتب ونظر عيسى فوجد متى يتطبع إليه وفي عينيه صفاء نفسه . وفي لحظة فحصى عن المعدن النفيس ، فذلك الرجل الذي في ثياب عشار اشرح صدره للإيمان ، أوحى الله إليه أن آمن في وبرسولى فأشار له وقال :

— اتعنى .

وخرج عيسى وتلاميذه إلى المدن المتشيرة حول كفر ناحوم يبشر الناس ويقول لهم :

— توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السماء .

وصعد عيسى الجبل وألقى موعظة اجبل :

— طوبى للمساكين بالروح لأنهم ملكوت السموات ، طوبى للحرابي لأنهم يتعززون ، طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض ، طوبى للجوع والعطاش للبر لأنهم يشبعون ، طوبى للرحماء لأنهم يرحمون ، طوبى لأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله ، طوبى لصايعي السلام لأنهم أباء الله يدعون ، طوبى للنمطرودين

من أجل البر لأن لهم ملكوت السماوات .
 ودار حوار طويل به وبين الكتبة والعريسين ، ثم هبط من الجبل وانطلق
 وحده بعيدا عن ضوضاء الناس يستريح ، وما لبث أن جاء إليه حواريوه
 يصلون الله :

أبانا الذى فى السماوات ،
 ليتقدس اسمك ،
 ليأت ملكوتك ،
 لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض ،
 خبزنا كفافنا ، أعطنا اليوم ؛
 اغفر لنا ديوننا كما يغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا ،
 ولا تدخلنا فى تجربة ،
 ولكن نجنا من الشرير ،
 لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد ،
 آمين .

ولم يدع مع الله إلها آخر فى صلاته فقد كان يدعو إلى الإسلام دعوة
 الرسل من قبله ، ولما كان بشيرا باقتراب ملكوت الله فقد راح يردد فى صلاته
 « فليأت ملكوتك » وراح أتباعه يرددونها مع الأيام

« فليأت ملكوتك » ابتهالات تنبعث من قلوب المؤمنين سنوات
 وأجيالا . « فليأت ملكوتك » هى الإنجيل الذى جاء به إلى الأتباع
 والأنصار ، هى البشارة بالسعادة الحقيقية ، ترى متى يأتى ذلك الملكوت ؟
 كان الحواريون لا يدرون متى يأتى ذلك الملكوت ، كان بعضهم يظن أنه
 سيأتى الساعة وأنه حاصر على الأبواب . وأن من الأحياء السامعين من

لا يذوق الموت حتى يرى ابن الإنسان آتيا في ملكوته . وكان آخرون يرون أن المدى بعيد وأن الصابرين إلى المنتهى يتنجسون وينادى ببشارة الملكوت هذه في أنحاء المسكونة شهادة لجميع الأمم .

إن قول عيسى يرد في آذانهم : « أما قرأتم قط في انكتب . الحجر الذي رفضه الساعون هو قد صار رأس الزاوية ^(١) » ، من قِبل الرب كان هذا وهو عجيب في أعيننا ، لذلك أقول لكم : إن ملكوت الله يترع مسكم ويعطي لأمة تعمل ثماره » .

الحجر الذي رفضه البنائون هو قد صار رأس الزاوية ، وقد رفض بنو إسرائيل أن يعترفوا بأن إسماعيل وإسحاق سواء ، قالوا لـ « الحقير إسماعيل إنه ابن الجارية وادعوا أن سارة قالت : ابن الحارية لا يرث مع ابني . ولم يكن ذلك في شرع السماء ، لذلك سيرع ملكوت الله من بني إسرائيل ويعطيه لحفيد ذلك الذي رفضه بنو إسرائيل ، لحفيد إسماعيل صادق الوعد الأمين .

وملكوت السماء لن يكون شهادة لبني إسرائيل ، إنه شهادة للأمم ، والله سيبحث في الأميين رسولا ، يعطيه ملكوت السماوات .

وراح عيسى يضرب الأمثال للناس ولحواريه قال :

— خرج الزارع يزرع زرعه ، وفيما هو يزرع سقط بعض البذور فأكلته

(١) قال محمد ﷺ : « مثي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل يبني بنايا ، فأحسه وأحمله إلا موضع لبنة في راوية من رواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبهم البناء فيقولون . ألا وضعت هاها لبنة فيتم البناء ؟ قال ﷺ . هاها لبنة ، حفت فحتمت الأنبياء » .

رواه أبو هريرة وأبو سعيد وجابر بألفاظ مختلفة . راجع كتاب المصائل ج ٤ صحيح مسلم . طبعة الحلبي .

طيور السماء ، وسقط بعضها على الصخر ، فما نشت جفت لأنها لم تسقى بالماء ، وسقطت بدور وسط لشوك فست معها الشوك وحققها ، وسقطت بدور في الأرض الصالحة فلما نشت أخرجت مائة ضعف .
وصمت قليلا ثم قال :

— من له أذنان لسمع فليسمع .

واستمر عيسى يصرب الأمثال للناس وحواريوه يظرون إليه فاعرى لأفواه لا يفهمون كل ما يقول ، كانوا صيادي أسماك أعفالا لم يتعلموا علما إلا في مدرسته ، لذلك كانوا إذا حلوا به سألوه عن تأويل أمثاله ، فلما تفرقت الجموع وبقي عيسى وحواريوه وحدهم قالوا له :

— ماذا تقصد بمثل الزرع والراعي ؟

— لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت الله ^(١) .

فأصاحوا سمعهم فسيصلى إليهم بأسرار ملكوت الله ذلك الملكوت الذي بشر به يحيى من قبل وجعه عيسى ابتها في الصلاة ، قال :

— الررع هو كلام الله ، والدين على الطريق هم الدين يسمعون ، ثم يأتي إبليس وينزع الكلمة من قلوبهم ، والدين على الصخر هم الدين متى سمعوا يقبلون الكلمة بفرح . وهو ليس لهم أصل فيؤمنون إلى حين وفي وقت التجربة يرتدون . والساقطون بين الشوك هم الدين يسمعون ثم يذهبون فيحتقون من هموم الحياة وعناها ولا يثمرون . أما الدور التي سقطت في الأرض الصيبة همم الدين يسمعون الكلمة فيحفظونها في قلب مؤمن حتى تثمر بالصبر هذا هو سر ملكوت الله الذي بشر به يحيى ويُبشر به ويدعو الله في

صلاته أن يرسله للناس ، ذلك المنكوت الذى شريعته الييضاء « كلام الله » .
وعرفوا أسرار المنكوت ، إنه سينزع من بى إسرائيل ويعطى لأمة تعمل
ثماره وهو للناس كافة ، فهو شهادة لجميع الأمم . ولن يأتى ذلك المنكوت إلا
إذا نزل إلى الأرض كلام الله وسارت شريعته وبنت تعاليمه فى الأرض الطيبة ،
ولن يبال ذلك إلا بالصبر والصبر الطويل .

إنه السراج المنير الذى قال لهم عنه : ليس لأحد يوقد سراجا ويغطيه أو
يضعه تحت السرير ، بل يضعه على سارية ليتهدى الداحلون بالبور .
إن بذرة منكوت الله ستبلى فى أرض طيبة ، فى أمة مؤمنة صالحة . « كنتم
خيرا أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .
ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون » .

رح عيسى يبرئ لأكمه والأبرص ويحيى الموتى بإذن الله ويقول
لحواريه :

— إلى طريق أُم لا تمضوا ، وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا ، بل اذهبوا
بالخري إلى خراف بيت إسرائيل الضالة . وفيما أنتم ذاهبون عظوا قائلين : إنه
قد اقترب ملكوت السماوات .

كان يشرهم بهدف رسالته فهو رسول إلى بني إسرائيل ومبشرا باقتراب
ملكوت الله . واختتم وصيته لهم قائلا :

— من يقبلكم يقبلني ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني ، من يقبل نيا باسم
نبي فأجر نبي يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار فأجر بار يأخذ .

وكانت أورشليم عارقة في المازعات الدينية فكانت المناظرات لا تقطع
بين أتباع هليلس وأتباع شمائي ، وكانت العداوة ناشبة بين الصلوقيين الشعبين
وبين الفريسيين الطوائفين ، وكان بول إسرائيل يرسفون في أغلال هؤلاء الكهنة
راضين فقد ثبتوا في أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والاموس .

راحوا يشعلون الناس بالمخطورات والمحرمات ويقسمونها إلى أقسام
ودرجات ، شمائي في ترمته يمنع في يوم السبت عيادة المريض ، بل يحرم فيه
الدفاع عن النفس وقتل الأعداء وإن جاءوا السلاذ محتلين ، والشيوخ يحرمون
حمل شيء فيه وإن كان إبرة أو كان قطعة من قماش ريت ثوب امرأة ولم تثبت
فيه ، حتى الأساس الصاعية كانت حملا لا يبيع حملة في السبت المقدس .

تطهروا انكشف رياء للناس وتظاهروا بالقوى وحماية الشريعة ، حتى إن فريق « الحياة الدامية » من الفريسيين ينطلقون في الطرقات معمضى العيون لكيلا تقع عيونهم على النساء فيتحيطنون في سيرهم ويرتطمون بالحدران فتسيل دماؤهم على جماهم إرضاء للناموس !

وراح عيسى يحارب ذلك الرياء فساء رجال الدين أن يقوم ذلك السي الحديد بفتح أعين بني إسرائيل فيعرض سلعهم ويقوض صرحهم الذي أقاموه على الخداع ، ويفصح تعاليمهم ويسد مسافذ الخير في وجوههم . فلو قر في أذهان الناس أن الله يقبل التوبة دون دية ودون وساطة الكهان لبارت تجارتهم وذابت قدسياتهم وجف نهر الأموال المتدفق عليهم ، لذلك بعثوا إليه فريسيين متعصين يتجسسون عليه حتى إذا كسر الناموس حاكموه وقتلوه واستراحوا من حظره الذي أرقهم وأطار اليوم من أعينهم .

وأرسل أعضاء اسنهدريين جواسيس يتربصون به ، وبعث إليه هيرود أنتيباس يدعوه أن يأتيه إلى قصره لا يستمع إلى تعاليمه فما كان مهتما إلى تلك التعاليم ، ولكن لأن شبح يحيى الذي يطارده في اليقظة وفي المنام أفرعه وجعله يعتقد أنه قام من الأموات يثار لدمه ، فأراد أن يرى ذلك السي ليسترخ من هواجسه التي تضيقه ، ولكن عيسى لم يستجب لدعوته .

وإطلق عيسى يوم السبت إلى المجمع وكان الصدوقيون والمريسيون في الصفوف الأولى ، وما تقدم عيسى خطوات حتى أسرع إليه براء به حادث وتوسل إليه أن يشفيه ، فقال له :
— اذهب وقم في وسط المجمع .

فذهب الرجل والمريسيون والكهنة يرمقون عيسى في اهتمام يترقبون أن يشفي الرجل فيكون ذلك حجة على تديس السبت ، فالتفت عيسى إلى (العدايايون)

المريسين الشاخين غرورا وقال لهم :

— أيجل في السبت فعل الخير أم فعل الشر ؟ تخلص نفس أم قتلها ؟

لم ينبسوا بكلمة بل ظلوا ينظرون ، فما جاءوا ليناقشوه ويأظروه بل جاءوا يترقبون خطأه ليقبضو عليه ويحملوه إلى السنهدين ، فرماهم بمظرة حادة وقال هم :

— إذا كان لأحدكم خروف وسقط في حفرة في يوم السبت هل يتشله ؟

أغرقوا في الصمت وبقيت أعينهم مثبتة به ، وكظم غيظه وقال :

— إنقاذ إنسان أفضل من إنقاذ خروف ؛ إذا يجل فعل الخير في السيوت

قال للبناء في رفق :

— مد يدك .

فمد الرجل يده فإذا اليد اليابسة تتحرك وعادت سيرتها الأولى ، واتفق أعداؤه على قتله وهما به فألفوه اختفى عن أعينهم .

وقال حواريوه : إنك لأنت المسيح ، فقال لهم : لا تذكروا ذلك لأحد حتى لا يريد في عداوة السنهدين والصدوقيين والمريسين . وجاء العيد واطلق الناس إلى أورشليم وهم يرجون أن يلقوا ذلك البى ، ومرت أيام العيد دون أن يظهر ففرح أعداؤه ، ولكن سرعان ما انقلب سرورهم غما لما رأوه في رواق من أروقة الهيكل يقول :

— تعليمي ليس لى بل للذى أرسلنى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد

نفسه أما الذى يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق .

أعطاكم موسى الختان ، والختان ليس من موسى بل من الآباء ، في السبت تختنون الأولاد فإذا كان الإنسان يقل الختان في السبت لعلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لآنى شفيت إنسانا في السبت ؟ لا تحكموا بالظواهر

احكموا حكما عادلا .

لم آت من نفسي بل أرسلنى الحق الذى لا تعرفونه .
وثار رجال الدين وثار اليهود فهم يعتقدون أنهم أكثر الشعوب معرفة
بالله ، وها هو ذاك القادم من الناصرة يتهمهم بأسم لا يعرفونه ، يتهمهم
بالكفر به ونكرانه .

وهجموا عليه لمسكوه ولكنه احتفى دون أن يروه . فقد كان قادرا على
الإفلات من أيدي الأعداء ، فظهر على وجوههم ذهول فقالوا :
— هذا سحر مبین .

واستمر يقرع رجال الدين ويسخر منهم ، حتى إذا ما هموا بالقبض عليه
كان يجتاز في وسطهم ويمضى دون أن يروه فكانوا يقولون :
— إنه ساحر !

وذهب إلى بيت إليعازر ، إلى بيت من أحياء بأمر الله بعد أن مات ، واتكأ
ليسترخ . ورأته مريم المجدلية فأحضرت قارورة ناردين خالص وأكبت على
رجليه وراحت تدهن قدميه بالطيب فعقق البيت بالروائح الزكية النفاذة .
والثفت الحواريون إلى المجدلية وفي عيونهم شيء من الإنكار فما كان لامرأة أن
تلمس رجلا غريبا ، ورأى يهوذا الأسخريوطى وكان حارن الجماعة أن في
إهراق ذلك الطيب النادر تبذيرا فقال :

— لو بعنا هذا الطيب لحصلنا على ثلاثمائة دينار أنفقناها على الفقراء .

ولمح عيسى ما في وجه المجدلية من انفعال فقال :

— دعوها ، لماذا تتبعونها ؟ لقد أحسنت إلي ، الفقراء معكم في كل حين

أما أنا فلست معكم في كل حين .

واستولى الغضب على يهوذا واستبد به ودارت في رأسه أفكار قائمة

شريرة . وفي طرقات أُورشليم انطلق رجل طويل القامة باحل الجسم أسود العينين تغطي وجهه لحية سوداء صغيرة . من يراه يحسبه عيسى ولكنه لم يكن عيسى بل كان يهودا الأسخريوطى ، وكان في طريقه إلى بيت قيافا رئيس الكهنة .

واستأذن في الدخول فأذنوا له فإذا به في قاعة واسعة ، وجاء رؤساء الكهنة وتحلقوا حول مائدة طويلة ، وراح يهوذا يتحدث وهم يصعون إليه في دهش لا يدرون أيصدقون ما يسمعون أم يتلقون في حذر ؟ جاء يهوذا الأسخريوطى الخوارى الصديق يعرض عليهم أن يسلمهم سيده الذى آمن به وأحبه .

وقامت مشادات بين عيسى وبين الصدوقيين والمريسيين في الهيكل حول البعث ، وكان الصدوقيون كافرين باليوم الآخر بينما كان المريسيون يؤمنون به ، فلما قال عيسى بالبعث فرح قوم وغضب قوم آخرون ، ودنا فريسي منه وسأله :

— ما أعظم وصية في الناموس ؟

— إن أولى الوصايا هي الرب إلهنا رب واحد . وحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك . هذه هي الوصية الأولى . والوصية الثانية هي حب قريبك كنفسك . ليس هناك وصية أخرى أعظم من هاتين .

— نطقنا صدقا لأن الله واحد لا آخر سواه ومحبه من كل القلب ومن كل المم ومن كل النفس وكل القدرة ، ومحبة غيرنا كما يحب نفوسنا هي أفضل من كل الدبائع والقرايين .

فطر عيسى للفريسي في عطف وقال له :
— لست بعيدا عن ملكوت الله .

وانطلق عيسى ومس حوله حواروه وقد أطبق الصمت عليهم . كان عيسى حزينا لتلك العداوة وذلك العناد الیادی من الفريسيين . حاربوه في اليهودية وحاربوه في الحليل حتى من مدينة كفر ناحوم أخرجوه . كانوا يتظاهرون أنهم على استعداد ليصدقوه لو أتاهم بآية من الله لتطمئن قلوبهم ، ولكنهم ما كانوا يصدقونه ولو انفتحت في السماء أبواب وهبطت عليهم مها الملائكة المكرمون ، فقد كان كل ما يرمون إليه أن يشككوا الناس فيه .

وسار حواريه ترن في آذانهم كلماته فيها خلون في التفكير ، فما حدث اليوم في الهيكل هو فراق ما بينه وبينهم ، لن يكون هناك مجال للتوفيق ، كان تقريره للفريسيين قاسيا ، ولولا جموع الحجاج لهجموا عليه وقتلوه . راح يصرح فيهم : « ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون » . « ويل لكم أيها القادة العميان » هتلك رياءهم أمام الناس وتركهم في الهيكل عظاما نحرة . وخرجوا مطرفين ، والتفت أحد تلاميذه إلى الهيكل والشمس ترسل إليه أشعتها فتعكس ذهبيا وهاجا . كان منظرا يملأ النفس روعة فأراد أن يسرى عن نبيه فقال له .

— انظر ، يا لهذه الحجارة وهذه الأبنية !

فقال له عيسى وقد اكفهر وجهه :

— أترى هذه الأبنية العظيمة . ستبقى ولن يبقى حجر على حجر .

وعض يهودا على مواجذه ، فما بال كلمات عيسى تقطر في هذه الأيام مرارة ؟ أجزأ إلى بني إسرائيل بالأمل أم جاءهم بالنقمة والعذاب ؟ ما ذنب الهيكل المقدس حتى يصب عليه لعنته ؟ إذا كان الفريسيون والكتبة رفضوه

فقد ثار في وجوههم وألقمهم أكثر من حجر ؟ وسقط يهوذا فريسة للشك والخيرة والقلق . وراحوا يرقون جبل الزيتون وعلى سفحه جلسوا : عيسى في إطرافه الحزين وحواريوه يجرون وراء أفكارهم وهم يلهثون .

إذ قال الله يا عيسى إني متوفيك ورافعك إلی ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة ، ثم إلی مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون .

واستقر عيسى في بيت مريم وركن إلى الهدوء ولم يخرج إلى الهيكل يدعو الناس إلى ربه ، فتضايق يهوذا وتمنى لو يخرج عيسى إلى قومه وأن يأتي بآية كذلك الآيات التي أتى بها في الجليل لمحو طبقات الشك التي تراكمت في جوفه حتى كادت تنفخ ما في قواده من إيمان ونصديق .

وقفزت إلى رأس يهوذا فكرة ، إذا كان عيسى قد ركن إلى الدعة أو إذا كان قد استسلم لليأس فسيضطره إلى العمل ، سيحرض أعداءه عليه ، سيرشدهم إلى مقره حتى يعود إلى الكفاح ، فالاحتكاك بالأعداء كفيلا بإذكاء روح المقاومة فيه .

سيرشدهم إليه ليخرجه من عزلته ، فقد ينتصر عليهم في العيد وتؤمن به الوهود فيكون ذلك قبس النور الذي يبدد الليل السرمد ، ويمهد الطريق إلى ملك المسيح الدائم ما دامت الأرض والسماء

لو آمن الناس به في العيد لانقشعت عن عيني يهوذا الغشاوة وتبحر الشك والقلق الخائر الجوال في نفسه ، فذلك الإيمان بحى الأمل في إمكان تأسيس مملكة المسيح التي جاءت بها البشارات .

وقام في نفسه اعتراض : إنه يسلم سيده إلى أعدائه إذا أرشدهم إليه وما كان يجب أن يمسه بسوء ، إنه شك فيه وانتابه اقلق ولكن ذلك ما كان يدفعه

إلى تسليمه .

وكاد يعدل عن تلك الفكرة ولكن ذهه أمده بما يؤيده فيما ذهب إليه .
إنه لو أرشدهم إلى عيسى لجدد شباب الدعوة فلا خوف عليه منهم ، فيأطالما
حاولوا أن يمسكوه ولكنه كان يجتاز في وسطهم كالطيف فلن يستطيعوا أن
يمسوه بسوء .

كان يهوذا يتحبط لا يدري حقيقة عواطفه . كان يشك فيقلق ويثور
وكانت تهب عليه نسائم من الإيمان فيثور على ثورته ، فكان قلقا مضطربا كل
ما يبغيه أن يعيد إلى نفسه الطمأنينة والهدوء .

وانسل يهوذا إلى حيث كان الكتبة والمريسون مجتمعين وقعد بينهم يصفى
إلى آرائهم ، كادوا يجمعون على تركه حتى تتفرق الجموع ويعود الحجاج إلى
دورهم ثم ينقصون عليه ويقتلوه ، ولكنه قال لهم : إن خير ما يفعلونه أن
يقبصوا عليه قبل العيد في مكان خلاء بعيدا عن محبيه . وأعجبتهم الفكرة
فوافقوا عليها ، وخرج يهوذا وهو يأمل أن يكون ما فعله هو بداية مملكة المسيح
الدائمة ، بداية النور الذي يفضح ظلام قلبه .

غابت الشمس وراء جبل الزيتون وخرج عيسى وحواريوه إلى المدينة المقدسة ، كانت شوارعها غاصة بحنود الرومان ووفود الحجاج من مصر وسورية وفلسطين فراح عيسى يخترق جموعهم دون أن يعرفه أحد ، كانوا يهرعون إليه إذا قام في الهيكل يدعوه إلى الله أما إذا سار بينهم فما كانوا يميرونه من آلاف الجليليين العادين الرائحين في المدينة

وذلفوا إلى مكان الاجتماع فإذا موائد الفصح مدت ، وإذا الأرائك صفت ، فدهبوا يتكئون فحاول كل من حواريه أن يجلس إلى حور المسيح ، وارتفعت بينهم المشاورات كل منهم يحاول أن يثبت أنه أعظم من رميته ، فراد ذلك الشقاق في حرته فحواريوه لم يفهموه ولم تؤثر فيهم تعاليمه .

جاءته يوما سالومي أم يعقوب ويوحنا تلمس منه أن يسمح لابنتها أن يجلسا معه في ملكوته ، أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، كانت تحسب أن ملكوته عالم كائن فوق السحاب فأرادت لابنتها السلطان . وما جاءت من تلقاء نفسها بل دفعها إلى ذلك أحب حواريه إليه . وهما هم أولاء في ساعاته الأخيرة يتنافسون كأنما يتنازعون ميراث ملك أو سلطان .

وراح عيسى يوصيهم :

— الحق الحق أقول لكم : إنه ليس عبد أعظم من سيده ولا رسول أعظم من مرسله .

الحق الحق أقول لكم : الذي يقبل من أرسلى يقبلني ، والذي يقبلني يقبل

الذى أرسلنى .

وصمت عيسى قليلاً ثم قال :

— أنتم الذين بتم معى فى نجارى سكونون معى فى ملكوت الله ، تأكلون وتشربون على مائدنى وتجلسون على كرسى نديون أسباط إسرائيل الأثنى عشر .

اطمان يهودا إلى أفكاره التى احتلت رأسه فيها هو ذا المسيح بضمن له الجنة ويعده بكرسى يدين سبطاً من أسباط بنى إسرائيل ، فلو كانت تلك الأفكار فاجرة شريرة لحرمة من ملكوت الله ، فقوى ذلك القول عزمه فاستأذن من المسيح فى أن يذهب لقضاء حاجته ، فقال له عيسى :

— ما أنت فاعله افعله سريعاً .

فخرج يهوذا وانطلق إلى الهيكل ليحبر أعداء المسيح عن مكانه ليخرجه من عرلته ، ليقت فيه روح المقاومة والجلاد ، ليجدد شباب الدعوة . انطلق وهو يحس فى أعماقه أن المسيح يبارك خطواته .

وراح المسيح يحاور تلاميذه قال :

— لا تضطرب قلوبكم، أنتم تؤمنون بالله فآمنوا به، فى بيت الله منازل كثيرة، قلب لكم إني ذاهب لأعد لكم مكاناً فإدا مضيت وأعددت لكم مكاناً آتى وأخذكم إلى، فحيث أكون تكونون وحيث أذهب تعلمون الطريق.

فقال له نوما :

— يا سيد لا تعلم أين تذهب ، فكيف نعرف الطريق ؟

— أنا هو الطريق والحق والحياة لا يأتى أحد إلى الله إلا بى ، لو كنتم عرفتمونى لعرفتم الله أيضاً .

قال له فيليس :

— يا سيد أرنا الله وكفانا .

— الذى رآنى فقد رأى الله ، والكلام الذى أكلمكم به لست أتكلّم به من نفسى ولكن يوحىه الله إلى .

إلى أذهب إلى الله ، فإن كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى وأنا أطلب من الله فيعطىكم (فراقليط)^(١) آخر يمكث معكم إلى الأبد ، روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فعرفوه لأنه ماكنث معكم ويكون فيكم .

الذى لا يحبى لا يحفظ كلامى ، والكلام الذى تسمعونّه ليس لى بل لله الذى أرسلنى ، بهذا كلمتكم وأنا معكم ، وأما (الفراقليط) الروح القدس الذى سيرسله فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلت لكم .

قلت لكم أنا ذاهب ثم أعود إليكم ، فلو كنتم تحبوننى كنتم تفرحون لأنى ذاهب إلى الله ، والله أعظم منى .

فقال له سمعان بطرس :

— يا معلم إنى مستعد أن أمضى معك إلى الموت .

فنظر عيسى إليه فى إشفاق وقال له :

— أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم هل أن تكر ثلاث مرات أنك

تعرفنى .

وحدث هرج فى المكان ، حتى فى لحظاته الأخيرة يختلفون فقال لهم :

— قوموا ننطلق من ههنا .

(١) فراقليط : لفظة يونانية ترجحتها جمعية التوراة الأمريكية (بالمعنى) وترجمها الكتاب المسلمون (بأحمد) انظر التذييل .

وخرجوا إلى المدينة التي كانت تحتفل بالعيد ، وراح المسيح يظفر إلى الجموع فتمثل في لحظة كل دعوته ، وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ومشيرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد ، فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين .

لم يشهد قومه له ولم يعترفوا بدعوته ، فالتفت عيسى إلى حواريه وقال : — ومتى جاء (انراقليط) الذي سيرسله الله روح الحق الذي من عند الله يثبت ، فهو يشهد لي وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معي من الابتداء .

وبلغوا جبل الزيتون فقال عيسى :

— هو ذا تأتي ساعة وقد آتت ، الآن تفرقون فيها كل واحد إلى خاصته وتركونني وحدي وأنا لست وحدي لأن الله معي ، قد كلمتكم بهذا ليكون سلام ، سيكون لكم ضيق في العالم ولكن ثقوا أنا قد غلبت العالم .

ورفع عيسى عينه إلى السماء وقال :

— يا رب قد آتت الساعة ، كتبت على أن أشرب هذه الكأس فلنكن مشيتك .

يا رب هذه هي الحياة الأبدية : أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك وعيسى المسيح الذي أرسلته .

الآن علموا أن كل ما أعطيتني هو من عندك . لأن الكلام الذي أعطيتني قد أعطيتهم ، وهم قبلوا وعلموا يقينا أنني خرجت من عندك وأموا أنك أنت الذي أرسلتني . يا رب لم يعرفك العالم أما أنا فقد عرفتك وهؤلاء عرفوا أنك أرسلتني .

ولف الحزن جبل الزيتون فقام عيسى وسار نحو وادي قدرون وسار تلاميذه مطرقين صامتين .

ودخلوا ضيعة وذهب عيسى يصلى لربه ، وسرعان ما نام حواريوه فراح عيسى يتהל إلى الله في صلاته :

— إلهي كبت على أن أشرب هذه الكأس ، فلتكن مشيئتك .
واستمر في دعائه ، ثم جاء حواريه فوجدهم نياما فأيقظهم فقالوا له :
— والله ما ندرى ما لنا ، والله لقد كنا نسمر فنكثر السمر وما نطيق الليلة
ممرأ وما نريد دعاء إلا حيل بينا وبينه .
فقال في أمسى :

— يذهب الراعى وتتفرق الغنم .
وتركهم وما ابتعد ليستأنف صلاته ودعائه حتى ثقلت جفونهم فناموا .
وظل في خشوعه فأرهفت حواسه ومس أذنيه صوت حافت أحد يتضح ، به
وقع أقدام تقترب ، فقام ينظر فإذا أضواء مصابيح ومشاعل ، عمر المكان
الضوء فهب الحواريون من نومهم مرعوبين .
وتقدم الجنود الرومانيون يحملون سيوفهم وحولمهم خدام من عد رؤساء
الكنهنة والقريسيين ، فتقدم المسيح مهم وقال لهم :

— من تصلبون ؟

— عيسى الناصري .

ولم يكونوا يعرفونه ، أرسوا ليقبضوا على رجل لم يروه قبل ليلتهم فقال
لهم عيسى :

— إني أنا هو .

فحق قلب يهوذا في جوفه ، ترى أيقبضون عليه ويقضى ملك المسيح
ويظل هو في شكه وبقه ، أم يمر من بينهم دون أن يلقوا عليه الأيادي ويخرج
من استسلامه ويأسه ويسأف جهاده وكفاحه ، وفي ذلك تجديد شباب
الدعوة التي لم تتفتح براعيمها !؟

رجع الجنود إلى الوراء وسقطوا على الأرض ، فاشرح صدر يهوذا فهو يحس في تلك اللحظة ذلك الظلام الذي تجمع في صدره يفتشع ، وراح الصفاء يغسل روحه ويطهرها .

ونظر عيسى إلى الجنود وهم ينهضون وقال لهم في تحد .

— من تطلبون ؟

— عيسى الناصري .

— قلت لكم إني أنا هو ، فإن كنتم تطلبونني فدعوا هؤلاء يذهبون .

وشهر بطرس سيفاً وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه ، ونظر عيسى فوجد أنصاره أهون من أن يحموه فقال لبطرس :

— اجعل سيفك في غمدك .

فوضع بطرس سيفه في قرانه ، واتسعت عيون الحواريين رعباً فقال لهم

عيسى :

— اذهبوا .

فانطلقوا فراراً لا يلوون على شيء وتركوا رسولهم الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور يحيط به جنود رومانيون غلاط مدججون بالسلاح ، وبني يهوذا يترقب حافت القنب مرعوباً ، فلو أن الرومانيين ألفوا القبض على عيسى لقتل يهوذا الشك والقلق .

وتقدم عيسى خطوات فرح الجنود إلى الخلف وسقطوا على الأرض ، وانطلق عيسى بينهم دون أن يروه وذهب ليحتفى ويتحقق قوله لتلاميذه .
« بعد قليل لا تبصروني ثم بعد قليل أيضاً تروني » .

وأحس يهوذا نورا يسكب في جوفه وهزته موجة من الفرح ، فقد عاد إلى الحوارى الذى أوحى الله إليه أن آمن بى وبرسولى بإيمانه الكامل ، وغسلت

روحه وتخلصت من شوائب لشك كما يتخلص الثوب من أدرانته إذا غسل بالماء .

وقام الحوود الرومانيون العلاظ حائقين ويطروا قدم يجذوا إلا يهودا واقفا في الظلام وحده ، فهجموا عليه وأمسكوه بحسبونه عيسى . وأراد يهودا أن يقاوم وأن يصرخ بهم أنهم أخطئوه ولكنهم انهالوا عليه بالسباب وأوسعوه ضربا ، ثم شدوا وثاقه فتيقن أن الله أنزل به البلاء ليحجازه على شكه الذي نبت في جوفه بعد أن أوحى إليه الإيمان ، فلزم الصمت وعزم على ألا ينس بكلمة ، وأن يتحمل التجربة القاسية ليتطهر ويستحق أن يجلس مع المسيح في مملكة الله ويدين أسباط إسرائيل الاثني عشر كما قال له المسيح .

إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من لشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون .

دخل الجنود وهم يقودون يهوذا إلى الهيكل وساروا إلى بيت رئيس الكهنة ، وسمحت لهم المرأة الواقعة عند الباب بالدخول . وأقبل بطرس الذى كان على البعد يقتفى آثارهم وأراد أن يدخل فرمته المرأة بنظرة فاحصة ثم قالت :

— أأنت أنت أيضا من تلاميذ هذا الإنسان؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا . لست من تلاميذه .

وساق الجنود الرومانيون يهوذا إلى غرفة واسعة تضيئها المشاعل وقد جلس فى صف دائرة فريسيون وكتبة . ورأس الاجتماع شيخ كبير أبيض الشعر هو حنن صهر رئيس لكهنة قباغا ، وساد الاجتماع قلق ، كانوا يخشون فى أعماقهم أن ينزل عليهم غضب من لسماء وإن أخفوا ذلك وإن تظاهروا بالعبوس والتقطيب .

أرادوا أن ينتهوا من محاكمته سريعا وأن يصدروا حكمهم بموته ثم يفروا من ذلك القلق السارى فى المكان ، فقال له حنان :

— من هم تلاميذك ، وما هى تعاليمك ؟

فصمت يهوذا ولم يجر جوابا ، فصاح به حنان :

— تكلم .

ولكن يهوذا لم يحرك ساكنا ، فتقدم أحد الخدم ولطم يهوذا لطمة قوية

وقال له :

— جابوب رئيس الكهنة .

وبقى يهودا ساكنا لا ييس بكلمة ، وراح حان ينقى عليه أسلته ويهودا غارق في الصمت

ودخل بطرس إلى الردهة تطويلة ، كانت أدلة شديدة البرودة فأوفد الجود الرومانيون نارا يصطلونها فاقترب بطرس من النار ووقف يعم بدفء ، إذ وقف هناك في القاعة القريبة من يحسه سيده يحاكم أمام أعدائه ويحاسب حسابا عسيرا .

ورنا أحد الجود إلى بطرس مليا ، إنه هو ذلك التلميذ اندى رفع سيفه وقطع أذن ملخس عبد رئيس الكهنة ، فاقترب منه وقال له :

— ألست أنت أيضا من تلاميذه ؟

فاضطرب بطرس وقال :

— لا . لست من تلاميذه .

واقترب منه خادم من خدام رئيس الكهنة وقال له :

— ألم أراك معه في البستان ؟

— لا . إنى لا أعرفه .

واتهر بطرس فرصة تشاغبهم عنه بالدار التي كانوا يذكونها فانسل هاربا مغادرا الهيكل لينجو بنفسه .

ولم يتكلم يهودا فصاق به حنان فرعا وأمر أن يقودوه إلى قيافا رئيس الكهوت ليرى رأيه فيه ، فمطلقوا به في جوف الليل حتى إذا وقف أمام قيافا ظل في صمته العميق .

كان قيافا رئيس كهوت اليهود يرى أنه حير للأمة أن يموت واحد من

تقوم بسببه حرب أهلية بين بني إسرائيل ، فكانت عاقبته أن يقتله ويسنريج .
فراح يسأله وهو مطرق مستمسك بالصمت ، فأحس ضيقا وأراد أن يتنهي
مه فأرسل يستدعي — وهو رئيس الكهوت — شهود رور يشهدون عليه
فهم يجحد ، وأحيرا قتل شاهدان وقالوا :

— هذا قال إني أقدر أن أنقص هيكل الله ، وفي ثلاثة أيام أبنيه .

فقال له قيافا :

— أما نجيب بشيء ؟ ما رأيك فيما يشهد به هذان عليك ؟

كان عيسى يقول إنه عبد الله ورسوله وقد كان ذلك القول مألوفا بين
اليهود ، فلو أنه قال إنه الله أو إنه ابن الله لكان من الميسور إدانته وقتله ، أما أنه
رسول الله فما كان ذلك شيئا غريبا بين بني إسرائيل .

ولو كان المقبوض عليه عيسى لقال إنه قال ما يهمنه به ، فما كان لسي أن
يكفر بأقوله ، ولكن يهودا لم يشأ أن يكذب في خطاته الأخيرة ، فظل ساكنا
لا ينطق بكلمة ، فتعد صبر رئيس الكهنة فقال له :

— أستمحلفك بالله أن تقول لنا هل أنت المسيح ؟

— أنت تقول ذلك ، من الآن تبصرون ابن الإنسان جالسا على يمين القوة
وآتيا على سحاب السماء .

فقال رئيس الكهنة :

— لقد كفر فما حاجتك إلى شهود ، ها قد سمعتم كفره .

وانصمت إلى المرئيين والكتبة وقال لهم :

— ماذا ترون فيه ؟

— إنه مستوجب الموت .

حكموا على يهوذا بالقتل وهم يحسبون أنه المسيح .

ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين . واتسموا في راحة ولكن : « الساكن في السماء يصحك ، الرب يستهزئ بهم » .

وانقضى الليل وصاح الديك فتذكر بطرس قول عيسى له : إنه سينكره ثلاث مرات قبل صياح لديك ، فهام على وجهه يبكي ويتحب حتى كادت كبده تنصدع من البكاء .

وخرج يهودا إلى الردهة بعد أن قرر اجتماعه مع ستمائة للقتل ، فقام إليه الخدم والخنود يصقون في وجهه ويلطمونه ويصفعونه ويركلونه ويسددون اللكمات إلى وجهه ويضحكون مستهزئين ، ويهوذا يتحمل إهانتهم في صبر عجيب .

وساقوه إلى غرفة يحبسونه حتى طلوع النهار ، وأرادوا أن يقطعوا الوقت فحججوا عبيده وتقدم إليه واحد منهم ولطمه وقالوا له هارثين .

— تنبأ لنا أيها المسيح من ضربك ؟

واعقد السهدرين من القريسيين الدين هتك المسيح رياءهم ، ومن الصدوقيين المتعجرفين الكافرين بيوم الدين ، ورأس الاجتماع قيافا رئيس الكهنة المتطاهر بالتقوى الضالع مع الهيروديين في الفسق والفساد .

وحجى يهوذا ومثل أمام أعضاء السهدرين وقد غير الاضطهاد هيئته ، وقال له قيافا :

— إن كنت المسيح فقل لنا .

ماذا يقول يهوذا ؟ إذا قال لهم إنه المسيح كذب ، وإن قال لهم إنه يهوذا لم يصدقوه .

فقل لهم في سخرية :

— إن قلت لكم لا تصدقون ، وإن سألت لا تحيوني ولا تطلقوني

وصممت فليلا ثم قال :

— منذ الآن يكون ابن الإنسان جالسا عن يمين قوة الله .

فصاح قيافا :

— ما حاجتنا إلى شهود . سمعنا اعترافه .

وقام رؤساء السنهدرين واطلقوا إلى قصر بيلاطس وكان قريبا من الهيكل ، ويهوذا مشدود وثاقه وحوه الخبثاء الرومانيون ، وذهبوا إلى انقصر العظيم واستأذن قيافا رئيس الكهوت في الدخول إلى الحاكم الروماني ، فلما أذن له قال :

جئنا بعيسى ذلك الذى أضل كل إسرائيل بتعاليمه وآياته الكاذبة من الخليل حتى أورشليم ، ولم يكتف بدعواه بل راح يفسد الأمة ويحرض الناس على الامتناع عن دفع الخزينة لقيصر ، راعما أنه المسيح ملك اليهود .
كان بيلاطس يحب عيسى فقد سمع بآياته وتعاليمه ، فمال إليه فسه وإن كنتم ذلك عمن حوله . فطلب أن يدخلوه ، فلما دخل يهوذا انفرد به وقال له :
— سلمك الكهنة وشيوخ الشعب إلى يدى فقل الحق لأقيم العدل ، لأنى قدر على أن أطلقك وقادر على الأمر بقتلك .

فقال يهوذا :

— إذا أمرت بقتلى ترتكب ظلما كبيرا لأنك تقتل بريئا .
واستمر بيلاطس يحاور يهوذا وهو يحسبه عيسى ، ثم دعا رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وقال :

— أية شكاية تقدمونها على هذا الإنسان ؟

— لو لم يكن حطيرا ما دفعنا به إليك .

وراحوا يكيلون له التهم ويهوذا صامت لا يبس بكلمة ، حتى تعجب

بيلاطس فقد كانت اتهاماتهم تقطر عداوة وإن كانت بعيدة عن الحق ، فلم يجد فيها بيلاطس الوالى الرومانى ما يستوجب القتل
وطس رجال السهدين ورؤساء الكهنة إن بيلاطس يفكر فى إطلاقه فقالوا له .

— إذا تركت هذا الجليلى فلست محبا لقيصر . كل من يدعو نفسه ملكا يقاوم قيصر .

فلما سمع بيلاطس نفضة الحيلى قفرت إلى رأسه فكرة ليخرج من ذلك الحرج :

— هل الرجل جليلى ؟

— نعم .

— أرسلوه إلى هيروود فهو من رعاياه ليرى فيه رأيه .

وحرص الكهنة وشيوخ إسرائيل ويهوذا والخنود الرومانيون وانطلقوا إلى هيروود ، فقد كان فى أورشليم فى العيد .

ودخل قيافا ورؤساء الشعب على هيروود وقالوا :

— جاء من الجليل من يزعم أنه نبي وراح يفسد الناس ويغريهم بعدم دفع الضرائب إلى قيصر ، وقد حاكمه السهدين وأصدر حكمه بقتله ، ولما كان من رعاياكم فقد أرسلنا الوالى إليكم .

وحىء بيهوذا مشدودا وثاقه مرماه هيروود بظرة سريعة فاحصة . كان يخشى أن يكون يحىي قد قام من الأموات ، ولما لم تكن فى وجهه صرامة يحىي ، فملاحه لا توحى بما كانت توحى به ملاح اسبى الخشن من رهبة ، فقد سكمت الظمأينة قلبه .

وأصغى هيروود إلى الفريسيين والصدوقيين الذين كانت الاتهامات تندفق

من أفواههم تظفر عداوة ومقتا ، حتى إذا ما انتهوا من مقترياتهم التفت هيرود إلى يهوذا وقال له :

— ما تقول أنت ؟

ولم يجر جوابا فقال له هيرود :

— زعمت أنك رسول الله ، فإن أردت أن يصدقوك فأنت بآية إما منتظرون .

ولم يفتح يهوذا فمه ، وانقضت مخاوف هيرود فعاد إلى طبعه الماجس وراح يسخر من يهوذا ، وبعث إلى رجال قصره ليشاركوه في لزرارية بالرجل والتهكم عليه فقد وجدوا فيه مادة لعبثهم البغيص . وأخيرا أمر أعضاء اسنهدرين أن يعودوا إلى ييلاطس وكتب له :

— أقم العدل في بيت إسرائيل ،

وعاد رجال السنهدرين إلى ييلاطس برسالة هيرود ، فالتفت ييلاطس إلى يهوذا فألغاه مكدودا فراح يحاوره ، ثم التفت إلى رجال السنهدرين وقال :

— قدعتم إليّ هذا الإنسان كمن يفسد الشعب ، وهأنذا قد فحصت عنه قدامكم ولم أجد في هذا الإنسان علة مما تشكون به عليه ، ولا هيرود أيضا لأنى أرسلتكم إليه ، إنه لم يفعل ما يستحق عليه القتل مدعوه لى أوذبه وأطلق سراحه . فارتفعت أصوات الفريسيين والصدوقيين .

— اقتله . اقتله .

وراح قيافا وحنان وأعضاء السنهدرين يغذون ثورة الشعب ، فراحت الحناجر تهتف بالوالى الرومانى :

— نريد قتله .. نريد قتله .

— لم يفعل ما يستوجب القتل .

— اقتله . اقتله .

وصمت يلاطس قليلا حتى تهدأ الثورة المفتعلة التي حركها أعضاء السهديرين ، واستجاب لها حدام الهيكل والحماهير التي تنتقل إليها عدوى الثورة أو عدوى الرضا دون أن تدري لماذا ترصى ولماذا تتورأ بيد أن الثورة لم تحمد ، ارتفعت الأصوات نطلب صلبه .

وأخذ عسكري يلاطس يهود ليعذبوه ويخلدوه قبل أن يصلبوه ، فانهالت عليه الصربات وهو يئن كوحش جريح ، ثم ضفر الشعب الشائر إكليلا من الشوك وتوجوه به وهم يسخرون من ملك اليهود .

وسار ركب الموت في طريقه إلى حلجثا ، كان قائد روماني يعتلى صهوة حصان أبيض ، وثلاثة رجال يحملون صلبانهم ، وحفصة من الرجال الرومانيين حولهم ، وجمع من الناس يظلمون في أثرهم ليشاهدوا الصلب ترحية للوقت في العيد . كانوا ثلاثة يئنون تحت ثقل الصليب ، يهودا ولصين حكم عليهما بالصلب معه ، وكان يهودا أكثرهم ضعفا ، كان مجهدا محطما مزقته السياط والمحاكمات .

وبلغوا المكان وثبتت الصلبان في الأرض ، وجيء بالرجال الثلاثة وحلحوا عنهم ثيابهم ، ثم رفع الرجال وفي وسط أكمهم دقت مسامير لتثبيتهم في حشب الصلبان .

وراح الوقت يمر ويبدأ يهودا على الصليب يئن من العذاب ، وبدأ همس الرجال الذي لم يؤموا بعسى فراحوا يقولون :
— حصص آخرين وعجز عن أن يخلص نفسه .

— إن كان هو المسيح ملك إسرائيل فليزل الآن عن الصليب لرى ونؤمن

وضح يهوذا من آلامه ، وتذكر أن الله يعذبه للشك الذى حالط إيمانه ،
فحقد على نفسه وصرخ :

— إيل إيل لم شبقتنى ؟! (إلهي إلهي لم تركتنى ؟!) .
ساءه أن يتركه الله يتردى فى الشك حيناً . كانت تجربة قاسية دفع ثمنها غالياً
صابراً .

وصرخ يهوذا صرخة أعقبتها صمت مطبق فقد أسلم الروح ، ومات الموتة
الأولى ولم يذق بعدها الموت ، فقد خلص من أدران الشك ليحيا مع المسيح
إلى الأبد .

واستحق يهوذا أن يكون مع المسيح وحواريه يدين أسباط إسرائيل لاثنى
عشر ، كان من المتقين الذين أرسلهم عيسى إلى بنى إسرائيل يبشرون باسمه
ويدعون الناس إلى ملكوت الله ، وكان من الذين أوحى الله إليهم أن آمنوا به
وبرسولى وكان من المبشرين بالجنة . مسه طائف من الشيطان فلما تذكر إذا
هو مبصر فقدم نفسه راضياً عن سيده ليتطهر فتاب الله عليه ، فقد تاب توبة
لو قسمت على أهل الأرض لو سعتهم .

وبقى المصلوب فى الظلام بين حفنة من النساء الباقيات النائحات ، وأما
حواريو المسيح فقد ولوا الأدبار مفزوعين ولو أنهم فهموه لما شكوا فيه ولتيقنوا
أنه لم يصلب بل صلب غيره ، فقد قال لهم : « كلكم تشكون فى الليلة » ولو
أصاخوا السمع لرن فى آذانهم قوله مؤكداً نصره على أعدائه من سنهدريين
وصدوقيين وفريسيين :

— إني قد عليت العالم .

وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وإن الذين احدثوا فيه نفى شك منه ما لهم
به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقيناً بل رجع الله إليه وكان الله عزيزاً حكيماً .

كانت أسوق ممكة الببط غاصة بالبضائع الواردة من أثينا وروما وبابل ودمشق، وراح الناس يستخدمون عملة جديدة عليها صورة هرثة الرابع محب شعبه وزوجته الثانية شقيلة، بعد أن كانت العملة القديمة عليها صورته وصورة زوجته الأولى حلد، أم روجة أنتيباس هيروود التي ثارت لكرامتها عندما عاد زوجها أنتيباس هيروود من روما بعد أن أغرى زوجة أخيه هيرووديا بأن تفر معه وكانت معابد الآلهة دى الشرى ومنوتن واللات وهبل وقيس غاصة بالناس، وإن كانت قلوبهم حاوية من الإيمان بعد أن امتلات خزائهم بالذهب والفضة، وراحوا يحاكون الرومان فى الآلهة والعظمة فبنوا الملاحى ونحتوا فى الصخر مسرحة عظيمة لنحو أربعة آلاف متفرج، وقوس نصر.

وأطلقوا على رب الأرباب «الله» بعد أن كان يعرف منذ أيام إبراهيم الخليل بالإيل، وقد نسب إليه إسماعيل وإسرائيل وصارت من الأسماء المعروفة فى أرض النبط سعد الله وتم الله.

ولما بعدت الشقة بينهم وبين عدنان بن أدد ذلك الزعيم الجليل الذى وقف فى حضوراء فى وجه مختصر، ونجح فى أن يصد هجومه وأن يحو عن جيوش العرب جميعا معرفة خضوعهم لمختصر، فقد ارتفع شأنه حتى كاد يفترب من الأرباب، فسمى النبط أباءهم بعد عدنان.

وكان صدر هرثة الرابع ملك السط يضيق بالحق على أنتيباس هيروود، منذ ذلك اليوم الذى عادت إليه فيه استه غاضبة من روجها الفاسق الذى جاء بزوجة أخيه إلى فراشها.

كانت قوارع يحى التى يوجهها إلى أنتيباس هيروود تحد أطيب الآثار فى

نفس هرثمة ، وكان هرثمة يمسى النفس بثوره الخليليين على مكهم الذى خرق
الناموس ونزوح زوجة أحبه فيليس وفيلس حتى لم يطق روجه، ولكن اليهود
استكانوا للمهانة ولم يقد المريسيون المراءون والصدوقيون المنتطعون ثورة
على من داس مقدساعهم بالأقدام .

وفقد هرثمة الأمل فى ثورة الشعب اليهودى على أنتيناس هيروود الفاسق ،
لما قدم هيروود رأس يحيى البار إلى سالومى ابنة هيرووديا فى طست من الفضة
مكافأة لها على استحابتها لرحائه ورقصها فى حفل عيد ميلاده ، ولم تشتعل
الثورة لدم السبى الطاهر الذى سفح على مذبح الشهوات .

ووجد هرثمة أنه لا بد أن يثار لكرامة ابنته بنفسه ، وأن لا أمل يرجى من
ثورة اليهود على ملك الجليل بعد أن ظلم هيروود المسيح وبعث إلى الحاكم
الرومانى يطلب قتله ، وقد نهل الشعب اليهودى بالفرح لذلك الظلم المبين .
فانتهر فرصة خلاف على الحدود بينه وبين أنتيناس هيروود روح ابنته الذى أهدر
كرامتها ، وأعلى عليه الحرب وجيش الحيوش لقتال اليهود .

والتقى النبط باليهود فى جلعاد ، ودارت معركة انتصر فيها هرثمة على
هيروود انتصارا كبيرا ، وتشتت الحيوش اليهودية ونحشى هيروود أن يقتضى
هرثمة أثره ويضربه الضربة القاضية ففرع هيروود إلى سيده وحاميه قيصر
روما .

لم ينحب أغسطس قيصر من زوجته الأولى ، فلما تزوج ليفيا كان يأمل
أن تلد له ولدا ينشئه ويعلمه أساليب الحكم ، ولكن ذلك الزواج كان عقيما
كسابقه وإن كانت ليفيا قد أنجبت لروحها الأول طيباروس ودروسس .
وكان أغسطس قيصر يحب دروسس بينما كان يحترم طيباروس ولا يحبه .

ومات دروسس وهو في شرح الشباب محزون أغسطس قيصر عليه ، وزاد في حزنه أن طيباروس كان صلفا معتدا بنفسه ينزع إلى الكآبة والانطواء . ولما كان لا بد أن يربط يسه وبين من سيعتلي عرش روما من بعده فقد زوجه ابنته يوليا .

وكانت يوليا تمقت ذلك الزواج فأخذت تنتقل من عشيق إلى عشيق ، وانزوى طيباروس بينما كان أغسطس قيصر يعاني في شيوخته من عبث ابنته وتفكك أسرته ، مما اضطره إلى أن ينفى ابنته من البلاد .

* * *

وانتهت مأساة حياته بكلمات طالما انتهت بها الملهاة الرومانية :
— الآن وقد أتقنت تمثيل دورى فصصقوا ، وأخرجونى من المسرح بتصفيتكم .

ثم عانق زوجته وقال :

— تذكرى عشرتنا الطويلة يا ليفيا .

ومات أغسطس قيصر وتولى طيباروس رئاسة الدولة الرومانية وقد بلغ الخامسة والخمسين من عمره وكره المجتمع ، لم يعد يرى في السلطان سعادة ، فعرض على مجلس الشيوخ أن يعيد الجمهورية ، ولكن أعضاء مجلس الشيوخ ما زالوا به حتى قبل أن يتولى السلطة وهو يقول :

— إنها استرقاق مبهظ مذل .

وتولى طيباروس الحكم وهو يبغض الملكية لذلك سمى نفسه « زعيم الشيوخ » ، وكان يعقت الملق فلما أراد مجلس الشيوخ أن يسمى شهرا باسمه كما فعل مع يوليوس قيصر وأغسطس قيصر ، رفض ذلك وقال في سخرية :

— وماذا تفعلون إذا وجد لديكم ثلاثة عشر قيصرًا ؟

فلما فزع هيرود إلى سيده وزعيمه طيباروس واتمس منه أن يجده من
عدوه هرثمة الرابع ، نسي كل حكمته وبعث إلى عامله على سورية فيثلوس أن
يسير على انقور بجيشه لمحاربة هرثمة ، والقبض عليه حيا أو ميتا وإرساله مكبلا
بالسلاسل إلى روما أو إرسال رأسه إليه إن قتل .

وبلغ هرثمة أوامر طيباروس فغضب على الرومان وتأهب لقتال فيثلوس
وهيرود ؛ الرومان واليهود الذين اسكنوا لهم ، وكانت غضبته عامرة فأعد
جيشا لم يخرج مثله من البتراء صحرة العرب .

وأعد فيثلوس العدة للقتال ، وخرجت جيوش الرومان من سورية
لتأديب السط على حريمهم لحلفاء روما ، وبينما كان فيثلوس في الطريق جاءت
الأبباء ب وفاة طيباروس ، فرأى فيثلوس أن يقلل راجعا بجيوشه دون أن يقاتل
العرب .

ولم تطفئ وفاة طيباروس الثورة المتأججة في صدر هرثمة بل شجعتة على
أن يسير إلى دمشق ، لتحريرها من الرومان ونزع النسر الروماني من فوق دور
الحكومة وأماكن العبادة .

وسارت الجيوش العربية إلى دمشق ، ودار القتال حولها بين فرسان العرب
وفرسان الرومان واستبسل النبط في القتال وكانت أسلحتهم كأسدة
الرومان ، ولكن قلوبهم كانت عامرة بالإيمان بالنصر فما لبثوا أن ظهروا على
أعدائهم ، واضطر الرومان إلى التقهقر وإغلاق أبواب دمشق في وجه العرب
الناشرين .

وطال الحصار وألقيت السهام والحجارة من فوق الأسوار ، وجاء البط
بالسلام الخشبية الطويلة وبعد توضيحات جسيمة تمكنوا من أن يثبتوا السلام
على أسوار دمشق وصعد فيها الجنود العرب كالجرذان ، ودارت رحى معركة
حامية فوق الأسوار انتصر فيها أحفاد نابت بن إسماعيل ، وسرعان ما فتحت
أبواب دمشق للعرب الذين تدفقوا منها تطل من أسيافهم المنون .

وتقهقر الرومان مذعورين ثم داروا على أعقابهم مذبرين ، واستتب الأمر
لحرثة الرابع ملك البط . وعادت دمشق مرة أخرى في حوزة ملك البتراء .
وساء موقف هيروود ، إنه إستجبد بالرومان فكان وبلا عليهم ، فقتلوا
دمشق بسببه وأصبح عدوه اللدود في موقف يمكنه من أن يبطش به دون أن
يحشى قياصرة روما . ترى أيعاود هيروود الالتجاء إلى روما بعد أن أصبح
كاليجولا سيد الرومان ؟

كان طيباروس قد بعث قبل موته بصنم من ذهب على صورته ليسجد له
اليهود ، فلما حمل بيلاطس الصنم إلى القدس ليوضع في الهيكل ثار اليهود في
القدس وفي الجليل ، واضطر هيروود أنتيباس أن يعلن غضبه إرصاء للفريسيين
والصدوقيين والشعب المتمسك بحرفية الئاموس وإن أشرك بالله وعبد معه
أرباب الوثنيين .

وبعث الرومان جيوشهم لإخماد تلك الثورة ، هانزمت جيوش اليهود
وقبض القائد الروماني على أنتيباس هيروود وحمله مفيدا إلى روما ، ثم نفى إلى
الأندلس نيموت هئاك ، وخمدت تلك الجدوة اليهودية التي أشعلها هيروود
الكبير في ظل الحكم الروماني ، وانقرضت دولة اليهود .

مدينة طرسوس تطل على البحر الأبيض الذى طالما جرت فيه معارك بين
الفرس واليونان والرومان وقراصنة البحار ، إنها تقوم على سهل تجرى فيه
الأنهار فيهرع الناس إلى حدائقها لينعموا بالراحة والدعة بعد عناء وشقاء
الأيام .

جاءت إليها كليوباتره وقابلت أنطونيو ليعيشا فى قصة غرام ملتهب ،
وجاء إليها يوليوس قيصر وأغسطس قيصر من بعده ، وراح يتدفق فيها فلاسفة
اليونان والرومان وجنود القيصر ويهود لا هم لهم إلا جمع الذهب وإرساله إلى
أورشليم إلى هيكل سليمان ، ووثيون من أهل البلاد يتحدثون الآرامية
ويعملون فى التجارة خضعوا ككل سكان سورية إلى سلطان روما ، نحى
مهم الضرائب لتحمل إلى إيطاليا عن يد وهم صاغرون .

وغص السهل المنبسط بالناس فقد كان اليوم عبد بعلى إله المدينة بل رب
الأرباب فى سورية كلها ، وراح الناس يشربون بأعناقهم ينظرون إلى حيث
يخرج موكب الإله خافقة قلوبهم شاخصة أبصارهم يسرى فى صدورهم
خوف من ربه وطمع فيما عنده من رزق كريم .

وكان بين الجموع شاول اليهودى الصغير ، كان فى الثالثة عشرة من عمره
أسود العينين عزيز شعر الحاجبين مقوس الأنف مقوس الساقين ضئيل
الجسم ، ولم يكن قد عرف بعد يبولص .

وظهر موكب الإله ، كان بعل على عربة قد ركب أسدا وزيت العربة بالزهور ، فارتفعت أصوات الناس بالابتهالات حتى غطت على صلوات الكهنة . وراح شاول يتلفت في خوف ويقاوم تلك الرعبة الملحة التي تدعوه إلى أن يقف بين الناس يشاهد الموكب ، وسرعان ما رأى بعين خياله أباه المريسي المتزمت وهو ينهائهم عن مشاهدة أعياد الوثنيين ، ويهدده بعداب يهوه إله اليهود الغيور الذي يأبى أن يعبد في الأرض غيره ، ففزع وراح يعدو إلى البيت كأنما يجري في أثره شيطان .

كان بولص يتحاشى معابد الوثنيين وكان يختفى في جوف الدار في أعيادهم حتى لا تقع عيناه على أوثانهم وأصنام آلهتهم ، يصعبى إلى نصائح أبيه وتمجيده للآباء ، فقد ماتت أمه وهو لا يزال صغيرا ، وعلى الرغم من حرص بولص على مقاطعة أعياد الوثنيين فقد كان يسمع قصة بعل أثناء الليل وأطراف النهار .

كان بعل يسير في الأرض يدعو الناس إلى التقوى والصلاح قبل أن يبعث الله إبراهيم رسولا ، وقد كان له أعداء ككل مصلح في الأرض فتربصوا به حتى قبصوا عليه وساقوه أسيرا إلى المحكمة . وبعد أن انتهت محاكمته وحكم عليه بالموت امهال عليه الجنود بالضرب ، ثم قادوه إلى الحبل بعد أن أطلقوا سراح مجرم حوكم معه وأخذوا معه مجرمين ، وما لبثت أن تهدمت المدينة يوم نفذ فيه الحكم وأخذت ملابسه ، وقد راحت امرأة تبكي عند قبره وسرعان ما قام من الأموات وارتفع إلى السماء ليصبح إلها يدين البشر

غرست قصة بعل في ضمير بولص كما غرست تعاليم أبيه المريسي الذي كان يرددها على مسامعه صباح مساء . « اليهود هم الناس يا بى ، أما ما عداهم أمم ، إلههم شعب الله . أرض فلسطين أرض الله . إنها أول أرض خلقها

ثم خلق سائر الأرض بعدها ، لقد أمطر الله بنفسه أرض فلسطين وبعث المياه إلى ما عداها من الأرضين . إن الذى يسكن فى فلسطين يسكن مع الله أما الذى يسكن خارج فلسطين فيعيش بلا إله .

وراح أبوه يؤنه إذا ما كسر السبت بحمل ورقة أو التقاط شيء من الأرض ، فشب بولص وهو يرتجف فرقا من أن يرتكب خطيئة مما نهى عنها الناموس اليهودى ، وكانت نفسه تهفو إلى أورشليم التى يغفر الله فيها الذنوب جميعا .

كان بولص يحترم بروحه قانون الله وكان جسمه يخضع على الرغم منه إلى قانون الخطيئة ، فكان إذا ارتكب أخطاء طمعه يشعر بالذنب ويتألم ضميره ويؤنبه ، فعاش فى صراع دائم بين رغبات النفس ونواهى الناموس الذى راد فى صرامته تنطع الفريسيين والصدوقيين والكتبة .

وبلغ السابعة عشرة وتحقق حلمه الذى كان يغذيه أبوه الفريسي الذى تجسدت آماله فى أورشليم وهىكل سليمان المقدس ، فانطلق بولص مع قافلة من القوافل الذاهبة إلى بيت المقدس ليكون مع يهوه ، فى كنفه وحمايته ، فقد لقاه أبوه أن الذى يعيش خارج فلسطين فهو يعيش بلا إله !

كان بولص يعتقد أنه من نسل بنيامين ، وكان الدين يسرى فى وجدانه مسرى الدم ، فهو منذ أن ميز بين ما يسمع كان يلقن التفرقة بين الحلال والحرام فى عرف الفريسيين المتزمتين ، والتفرقة بين اليهود وسائر الأمم ، والامتياز اليهودى على العالمين ، فشب وهو يعبد ذاته كأقرانه من اليهود ، يؤمن بيهوه وإن غرست فى قرارة نفسه أساطير الوثنيين السوريين .

وبلغ أورشليم وهو يحس إحساس الحاج الوافد إليها ليتطهر من ذنوبه

جميعا ، وبطر إليها وهي تتألق على قمة الجبل فعمرب عواطفه نشوة روحية هزت كيانه ، فلم يعد يحس إلا أنه في مدينة الله وأنه يسرى في الحنة التي أعدت للمتقين .

والشوق بالميكال يتبقى العنم على أيدي كهنة اليهود ، ولم تتح له فرصة أن يلقي سمعه إلى المسيح وهو يعظ الناس في الهيكل ، ولم يصعد إلى الخليل مع المسيح وحواريه ليصعى إلى حطبة الجبل ، ولم يذهب إلى محكمة يلاطس ولم تقع عيابه على الصليب والمصوب ، فما أقل الناس الذين شاهدوا ذلك الحدث الذي تم بلبس على مشاعن بعض الجنود .

وراح بولص يصعى إلى الكهنة وهم يقولون : لا حكم إلا لله وأن كل يهودى يحصع لحكم الرومان فهو عدو الله . وما كان الكهنة في ذلك الوقت يهاجمون النصارى فهم قنة يقولون أن لا إله إلا الله وأن عيسى مسيح الله ورسوله ، فنشب بولص وهو يمقت حكم الرومان ويعكف على قراءة التوراة حتى حفظها عن ظهر قلب .

وكان يهود أورشليم يظفرون إلى النصرانية على أنها فرقة من فرق اليهود وما أكثرها في اليهودية في ذلك الوقت ، فرقة لا تختلف في كثير عن « الأسيين » وهي طائفة متشددة في رعايتها للأحلام الدينية ، طائفة تطهرت من أدران المطاعم والشهوات ، المادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالندس والحياة ، ويؤمنون بالبعث ورسالة المسيح المخلص ، يعتقدون أن الخلاص بعث روحى يهدى الشعب إلى حياة الاستقامة والصلاح .

فرقة لا تختلف عن المعسسين أو المسحاء بالربيت أو الباتيين أو الرهاد الدين اعتزلوا العالم وشروره وعكمو على عبادة الله والأس به ، فرقة تؤمن أن

عيسى هو المسيح المنتظر بعثه الله رسولا إلى بني إسرائيل ليعيدهم إلى الدين القيم ، إلى الشريعة السمحة .

كان بطرس ومتى والحواريون والمؤمنون الأوائل يعرفون « بالمسيحين » ، وكانوا يدعون بما كان يدعو إليه المسيح ، العدل والرحمة والحق ، ويهاجمون الأغنياء الذين لا ينفقون أموالهم في سبيل الله ، ويزهقون باطل الوثنية التي انتشرت بين بني إسرائيل ، ويهاجمون نفاق الكهنة والكتبة ورجال الدين وتقديم القرابين ، فقد كان قول اسيد المسيح : « جئت لأحق القرابين »^(١) يرن في آذانهم ، وقد استقر في وجدانهم كما استقرت تعاليمه البسيطة التي ندعو إلى عبادة الله وحده .

كان المسيح يدعو إلى أن الله لا ينال لحوم الأصاحي وأن التقوى أفضل من القرابين ، فلم يكن كالكهنة يمجّد الأضاحي ، ولم يقل إنه جاء ليضحي بنفسه — وهو الذي جاء ليحقق القرابين — ليحو خطيئة آدم ، فقد كان على علم بأن آدم تلقى من ربه كلمات فتاب عليه .

كان الكهنة والكتبة والفريسيون والصدوقيون يمحنون المسيح وأتباعه لأنهم كانوا لا يوقرون الهيكل توقير اليهود المترمتين ، فقد كان المسيح والحواريون يهاجمون تقديس اليهود للهيكل وقسمهم بدهبه ، وكان ذلك يمينا شائعا بينهم ، وكان المسيح وأتباعه الأوائل يرون أن الأرض كلها معبد الله وأن الله مع الذين في أورشليم والذين يعيشون خارج أورشليم ، فالله ملك الناس

(١) ذكرت في إنجيل النصارى المكتوب بالآرامية كما جاء في كتاب .

The Jew of Tarsus, By Hugh P. Schonfield.

رب العالمين ، وزاد في حق الكهنة ورجال الدين أن المسيح تنبأ بزوال الهيكل ، وأن حواريه صرحوا برغبتهم في حرق ذلك الهيكل الذي اتخذته رجال الدين وكرا السلب الناس الأغنياء والفقراء على السواء ، وإجراء مراسيم للعبادة ما أنزل الله بها من سلطان .

ثار الكهنة لوظائفهم الكهنوتية ، وثار اليهود المتعصبون لفكرة أن الأعياد ستبطل في الهيكل ، وثار الرومان لدعوة الفقراء إلى الثورة على دولة الأغنياء . وكان اليهود يجتمعون خارج الهيكل في الجامع وهي دور للعبادة وتلقى العلم ، وكانت المناقشات الدينية تحدث في تلك الدور بين سواد الشعب فقد كان اليهود مولعين بالمناظرة ، وقد كانت تقوم في تلك الجامع مناظرات عاصفة تؤجج الخلافات بين طوائف اليهود من قرائن وربيين وكتبة وآسينين ، وكان للمسيحيين الأوائل مجامع كتلك التي لليهود يتدارسون فيها أمر دينهم .

وكان بولص يمضى وقته بين العبادة في الهيكل وإدارة المناقشات في مجمع من تلك اجماع اليهودية المنتشرة في أورشليم ، وقد حفظ بولص التوراة وراح يستشهد في محاوراته بإصحاحاتها استشهاد خبير .

واضطهد بولص المسيحيين الأوائل اصهادا قاسيا لا رحمة فيه كان سببه تعصبه المقيت ليهوديته ، وأنه كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذي يترقبه اليهود ، وكان بولص صاحب شخصيتين : شخصية متمزعة متعصبة للجنس اليهودي ، وشخصية أنانية مزهوة بنفسها تحلم بالقوة والسيطرة الدينية على طوائف اليهود من صديقين وفريسيين وكتبة وملل ونحل ذهبت في كل طريق .

لم يتورع بولص عن قتل بعض المؤمنين المسيحيين وعن الإمعان في تعذيب آخرين . وقد بلغ به حقه على المسيحية والمسيحيين أن ذهب إلى رئيس الكهنة يلتمس منه أن يبعث معه رسائل إلى دمشق تخرض على قتل من اعتق المسيحية ، وقد وعده أن يسوق المسيحيين الذين يلتقى بهم في الطريق إلى أورشليم زمرا مكبلين في القيود .

وذهب بولص إلى دمشق وعاد منها إلى أورشليم ومشى إلى الحواريين كالخمل البريء ، ولكن الحواريين كانوا يهابونه لغلط قلبه وقسوته على المؤمنين الأرائل ، وكانوا يتحاشون الدنو منه والإصغاء إلى دعواه العريضة . وذات يوم ألقى برنابا إليه سمعه فراح بولص يقول :

— لما اقتربت من دمشق أهرق نور من السماء حولى بغثة فسقطت على الأرض ، وسمعت صوتا يقول بالعريضة : « شاول .. شاول ! لماذا تضطهدنى ؟ » فقلت : « من أنت يا سيد ؟ » فقال : « أنا الرب . أنا يسوع الذى تضطهده » فقلت وأنا أرتعد من الخوف : « يا رب ماذا تريد أن أفعل ؟ » فقال لى الرب : « قم وادخل المدينة فيقال لك ما ينبغي أن تفعل » . ووقف الرجال المسافرون معى صامتين يسمعون الصوت ولا يظفرون أحد ، فنهضت عن الأرض وكنت مفتوح العينين لا أبصر أحدا ، فاقنادوى وأدخلوى دمشق ، ومرت ثلاثة أيام لا أبصر فلم آكل ولم أشرب .

وكان فى دمشق تلعيذ اسمه حنانيا ، فقال له الرب فى رؤيا : « يا حنانيا ! » فقال : « هاأنذا يا رب » . فقال له الرب : « قم واذهب إلى الرقاق الذى يقال له المستقيم ، واطلب فى بيت يهودا رجلا طرسوسيا اسمه شاول ، لأنه هو ذا يصلى . وقد رأى فى رؤيا رجلا اسمه حنانيا داخلا واضعا

يده عليه لكي يبصر » . فأجاب حنانيا : « يا رب قد سمعت من كثيرين عن هذا الرجل كم من الشرور فعل بقديسيك بأورشليم وههنا ، له سلطان من قبل رؤساء الكهنة أن يوثق جميع الدين يدعون باسمك ، فقال له الرب اذهب لأن لي إثناء مختار ليحمل اسمي أمام أمم وملوك وبني إسرائيل ، لأنني سأريه كم يبغى أن يتألم من أجل اسمي » .

فمضى حنانيا ودخل البيت ووضع على يديه وقال :
 « أيها الأخ شاول قد أرسلني الرب يسوع الذي ظهر لك في الطريق الذي جئت فيه لكي تبصر وتمتلي من الروح القدس » فوقع من عيني شيء كأنه قشور فأبصرت في الحال .

وفرح برنابا بذلك الذي جاءه تائباً بعد أن كان عدو المسيحيين اللدود ، ولم يحاول أن يتحقق من صدق مزاعمه ، يكفيه أنه جاء يعلن إيمانه وما قال بعد قولاً يخالف ما يقول به الخواريون ، فإن كان قد قال : « رأيت الرب » فقد كانت الرب تعني عندهم المعلم وما كانت تعني الله الواحد القهار العظيم المتعال ، سبحانه الله صما يصفون .

وانطلق برنابا وبولص إلى حيث كان الخواريون ، كان برنابا يحسب أنه يحسن صنعا بجمع بولص بيطرس ومتى ومرقس وفيلبس وسائر الخواريين ، وكان بولص منشرح الصدر فقد كان يطمع في أن يكون المسيح ، وها هو ذا قد صار رسوله إلى المؤمنين ، وإها لمنزلة رفيعة تشيع أنانيته وحب السيطرة الذي يملأ جوانحه .

وساح برنابا وبولص في الأرض يدعوان الناس معاً إلى الله وكانا يختلفان في النشأة والمشرّب ، فبرنابا حوارى تلقن الدين من فم المسيح ، بينما لم يشهد

بولص المسيح ولم تنعم أذناه بحكمته ولم يفهم سر دعوته .
كان برنابا مؤمنا صادقا ، وكان بولص قد ملئ غرورا يطمع في أن يملأ
كرسى المسيح وحده وأن يكون الداعية الأول للدين الجديد ، لا حبا في
الدعوة وانتشارها بل حبا في الاستئثار بالمجد والسلطان .

واختلف برنابا وبولص فقد كان بولص يحفظ التوراة وكان يستشهد بها
لتفسير أحداث وقعت للسيد المسيح ، وكانت أكثر استشهاده بالزمائر ،
وما كان برنابا يستريح إلى تفسير بولص فكانت الماظرات تقوم بينهما وكثيرا
ما كان برنابا يثور عن تطرف بولص في التفسير والتأويل .

وقال بولص فيما قال : إن المسيح جاء ليصلب ويضحى بنفسه ليحو
خطيئة آدم . وراح يتحدث عن الفداء وعن الخطيئة الموروثة ، وثار برنابا على
قول بولص فقد كان برنابا على يقين من أن المسيح لم يصلب وأنه جاء ليحقق
الفداء والقرايين ، وأن دعوة بولص إن هي إلا سخرية بالمسيح ، فقد جعل
عدو الفداء والقرايين أعظم قربان في العالم !

وقامت مشادات بينه وبين الخواريين ولم يأبه بأقوال من أوحى الله إليهم
أن أمواي وبرسولي ، واستمر في دعوته يستمد أقواله من أسطورة بعل التي
حفرت في صميمه ، فقال إن المسيح قام من الأموات كما قام بعل إله الوثنيين
قبلة ، وأنه في السماء يدين الناس ويحكم بينهم .

وأقبل الناس عليه يصفون إلى أسطورتهم تروى عليهم بأسلوب جديد ،
فقد صار بعل المسيح وصار المجرم الذي أطلق سراحه بعد المحاكمة
« باراباس » وصارت المرأة التي شاهدت قيام المسيح من الأموات مريم
المجدلية ، لم يجد الناس فيما يقول بولص شيئا غريبا فقد ردت إليهم معتقداهم

بعد أن كان المسيح وحواريوه يسفّهون أحلامهم .

و لم يفهم بولص سماحة الإسلام الذى دعا إليه المسيح ، فقد جاء الرسل جميعا ليقولوا للناس : كلكم لآدم وآدم من تراب ، ولكن بولص كان يهوديا متعصبا لجسسه فكان يقول فى فخر معبر بنى إسماعيل : لسنا أولاد جارية . و لم يفهم أن من أراد أن يتماخر فليتفاخر بالتراب ! فكلنا لآدم وآدم من تراب !! كان هناك احتفال فى السنة الرومانية يحل فيه العبيد مكان ساداتهم ليضع ساعات ينعمون فيها بما ينعم به السيادة ، ولكن لم يكن الحال كذلك مع السيد المسيح وبولص ، فإن بولص سلب كرسى المسيح إلى أن يأتى ذلك السى الامى الذى سيعيد إلى رسل الله وأنبيائه كرامتهم التى أهدرها من كتبوا الكتاب بأيديهم ، ثم قالوا : هذا من عند الله .

انتشر الحواريون في إسرائيل والجليل واليهودية والسامرة يدعون بنى إسرائيل إلى عبادة الله وحده وبذ الأصنام وتقديس الهيكل ، ذلك التقديس الذى جعله غاية العبادات لا مكانا يذكر فيه اسم الله .

وكان اليهود يضيّقون بدعوتهم ويكرّون أن عيسى ابن مريم هو المسيح ، فقد كانت عقيدتهم في المسيح أنه سيأتي بمملكة أرضية تعيد مجد بنى إسرائيل ، وقد زاد تلهمهم على تلك المملكة بعد أن دانوا الرومان وأرغموا على أن يدفعوا الحرية لقاء صرّتهم ، فلما جاء المسيح وقال إن مملكته ليست من هذا العالم أعرّض اليهود عن دعوته ووضعوا أصابعهم في آذانهم ولم يلقوا السمع إلى حواريه .

وكان الحواريون يلقون المواقف في مجامع اليهود ، وكانت المناظرات تقوم بين المسيحيين الأوائل وبين طوائف صاحبة عاصفة ، بيد أن اليهود لم يجدوا فيما يدعوا إليه الحواريون ما يحدّش ناموسهم ، فقد كانوا يستشهدون بالتوراة ويقتبسون منها ويقدمون أنبياء بنى إسرائيل ولم يدعوا مع الله إلها آخر .

و ذات يوم قال بطرس إن الله يقبل الأمم كما يقبل بنى إسرائيل ، وأن لا فضل لإسرائيل على أمى إلا بالتقوى ، فأغضب ذلك القول اليهود لأنه سلب منهم الامتياز الذى كانوا يعيشون عليه واهمين ، فقد كانوا موقنين أنهم شعب الله المختار وأنهم وحدهم الذين سينامون في حضن إبراهيم ، وإذا بشيخ الحواريين

يجعلهم أمام الله كالأمم سواء بسواء .

غضب اليهود من دعوة بطرس الجديدة ولكمهم لم يجدوا في أقواله ما يجعلهم يقيمون عليه الحد ، فلم يشرك مع الله إلهاً آخر فقد عاشوا مع المسيح وسمعوا أقواله وعرفوا حقيقة رسالته ، إلا بولص فلم ير المسيح ولم يلق إليه سمعه ، وإن كان يحلم بأن يكون هو المسيح الذى ينتظره بنو إسرائيل .

كان بولص يشعر في قرارة نفسه أنه دون الخواريين منزلة ، فراح يقصر في كل مناسبة قصة ظهور المسيح له وهو في طريقه إلى دمشق ، ليؤكد لسامعيه أنه رسول المسيح إليهم ، وكان حديث بولص يختلف عن حديث الخواريين ، فقد نهل بولص من التوراة التى كتبت في المضى ومن فلسفة اليونان ، بينما نهل الخواريون من النبع الصافى نبع السيد المسيح .

وكان بولص لا يفهم بساطة الدعوة فقد تأثر بفلسفة أرسطوطاليس وتأثر بكل كلمه جاءت في التوراة ، فكان يمزج بين الفلسفة والدين ، واستقرت في وجدانه أساطير الأميين فلم يستطع أن يتخلص من قبضتها .

سمع بولص أن المسيح أحيا الموتي بإذن الله ، فقال إنه أحيا الموتي بقوة المسيح ، ولم يكتف بذلك بل راح يقول إنه أخرج الشياطين من أجساد الناس ، ويزعم أن المسيح جاء ليصلب ليفدى البشر ويظهرهم من خطيئة أبيهم آدم ، وراح يفلسف الصلب والفداء ويتحدث عن ابن الله الذى سيعود مرة أخرى إلى الأرض ليعيد إليها الإيمان والسلام .

وراح بولص يطوف بسوريا ويزور مدنها وذهب إلى أنطاكية وإلى الجليل وإلى السامرة يدعو إلى الدين الذى ابتدعه خياله . وقد غرض اليهود عنه في أول الأمر وأصغى إليه الرومان . كان اليهود يجدون فيما يقول بولص شركاً بالله

بينما لم يندهش الرومان لما يدعو إليه ، فقد كان الرومان يؤهلون أبطالهم
وقياصرتهم ، وقد كانوا يسجدون لتمائيل القياصرة وإنهم ليسجدون كل يوم
لتمثال كاليجولا قيصرهم المجنون !

آمن الرومان بدعوته وقاومها اليهود ، وبدأ الحديث عن اللاهوت
والناسوت ، وراح بولص يتحدث عن الصلب حديث من يؤمن به حتى إنه
كان يتألم ألم من وضع على الصليب .

ولما كانت دعوة بولص تحالف كل دعوة جاءت قبله فقد هب اليهود
لمقاومتها في صراوة وعنف ، فاثمروا به ليقتلوه ، فقد حرق ناموسهم وادعى
أن المسيح ابن الله ، وأنه قام من الأموات كما قام بعل إله الوثنيين من الأموات
من قبله ، وأنه سيعود وقد أطال الحديث عن الرجعة ، ولكنهم أحفقوا في
التخلص منه ، فجاجعوا به إلى الحاكم الروماني واتهموه بأنه يستحق القتل
حسب شريعتهم ؛ لأنه جعل مع الله آلهة أخرى .

وتحدث اليهود وتحدث بولص فلم يجد الحاكم الروماني في قوته ما يستحق
عليه العقاب ، فإن قال إن المسيح هو الله أو أنه ابن الله فما كان ذلك القول
غريبا على مسمع الحاكم الروماني الذي لقى منذ الصغر أن آلهة الرومان يجتمعون
ويتحاورون ويتصارعون ، وما أكثر ما رأى انعاهرات المقدسات جالسات
على سلاط من معبد إلهه أبوللو لأنهن رأين في أحلامهن أن الإله يشتهين !

وكان الحاكم الروماني يؤمن بتعدد الآلهة ويؤمن بأن بعض آلهته يشتهون
نساء البشر ، فلم يجد في أقوال بولص ما يستحق عليه القتل ، ولكنه رأى ألا
يبت في مسأله تخص شريعتهم فقال لبولص :

— أتقبل حكمهم فيك أم أبعت بك إلى قيصر ؟

فقال بولص في حماسة :

— ابعثنى إلى قيصر .

وبلغ بولص روما بعد رحلة من الأهوال على سفينة من سفن الإسكندرية أظهر فيها بعض معجزاته كما قال ، وورضع في السجس إلى أن يحين موعد محاكمته ، وفي سجنه راح يبعث برسائله إلى أهل كورنثوس وإلى أهل غلاطية وأهل أفسس وإلى أهل فيلبى وإلى أهل تسالونيك وإلى تيتس القائد الرومانى فى فلسطين .

كانت رسالة المسيح فى الصدور لم يكتب منها حرفا ، ولما كان بولص يعرف قوة الكلمة المكتوبة فقد راح يستعين بالثورة التى كتبت فى المنفى ليحلق آراء جديدة ليس بينها وبين الدعوات السماوية أية سب .

قال فى رسالته إلى أهل غلاطية : « اطرده الحارية وانها لأنه لا يرث ابن الجارية مع ابن الحرة ، إنا أيها الأخوة لسا أولاد جارية بل أولاد حرة » فكان يهوديا فى زهره يدعو إلى التفرقة بين البشر ، وقد نسى أو تناسى قول السيد المسيح : « أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم » .

كان همه أن تسود آراؤه وإن تعارصت مع ما جاء به المسيح ، وقد كشف عن خبيثة نفسه لما كتب : « فإني إذا كنت حرا من الجميع استعبدت نفسى لجميع لأربح الكثير ، فصرت لليهود كيهودى لأربح اليهود ، وللذين تحت الناموس كأنى تحت الناموس ، لأربح الذين تحت الناموس ، وللذين بلا ناموس كأنى بلا ناموس مع أنى لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح لأربح الذين بلا ناموس ، صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء ، صرت لكل كل شىء لأخلص على كل حال قوما »

وراح بولص يتفلسف بما لم يتفلسف به المسيح ، فكان يتحدث عن الجسد والنفس ويقول : ويحي أنا الإنسان الشقي ! من ينقذني من جسدي هذا الموت ؟

واشتدت المناقشات الدينية في روما بين بولص واليهود والرومان الذين آمنوا بما جاء به بولص والرومان الذين كفروا بما يدعو إليه . وقد راحت الأفكار الدينية تتدفق من أبناء سورية إلى أبناء إيطاليا حتى إن بعض الإيطاليين الذين هالهم تغلغل الحضارة السورية في حضارة روما قالوا : « إن نهر العاصي أصبح يصب في نهر التيبر ! » .

جاء المسيح ليقضى على القرايين وعلى تطيع الفريسيين والصدوقيين والكتبة ، وعلى تلك المراسيم التي ما أنزل الله بها من سلطان والتي كان الكهنة يقومون بها في الهيكل ؛ ولكن بولص جعل المسيح قربانا وأكثر في رسائله من التحدث عن الخروف المذبوح وعن القرايين التي تقدم في المعابد ، وعن كيفية تحول خبز التقدمة إلى لحم المسيح والنبيل إلى دمه ، وصار المؤمنون بتلك التعاليم يعتقدون في قرارة نفوسهم أنهم لما يأكلون من القرايين ويشربون إنما يأكلون في بطونهم لحم المسيح ويشربون دمه !

ومن أين جاءت بولص مثل هذه الأفكار ؟ إنها جاءت من أرض فارس فقد كان المجوس يقولون للمؤمنين الذين يشربون « الهوما » السيد المقدس إنهم إنما يشربون دم الإله ؛ واستعار بولص من الوثنيين معتقداتهم ، استعار من السوريين المؤمنين ببيع للصلب والقيام بعد الموت ، وتحول المسيح إلى إله يدين البشر من السماء ، واستعار من المجوس تحول القرايين إلى لحم الإله ودمه ! وقاوم اليهود تلك التعاليم مقاومة لا هوادة فيها ، ولكن بولص وجد

بين الرومان والوثنيين من يلقى إليه سمعه .

كان نيرون هو قيصر روما في ذلك الوقت وقد أراد معلماه أن يمنعه من التدخل في شئون الدولة فتركاه ينهمك في ملذاته الجنسية كما يهوى ، ولم يكن يتظر من الأباطرة أن يحبوا حياة التقشف وكبح الشهوات في الوقت الذي كانت فيه الرذيلة تستهوى الناس جميعا .

وشب نيرون وهو يزدري جميع أنواع العبادات ، وكان نهما مفرطا في العلم غريب الأطوار والشهوات ، فكان يتخفى ويزور المواخير ويطوف الشوارع ويتردد على الحانات بالليل في صحبة أمثاله من رفاق السوء ، يسطرون على الحوانيت ويسبقون إلى النساء ويفسقون بالغلمان ويجردون من يقابلون مما معهم ، وما كانوا يتورعون عن قتلهم .

وعشق نيرون بوبيا وكان لها نصيب موفور من كل شيء إلا الشرف فراحت تغريه على أن يطلق زوجته ويتزوجها ، ولما وقفت أمه في سبيل تلك الرغبة قتلها ، وشيد نيرون بيته الذهبي وأقام أمامه تمثالا ضخما ارتفاعه مائة وعشرون قدما في أعلاه رأس شبيه برأسه به هالة من أشعة شمسية دلالة على أنه هو أبوللو نفسه .

كان نيرون في الخامسة والعشرين إنسانا فاسدا منتفخ البطن رفيع الأطراف ضعيفا ، ضخم الوجه مجمد الخلد أصفر الشعر ملتويه على العينين ، ولكن حكام الأقاليم كانوا يحضرون له ساجدين ويزعمون أنه إله بعيد ، وفي ذلك الوقت اقتيد إليه بولص وقد اتهم بأنه يدعو إلى إله آخر غيره .

وألقي بولص في جب تليان لموت من الجوع وقتل الحشرات القارصة والقمل في السرايب المظلمة ، وسط الأقدار التي تكدست أكواما .

وفي ذات يوم أخرج بولص من ذلك الجب ليصلب وذاق مرارة الكأس
التي كان يتصورها ويحدث الناس عنها ، وذهب بولص إلى حيث يعلم حقيقة
المسيح ، تلك الحقيقة التي قصر تصوره عن أن يدركها ، وقد صدق فيه قول
السيد المسيح : « احترروا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بشياب الحملان
ولكنهم في الداخل ذئاب خائفة ، من ثمارهم تعرفونهم . هل يجتنون من
الشوك عنباً أو من الحسك تيناً ؟ هكذا كل شجرة جيدة تضع ثماراً جيدة ،
وأما الشجرة الرديئة فتضع ثماراً رديئة ، لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع ثماراً
رديئة ، ولا شجرة رديئة أن تصنع ثماراً جيدة ، كل شجرة لا تصنع ثمرًا جيدًا
تقطع وتلقى في النار ، فإذا من ثمارهم تعرفونهم » .

ليس كل من يقول لي يا رب يا رب يدخل ملكوت السماوات ، بل الذي
يفعل إرادة أبي الذي في السماوات . كثيرون يقولون لي في ذلك اليوم : « يا
رب يا رب أليس باسمك تبأنا ، وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا
قوات كثيرة ؟ فحيثما أصرخ لهم : إني لم أعرفكم قط . اذهبوا عني يا فاعلي
الإثم » .

كانت أرض النبط تنبض بالأحداث ، فقد دبت الحياة في المنطقة كلها بعد أن جاء المسيح يدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده ونبت تلك المراسيم التي تقام في الهيكل ، وتقويض اعتقادهم القائل بأن من بات في أورشليم فقد بات مع الله وأن من كان حارح أورشليم فهو بلا إله .

كان المسيح يحوب الجليل والسامرة واليهودية يدعو إلى أن الأرض كلها مسجد لله وأن مثلها مثل الهيكل ، فאלله في كل مكان ، حتى إن الفريسيين والصدوقيين والكتبة انهموه بأنه يريد أن يقض الهيكل من أساسه ، وقد زاد حنقهم عليه لما تنسأ بزوال هيكلهم المقدس .

كان ما يحدث في الجليل يسمع في أرض النبط فالحدود بينهما مشتركة ، وكان النبط في تيقظ دائم بعد أن انتزعوا دمشق من الرومان ، كانوا واثقين من أن الرومان لن يسكتوا على ذلك الأمر .

وكان هرثمة الرابع ملك النبط في قصره في دمشق يرصد ما يجري حوله ، وقد وصل إلى سمعه ولا شك دعوة الخواريين الناس إلى عبادة الله وما كان بينهم وبين اليهود من مناظرات عاصفة ومشاحات دامية ، وما كان بينهم وبين حكام الرومان في إسرائيل واليهودية .

كان ملك النبط يهتم بالثجارة فكانت رعبته أن يستتب السلام في دولته لتغدو القوافل وتروح في أمان ، وكان على عدم بأن ازدهار تجارته يوعر

صدور الرومان عليه فهو يناقشهم فيما دفعهم إلى الانتشار في الأرض ومحاولة إقامة حكومة عالمية ليسيظروا على حيرات العالم ويحملوا الأموا إلى روما ، فكان متأهب لصد أي هجوم روماني عليه وما كان ليسمح بأي انشقاق داخل مملكته يتيح للعدو فرصة التدخل في بلاده .

وجاء بولص إلى دمشق بعد أن زعم أن المسيح ظهر له في الطريق وعاتبه على اضطهاده أتباعه ثم بعثه رسولا إلى المؤمنين ، وأراد بولص أن يمارس رسالته في دمشق وأن يدعو إلى ما لم يدع إليه المسيح فراح يجتمع باليهود والنبط وأهل دمشق يدير المناقشات ويبعث الفتنة ، فرأى هرثمة أن ما يفعله بولص سيمرق وحدة أمته ويتيح للرومان فرصة التحرش به ويبلاده ، فأصدر أوامره بأن يلقى القبض على بولص . وذهب جنود حفيد إسماعيل ليلقوا القبض على يهودي طرسوس حفيد إسحاق ، فأحس بولص الخطر فتدلى من طاقة في السور في زنبيل وفر هاربا .

كان بولص يذهب إلى أرض النبط وكان يروح ويحيى في دمشق يقبض على من آمنوا بالمسيح ويسوقهم زمرا إلى أورشليم ليدوقوا عذاب الهون على أيدي كهنة اليهود ورجال الدين ، فلما هجر قسوته ورأى أن يفسد ما جاء به المسيح بادعاء أن المسيح بعثه رسولا إلى الناس أحس هرثمة خطر دعوته وأنه سيوقظ العننة في أرضه ، فأراد أن يقضى عليه قبل أن يستمحل الأمر ، ولكنه ولى الأدبار ، وقد استراح هرثمة لمراره فقد خرج من بلاده ولن يجروا على أن يعود إليها ليقع الشقاق بين الناس .

ومات هرثمة ودمشق في أيدي النبط وقوافل التجارة تخرج من البتراء لتطلق إلى سورية ومصر وبيل وبلاد الفرس ، وتولى الملك بعده ابنه مالك

الثاني وقد ضرب بقودا جديدة لا تقل في روعتها عن القود التي ضربها أبوه ،
وقد كانت تحمل اسمه واسم أخته شقيقة .

وراحت السنوات تمر والمفاسدة التجارية شديدة بين الرومان والبيط
والفرس ، والمناقسة الدينية تتقدم بين اليهود والمسيحيين الأوائل ، وقد كان
اليهود يقبضون على زعماء المسيحيين ويشكونهم إلى الحكام الرومان في
إسرائيل أو يبعثون بهم إلى روما ، فما كان الحكام الرومان يحدون في دعوة
المسيحيين ما يستحقون عليه العقاب .

وصار نيرون قيصر الرومان بعد أن دست أمه أجربيسا السم لأبيه
كلوديوس لما أحست أنه يريد أن يوصى بالملك لابنها ، مش بيرون وهو
يسخر من الديانات ومن كل ماله صلة بالأخلاق ، وقد قال بعد أن أطعمت
أمه أباه مطيرا ساما وبعد أن أنه محبس الشيوخ أباه :

— إني لا أشك في أن العطر هو طعام الآلهة ، لأن كلوديوس أصبح بعد
أكله إلها بعد .

كان نيرون يؤمن أن مبدأ القوة حق ، وكان يعيش وفق الطبيعة قد ألقى
حبيل نفسه على العارب ، فانكسأت طبائعه إلى طباع الإنسان البدائي ، لم
يحاول أن يضبط نفسه أبدا ولم يعرف الشعور بالخطيئة ، فما كان البابل الذي
يمارس الدعارة المقدسة وفلسفة الحوم ، بل كان يمارس الدعارة ولا شيء
غيرها .

كانت روما عارقة في اندس ، ولكن قوادها خارج إيطاليا كانوا يعملون
على توسيع رقعة الإمبراطورية ، وقد كان القائد الروماني في سورية يحس حصر
البيط ويحمد أن وجودهم في دمشق شوكة في جسده ، فجمع الحيوش الرومانية

ليستولى على دمشق ويحصد تلك الشوكة .

ودارت معركة بين الرومان والعرب خارج أسوار دمشق ، وتحركت الفياق الرومانية بأسلحتها الثقيلة تشق صفوف مرسان البيط ، واشتد القتال واستبسل العرب في الدفاع وسقط الصناديد صرعى وتكسرت المقاومة أمام الموج الرومانى المتدفق فتقهقر العرب ليتحصنوا في المدينة .

ووصعت السلام على أسوار دمشق وصب الریت المغلى على رؤوس الرومان المهاجمين ، وتطايرت السهام ودارت المعارك فوق الأسوار ، وانتهى الأمر بأن فتحت أبواب دمشق وسقطت في أيدي الرومان وصارت مرة أخرى في حوزتهم .

كان ذلك في العام الثاني والستين من مولد السيد المسيح ، وكان نيرون في ذلك الوقت يعزف على أرغن مائى جديد في قصره وأكابر الفنانين والشعراء والشيوخ يصغون إليه ويرقبون أن ينتهى من عرفة ليعقد المأزاة بيه وبين الفنانيين ، ويقارن بين صورته وصورهم ، ويستمع إلى أشعار الشعراء ويقرأ على الجميع شعره .

وحمل بولص إلى روما وذهب إليها بطرس ليدعو الرومان واليهود إلى الدين القويم ، ولما كان نيرون يسحر من كل دين فقد صلب بولص ويطرس ثم ذهب إلى ملهى بمبى العظيم في روما يغنى ويضرب على اعود ويشد قصائد من نظمه ، وقد اغتبط النظارة إذ شاهدوا الإمبراطور يعى بتسلينهم ويركع على المسرح تحية لتصفيقهم .

وفي اليوم الثامن عشر من شهر يوليو عام ٦٤ شبت النار في مصمار السباق ثم انتشرت انتشارا سريعا ، وقد ظلت مشتعلة تسعة أيام حتى انتهت ثلثي (العديون)

روما ، وقد كان نيرون غائبا عنها فلما وصنه النبا أسرع بالعودة إليها فلغها بينما كانت قصوره القائمة على تل اللاتين طعمة للتيران ، ولم يحزن لما رأى فقد كان يحلم بأن يعيد بناء روما وأن يخططها تخطيطا علميا على نسق الإسكندرية ، وأن يسميها نيرو بوليس (مدينة نيرون) وقد واثته الفرصة . هلك آلاف من السكان بين أقباض المبالى المتهدمة في الشوارع المردحة ، وهام مئات الآلاف على وجوههم في الطرقات أثناء الليل لا يجدون لهم مأوى وقد ذهب الرعب بعقولهم وهم يستمعون إلى الشائعات القائلة بأن نيرون هو الذي أمر بإشعال النار في المدينة ، وبأنه يشتر المواد الحارقة فيها ليجدد ما خبا منها ، وبأنه يرقها من برج ماسيلاس وهو يشد على نغمة القيثارة ما كتبه من الشعر عن سب طروادة .

واتهم نيرون المسيحيين بأنهم هم الذين أشعلوا النيران في روما فراح يعذبهم ويزدرى بهم ، فألبس بعضهم جلود الوحوش وتركوا تلتهمهم الكلاب ، وسمر غيرهم في الصليبان ودفن الكثير منهم أحياء ، ودهنت أجساد البعض الآخر بالمواد المنتهية وأشعلت فيها النيران لتكون مشاعل في الليل .

ولم يكن إنجيل المسيح قد كتب بعد ، كان في صدور المؤمنين ، وقد كان بولص أول من سجل آراءه في رسائله التي بعث بها من سجنه وقد كانت أغلب آرائه فاسدة لا تتفق مع دعوة المسيح ، فلما انتشر القتل بين المسيحيين رأى بعض العيوريين من المؤمنين أن يسجلوا أقوال السيد المسيح ، فلم يجتمعوا ليجمعوا الإنجيل من الصدور بل راح كل منهم يكتب إنجيلا على هواه ، فكتب من شهد المسيح وألقى إليه سمعه ما قرأ في ذاكرته من أقوال الرسول الكريم ، ومن هؤلاء برنابا ، وكتب من لم يسمع المسيح ولم يره ما تناقله الناس من

سيرته ومن هؤلاء لوقا وقد كان طبيبا أنطاكيا لقى الصرانية على يد بولص .

ولم تنح أغلب الأناجيل التي كتبت في ذلك الوقت — وقد بلغ عددها خمسة وسبعين إنجيلا أو يريد — من مراعم بولص ، بل لقد بولص الصلاة واقتبس من الديانات الوثنية ما يشاء ، فلم يكتف بأن أعاد أسطورة بعل وجعل المسيح مكان بعل بل راح يستعير من قدماء المصريين صلواتهم ، كانوا يقولون : « لما كان أريس يحيا حقاً فسوف أحيا . لما كان أريس لن يموت فس أموت » . فابتدع بولص تلك البدعة في المسيحية ، فراح المسيحيون يقولون في صلواتهم : « لما كان المسيح يحيا حقاً فسوف أحيا ، لما كان المسيح لن يموت فلن أموت » .

وراحت القصص التي كانت تروى في المعابد القديمة يعاد صياغتها بحيث يصبح المسيح هو بطل تلك القصص التي تقيص بالوثنية ، فصار المسيح مكان أريس القراعين وبعل البابليين والسوريين وبرومثيوس اليونانيين وآلهة الوثنيين ، وفسدت المسيحية ولما ينقص على ولادة المسيح قرن واحد وحوار الناس بين القائلين بالتوحيد والتثليث . وقلت النصراني المسيح ابن الله ذلك قولهم بأقواهم يصاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ، اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم ، وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون .

وقد صدق فيهم قول اسيد المسيح : « يقترب إلى هذا الشعب بعمة ويكرمى بشفتيه ، وأما قلبه فمتعد عني بعيدا وباطلا يعبدونى » .

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن أعبدوا الله ربي وربكم وكنتم عليه شهودا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . »

وضع التاج في البتراء على رأس « رب إيل » ولما كان صغيرا فقد راحت أمه شقيلة تصرف أمور المملكة يعاونها في ذلك أخوها أنيس ، وقد كان للملك شقيقتان جميلة وهاجر ، فكان البلاط النبطي يدار على هوى نسوة الأسرة الحاكمة ، ولكن قوافل التجارة كانت تنتشر في الأرض فكانت حيرات الدنيا تجلب إلى العاصمة التي أرادت أن تنافس روما .

كان الرومان قد انتزعوا دمشق من أبدي النبط ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على منافستهم التجارية ، وكان حكام البتراء يحسون خطر إحاطة الرومان بمملكتهم ووقعهم في طريق جيوش العدوين اللدودين : الرومان والفرس ، فكانوا متأهبين على الدوام للدفاع عن مملكتهم ، وقد أثر التسليح وربط الجيوش على ميزانية لدولة النبطية .

وقد كانت الحالة الدينية في مملكة النبط لا تختلف في كثير ولا قليل عن الحالة الدينية في إمبراطورية الرومان ، كان رب إيل وأمّه شقيلة وأختاه جميلة وهاجر وحاله أنيس ورجال المملكة قصي بن أذينة وهاف وجولة يقيمون المراسم الدينية في « ذو الشرى » ، كما كان نيزون ومن جاء بعده يقيمون المراسم الدينية في الكايتول ، إلا أن الدين رغم هذه المظاهر قد دب فيه ديب الفناء ، وقد رعرع إيمان الرومانيين تأليه محس الشيوخ للأباطرة وما كان ذلك دليلا على إجلال الطبقات العليا لحكامها على قدر ما كان شاهدا على قلة

إجلالها لآلهتها

أخذت الفلسفة تمحو العقائد الدينية من قلوب المتعلمين ، ولم يجد الشبان الأثرياء الذين ذهبوا ليتزودوا بالدراسات العليا في أثينا والإسكندرية ورودرس ما يزيد إيمانهم بالدين ، وراح الشعراء يسخرون من الآلهة وراح الناس يقولون إن الآلهة من نسج الخيال .

وكانت شواهد القبور تشهد بانغماس الناس في الشهوات ، فقد كتب على واحد منها : « لم أكن ، لقد كنت ولست بكائن ولا أبالي » وكتب على شاهد آخر : « لم أكن قد وجدت ، لست موجودا ، لست أدري » ، وكتب على شاهد ثالث : « لم يكن لي إلا ما أكلت وشربت ، لقد تمتعت بحياتي » وكتب على شاهد آخر « لا أومن بشيء وراء القبر » ويؤكد شاهد غيره : « العناصر التي تكونت منها تعود مرة أخرى إلى أصولها ، إن الحياة عارية تعار للإنسان وليس في مقدوره أن يحتفظ بها إلى أبد الدهر ، وهو إذا مات يرد ما عليه من دين إلى الطبيعة ».

كان الشك يسود ممكة السط وإمبراطورية الرومان على السواء ، وقد شب رب إيل وتزوج وأمر بضرب اسم روحه جمية مع اسمه على النقود ، وقد عرف « بسو طر » واهتم بالتجارة واشتدت مافسة الأنبط والعرب والمرس للرومان ، وكان لا بد أنه يقصى طرف من الأطراف على منافسيه يحلوه له وجه الأرض .

كانت الأساطيل التجارية تجرى في البحار والمحيطات ، وفي ذلك الوقت وقعت أروع المعامرات ، وقد كتب بحار من أهل الإسكندرية كتاب « الطوف بالبحر الأريتري » فكان دليل التجار الذين يتجرون بين ثغور

ساحل إفريقية الشرقى والهند . وكان غيره من الملاحين قد ساروا في المحيط الأطلنطى إلى بلاد غالة وبريطانيا وألمانيا ، بل إنهم قد وصلوا إلى إسكندناوة وروسيا .

كان النبط والعرب والفرس يحتكرون تجارة نصف الكرة الشرقى ، وكان الرومان يحتكرون تجارة نصف الكرة الغربى ، ولم يرض ذلك مطامع الرومان فقد كان الأباطرة يحملون بالاستيلاء على الدنيا وإقامة دولة عالمية عاصمتها روما .

كان الشك الدينى يسرى في أوصال الدولة الرومانية ، ولكن الشك مهما يكن فيه من إحلاص لا يمكن أن يجل محل الإيمان ، ولم يجد المجتمع الرومانى بين ملذاته كلها سعادة ما بل سئم ما فيه من نعم واستفد قواه فيما ساده من دعاراة . وظل الفقراء والأغنياء على السواء معرضين للألم والحزن والموت ، ولم تستطع الفلسفة أن تهيب الرجل العادى إيماننا يخفف عنه شعوره بفقره ويشجعه على تهذيب خلقه ويواسيه في أحزنه ويبعث الأمل في قلبه .

كان الناس يحتاجون إلى وحي يوحى إليهم ولكن الدين لم يهبهم إلا طقوسا ومراسم ، كانوا يطلبون خلودا وحياة بعد الموت ولكن دينهم جاءهم بدل هذا بألعاب ، فكانوا في الأعياد يشاهدون صراع الثيران والآدميين والقاء انبيد الآقين إلى الأسود وحرق المقضى عليهم بالموت وهم أحياء .

وشعر الناس الذين جاءوا من بلاد أخرى عبيدا وأحرارا أنهم محرومون من عباداتهم القومية ، فجاءوا بأهتهم وأقاموا لها هياكل خاصة بها ، فغرسوا في قلب بلاد العرب دين الشرق ، وبدأت بين عقائد الفاتحين وإيمان المهرومين حرب لم تنفخ فيها أسلحة الجحافل الرومانية ، وكانت حاجات القلوب هي

التي قررت لمن يكون الفوز .

وبدست إيريس المصرية إلهة الأمومة والإخصاب والنحارة الإلهة روما والأم العظمى ، وأقيم لها هيكل بضم في ميدان المريح ، وراح كهنتها يحمسون في عيدها تمثال أتوبيس القرد إنه المصري .

وجاءت من هيربوليس الإلهة أرجانس الإلهة السورية ، وجاء معها عزيز وعرف « بربوس دلوكي » كما عرف في أرض العرب « بالعرى » ، وجاء من فارس عدوة روما اللود عبادة مثر إلهة الشمس ، وكان عبادها يعتقدون أنهم جود في الحرب الكونية العظيمة حرب الضياء على الظلام وحرب الخير على الشر . وفي خضم ذلك الاضطراب الديني جاءت المسيحية من الشرق تتسلل إلى المجتمع الروماني المتعطش إلى الإيمان لتنشر سلطانها على الجميع . وتولى السلطة في روما تراجان ، ولما كان قد نشأ في مهاد الحرب فقد كان استعماريا صريحا يفضل النظام على الحرية والقوة على السلم . ولم يكذب على على قدومه إلى روما عام واحد حتى خرج لفتح داشيا ، وكانت داشيا هي رومانيا الحالية وكان ضمها إلى امبراطوريته يمكنه من الاستيلاء على الطريق الذي يوصله إلى الشرق .

وحقق تراجان أمنه ثم عاد إلى روما وأمضى ست سنوات يسي القصور والحمامات ، وهل السلم فراح يفكر في أن يضع للحرب بين العرس والرومان حلا نهائيا بأن يجعل للدولة الرومانية حدودا أكثر ماعة وصلاحية من جهة الشرق ، ويسيطر على الطرق التجارية من أرمينية وآسيا الصغرى إلى أواسط آسيا والخليج الفارسي وبلاد الهند .

كان رب إين ملك النبط قد قضى نحبه وكان مالك الثالث قد تربع على

عرش البلاد ، وما كاد ينتهى من احتفالات التتويج حتى بلعه أنباء خروج تراجان على رأس جيشه قاصدا الشرق .

وتأهب العرب للقتال فأخرجوا كل ما فى البتراء من سلاح ، وهب الشباب للدفاع عن البلاد وشحنت الصخرة بالمقاتلين والفرسان ، وجاءت الهياكل الرومانية بقضها وقضيضها ، ودارت الحرب بين النبط والرومان والتقى الفرسان ، واستبسل الأنباط فى القتال واشتد ضغط الرومان وراحت الرايات تتقدم والنسر الرومانى خفاق فوق الرعوس ، وسقط العرب صرعى وسالت الدماء أهارا فراح جنود النبط يلتفتون مذعورين ثم ولوا الأدبار .

ودب الدعر فى البتراء صخرة العرب وهام الناس على وجوههم فارين وحملوا ما استطاعوا أن يحملوه من أموال وأصنام الآلهة وتفرقوا فى كل طريق ، ذهب بعضهم إلى دومة الحنديل وانطلق آخرون إلى مكة ، إلى حرم الله إلى البيت العتيق حيث يأمن الناس والطير .

وتدفق الجيش الرومانى من بين الجبلين الشاهقين فى وادى موسى إلى انسهل المبسط الذى قامت فيه حضارة النبط وراحوا يصعدون إلى الجبل حيث أقيمت معابد الآلهة ، وسرعان ما استتب الأمر للرومان وققدت مملكة النبط حربتها ، وأصبحت الكورة العربية يحكمها بالما قائد تراجان وقد ضمت إلى الولاية السورية .

وقضى على ملك بنى إسماعيل وتقلصت دولتهم حتى تركزت حول الحرم تنتظر بعث ذلك الرسول الذى سيعيد إلى العرب وحدتهم ويرد عن دولتهم المحتدين ويجعل رايهم حفاقة على العالمين .

كانت مكة واحة الإيمان في صحراء الوثنيات التي عطت وجه الدنيا ، لم ترفض عقول أبنائها الإيمان بالله وحده ، فلم يعرضوا عن السماء ليحاولوا إقامة المدينة الفاضلة على الأرض ، بل أسلموا وجوههم لله .. فظلت شعلة الدين متألقة في جنباتها وصارت مرفأ هادئاً للخائفين واللاذنين بحرمها يجدون الأمن والسلام ، بينما يتخطف الناس من حولهم .

بقي جوهر لدين فيها فحل الإيمان محل السطان وعاش أهلها سعداء ما داموا في كنف الله ، وإن تقوض كل ما تصوره الناس من مدن فاضلة في الدول التي حولها لاستمرار الأقوياء في استغلال الضعفاء والاستبداد بهم .

ونجح إلياس في القضاء على البدع التي كانت قد بدأت تنسرب إلى الدين فجدد مله إبراهيم شباهها واشتعلت المèche الروحية في صدور المؤمنين مرة أخرى . وعاش ابنه قمعة بن خندوف في ظل النهضة الدينية التي بعثها أبوه عيشة سعيدة راضية ، وشب لحى بن قمعة في رمن اردهرت فيه تجارة مكة وتكدست في بيوت أشرافها الأموال من ذهب وفضة .

وجاء عمرو بن لحى بعد أن طال على الناس العهد وفترت حماسهم الدينية وأخذت أساطير الشعوب تفد إلى مكة مع التجار الذين كانوا يعبدون الله على حرف ، وألقى الناس أسماعهم إلى القصص التي كانت تروى عن آلهة الشعوب من نبط وآراميين ومصريين وبابليين وفرس ومسيحيين .

وتلفت عمرو بن لحي فألقى نفسه غنيا مسموع الكلمة في قومه ، فلما جاء أوان الحج نحر في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا الناس عشرة آلاف حلة ، ففتن الناس به وأقبلوا عليه يعظمونه ويقرون له بالسيادة عليهم .

وتملك عمرو الغرور فراح يتدع لقومه البدع ، وكان لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة ، ولما كان يملك من النوق ما لا يعد ولا يحصى وكانت غنمه تغطي مراعى مكة فقد راح يشرع في النوق والغنم !

قال : إن الناقة إذا تابعت بين عشر إناث ليس بينهن ذكر سيئت فلم يركب ظهرها ، ولم يجز وبرها ، ولم يشرب لبنها إلا ضيف ، وعرفت هذه الناقة بالسائبة .

ولما كان غنيا لا يدري كيف يملأ فراغ حياته فلم يكتف بما شرع ، بل راح يفكر في تشريع آخر ما دام قومه أصاعوه واتخذوه قدوة ، فقال : ما أنتجت اسائبة بعد ذلك من أنثى شقت أذها ثم خلى سبيلها مع أمها ، فلم يركب ظهرها ولم يجز وبرها ولم يشرب لبنها إلا ضيف كما فعل بأمها ، وعرفت هذه الناقة بالبحيرة بنت السائبة .

ورضى قومه بما ابتدع لهم من بدع فعالي في التشريع فقال : الشاة إذا أتمت عشر إناث متابعات في خمسة أبطن ليس بينهن ذكر جعلت وصيلة ، فما تلد بعد ذلك فلذلك ذكر البنين دون البنات ، إلا أن يموت منها شيء فيشترك في أكله ابنون البنات .

قال : إن الفحل إذا نتج له عشر إناث متابعات ليس بينهن ذكر حُمى ظهره فلم يركب ولم يجز وبره ، وحلى في إبله يضرب فيها لا يتبع منه بغير ذلك وعرف ذلك الفحل بالحامى .

وراح يحرم ويحلل ويشرع في الشاة التي تد اثنين في كل بطن فيجعل
 الإناث لله والذكور لصاحبها ، وعرف العرب لأول مرة السائية والبحيرة
 والوصيلة والحامى وآمروا بأن ذلك من عند الله « ما جعل الله من بحيرة ولا
 سائية ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب
 وأكثرهم لا يعقلون » . « وقالوا ما في بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا
 ومحرم على أزواجنا وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء سيجزيهم وصفهم إنه حكيم
 عليم » . « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من ررق فجعلتهم مه حراما وحلالا قل
 الله أدن لكم أم على الله تفترون » . « من الضأن اثنين ومن المعز اثنين قل
 الذكركين حرم أم الأنثيين أمّا اشتملت عليه أرحام لأنثيين نيتوني بعلم إن كنتم
 صادقين . ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين قل الذكركين حرم أم الأنثيين أمّا
 اشتملت عليه أرحام الأنثيين أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله هذا فمن أظلم ممن
 افترى على الله كذبا ليصل الناس بغير علم إن الله لا يهدي القوم الظالمين » .
 وعجز عمرو بن لحي عن أن يحدد دين إبراهيم أو أن يدعو إلى مذهب
 فلسفى فراح يشرع في الإبل والضأن والمعز والبقر ، وكانت مكة تعيش في
 غيبة دبية فاقادت إليه دون تفكير .

وخرج عمرو في القافلة المطلقة إلى الشمال تحمل تجارة مكة وهو مستفح
 الأوداح غرورا يحيط به خدمه وحشمه وبعض المعجبين بثرائه العريض ، وقد
 أطلق العنان لعقله السقيم فراحت تداعيه فكرة أن يعود من أرض البط أو أرض
 ثمود أو من البلقاء بيدعة جديدة .

وبلعت القافلة أرض النبط وراحت تساب في البتراء عاصمة أول من
 أشركوا بالله من أبناء إسماعيل ، فألقى معايد « دى الشرى » و « اللات »

و « العزى » و « رب البيت » و « موتن » إلهة المايا والحظ غاصة بالعبدين والطائفين والركع السجود ، فقال للقوم :

— ما هذه الأصنام التى أراكم تعبدون ؟

— هذه أصنام نعبدها ، نستطرها فتمطرنا ونستصرها فتصبرنا .

— أتعبونها من دون الله ؟

— ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى .

— وما اللات ؟

— زوجة الإله .

— وما العزى ؟

— ابنته .

— وموتن ؟

— ابنة أخرى . هن بنات الله وهن يشفعن إليه .

ولم يكن أمرا سهلا أن يشرك عمرو بن لحي بالله ، فراح يحاور القوم :

— أتنتفعكم هذه الأصنام ؟

— ما عظمها آباؤنا إلا لأنها ترقق وتضع وتضر

وغادرت القافة أرض لببط وانطلقت فى القضاء ، وراح الحادى يحبو بالغاء فذب النشاط فى الإبل بعد الكلال وأطلق عمرو بن لحي لحياله العنان يفكر فيما رأى فى معابد بنى إسماعيل بعد أن أضحوا كورة رومانية ويتردد فى مسامعه ما ألقى إليه من القوم : « اللات زوجة الإله .. العزى ابنته : إنها كوكب الصباح .. موتن إلهة الحظ والمايا .. إلهس العرايق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » .

وراح عمرو بن لحي يقاوم ما يوسوس به شيطانه ، إنه يغريه بأن يحمل صما من هذه الأصنام وأن يضعه في جوف الكعبة ويأمر المكين الذين اتخذوه رباً لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة أن يعبدوا ما جاءهم به من الأصنام ، ولكنه كان يجاهد أن يصم أذنيه عن همزات الشيطان .

وانتهرت أنفاسه من الجهد ونصب من العرق فقد وضع أصابعه في أذنيه ، ولكن الإغراء كان ينبعث من جوفه ويمتلئ به صدره ويعذيه غروره ، وما إن دخلت القافلة مؤاب حتى انهارت مقاومه وأسلس لشيطانه قياده .

ورقف عمرو بن لحي أمام صنم هبل طويلاً وراح يحاور القوم ثم قال لهم وهو يحاورهم :

— أفلا تعطوني صماً فأسير به إلى أرض العرب فيعبده ؟

وعادت القافلة إلى مكة تحمّل صنم هبل ووضع عمرو بن لحي عند البئر في جوف الكعبة وأمر الناس بعبادته وتعظيمه ، فانتقاد الناس إليه بعد أن طال عليهم الأمد وقست قلوبهم .

وتفتح عمرو بن لحي باب الشرك بالله في الأرض المقدسة التي ظلت منارة التوحيد منذ أقام إبراهيم الفواعل من البيت وإسماعيل ، وأصبح استيراد الأصنام من الأراضي المجاورة بدعة محبة إلى نفوس القوم ، بل تنافسوا فيها تنافسهم في التجارة فاستورد عمرو بن لحي اللات ونصب تمثالها بالطائف ، واستورد ظالم بن أسعد العزى وأقامه بوادي حراض بإزاء النمر عن يمين المصعد إلى العراق من مكة فوق ذات عرق البستان بتسعة أميال ، ولم يكتف بذلك بل بنى فوقها بيتاً .

وراح عمرو بن لحي يقول لقومه .

— ربكم يتصف باللات ليرد الطائف ، ويشتر بالعزيز لحر نامة !
وجلب عمرو بن لحي صنم موتن إلهة لمايا واحظ ، ولما لم يكن نطق
اسمها ميسورا فقد أطلق عليها العرب « ماة » .

وعلى مر الأيام جاء صنم مناف من ثمود ، وكان على صورة رجل لالحية
له ينحدر على عارضيه شعر رأسه الصاعى المرموز به إلى الآلهة الشمسية ،
فقد عاد العرب جميعا إلى عبادة الكواكب والحجور بعد أن عرفوا الله وحده ،
وجاء التجار بأصنام آلهة المصريين والآراميين والبابليين ووضعوها في جوف
الكعبة ، حتى تكس أول بيت وضع للناس بثلاثمائة وستين صنما !

وهبت عواصف الشرك بالله على واحة الإيمان فطمرتها ، وكان عمرو بن
لحي أول من فتح أبواب الشرك لتدفق أساطير الشعوب إلى مكة وتغمر
الحقيقة الناصعة ، حقيقة أن لهذا الكون ربا واحدا لا شريك له يده الملك وهو
على كل شيء قدير .

خول الله عمرو بن لحي نعمة منه فلم يشكر الله على نعمته ، بل راح يملأ
فراع حياته بالتشريع في الإبل والعنم والمعر والبقر ، يحلل ما يشاء ويحرم ما
يشاء ، ولم يكتف بذلك بل جلب من أرض الشرك الأصنام لتعبد مع الله في
الوادى المقدس . وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة مه
نسى ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليصل عن سبيله قل تمتع بكفرك
قليلًا إنك من أصحاب النار .

ظل البيت مقدسا في مكة يطوف به ارجال قبل أن يطلقوا إلى أعمالهم في الصباح ويطوفون به قبل أن يعودوا إلى دورهم في المساء ، ولكن البيت الذي أقام إبراهيم قواعده وإسماعيل منارة للتوحيد غص بالأصنام التي جلست من مصر والشام والعراق ، والتي عاد بها النبط من بلادهم فرارا من وجه تراجان واضطهاد الرومان بعد أن صارت مملكة البسط — أحفاد نابت بن إسماعيل — كورة تحت حكم قياصرة روما .

وساد مكة تسامح ديني مكر لبدعة الوثنية أن تتسلل دون كفاح إلى معقل التوحيد ، وانعدم ظهور العباقرة المكافحين عن دين الآباء أو ابتدع فلسفة جديدة تغذى أرواح المريدين ، ورهد في الحكم أولئك الدين يقتضى الأمر أن يحكموا وأن يكونوا للناس قدوة ، وصارت ولاية لبيت وضيعة دينية لها بريقها وسحرها ولكنها فقدت سلطانها الدنيوى على المكيين .

وأسنت الحياة الدينية في مكة وكثرت أوقات الفراغ عند العرب ، فاهتموا بالعبادة وهي تتبع آثار الأقدام والأحفاف والخوافر حتى قيل إن بعضهم يفوق بين أثر قدم الشاب والشيخ وقدم الرجل والمرأة والبكر والثيب ، واهتموا بقبافة الشر للاستدلال بهيئات أعضاء الشخصيين على المشاركة والاتحاد بينهما في النسب ، واهتموا بالمراعاة للاستدلال بهيئة الإنسان وأشكاله وألوانه على أخلاقه ومصائله ورذائله ، وتعلموا الكهانة والعرافة هادعى الكهان علم الغيب وراحوا يحبرون بما سيقع في الأرض من أحداث ، وكثر

المنهمون بالرجز والعيافة وهو الاستدلال بأصوات الحيوان وحرركاتها وسائر أحوالها على الحوادث واستعلام ما غيب عنهم ، فإذا رأوا اندلاع لسان ذئب فهو لسان عرول همه سمك الدماء ، وإذا رأوا برقاً ومطراً فهو دم سائل ، وإذا رأوا عمايا مفضا على عقاب فتشابهكا وهو ياء إلى الأرض فهو قتال جمع وجمع ، وراحوا يزجرون الطير فما تيامس منها وأخذت ذات اليمين سموه سانحاً وتغافلوا به ، وما تيامس منها سموه بارحاً وتشاءوا منه ، فساد مكة الوثنية والحرافات والموت في الحياة ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وجيء بصنم رجل ووضع عند بئر زمزم المطمورة أمام باب الكعبة ، وجيء بصنم امرأة ووضع على بعد أمتار من الصنم الأول ، وكان لا بد أن يسمى هذان الصنان ، فكان الرجل إساف وكانت المرأة نائلة .

ولما كانت الشعوب لا تكتفى بالأسماء بل لا بد من تاريخ يروى حول الأسماء التي قدر لها أن يكون لها نصيب في الحياة العامة ، فقد نسج الناس أسطورة حول إساف ونائلة وراحوا يرددونها على مر العصور تقول إنهما كانا رجلاً وامرأة من جرهم انتهرا خلوة في البيت المحرم وفجرا فيه فمسحهما الله تعالى حجرتين ، ولم يحطم الناس الحجرين اللذين كانا إنسانين أحدثا في أظهر بقعة في الأرض وإنما راحوا يحرقون عدهما القرابين التي يقدموها لآلهتهم تكفيراً عن خطاياهم !

واتخذ أهل كل دار في دارهم صنماً يعبدونه ، فإذا أراد الرجل منهم سفراً تمسح به حين يركب ، فكان ذلك آحر ما يصنع حين يتوجه إلى سفره . وإذا قدم من سفره تمسح به ، فكان ذلك أول ما يبدأ به قبل أن يدخل على أهله .

(العُذنانيون)

وانخذ أهل مكة مع الكعبة طوافيت وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة لها
سدنة وحجاب ، ويهدون لها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كطوافهم بها ،
وينحرون عندها ، ولكنهم كانوا يعرفون فضل الكعبة عليها فهى بيت أبيهم
إبراهيم الخليل ومسجده .

وظل أهل مكة يعرفون الله ولكنهم عبدوا معه ما جاءوا به من أصنام
ليقربوهم إليه زلفى ، وكانوا يحجون على مر السنين ويقعون المواقف ، وقد
عبروا فى التلبية لتلازم حالة الشك التى أسسوا فيها فكانوا يلبون :
لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك ، إلا شريك هو لك ، تملكه وما
ملك .

وكان الطواف يبدأ باستلام الحجر الأسود ، فلما جرى بإساف ونائلة
أصبح الطواف يبدأ بأن يستلم الطائف إساف ثم الركن الأسود ، ثم يأخذ عن
يمينه ويطوف ويجعل الكعبة عن يمينه ، فإذا ختم طوافه سمعا استلم الركن ثم
استلم نائلة فيحتم بها طوافه !

وفسد الدين فى مكة ولكن الناس كانوا يجتمعون فى الحرم ويتناقشون فى
أمر الدين ، فما كان المكيون بقادريين على أن يعيشوا بلا دين والبيت المحرم
يربط بينهم وبين السماء . واشتدت الخلافات بينهم فمن قائل بأن خالقا خلق
الأفلاك غير أنها تحركت أعظم حركة فثارت عليه وأحرقته لأنه لم يقدر على
ضبطها وإمساك حركتها ، وأن الأشياء ليس لها أول ألأبته وإنما تخرج من القوة
إلى الفعل ، فإذا خرج ما كان بالقوة إلى الفعل كوت الأشياء مركباتها
وبسائطها من دأبها لا من شئ آخر . ومن قائل بأن العالم لم يزل ولا يزال
ولا يتغير ولا يضمحل مع فعله ، وهذا العالم هو المسك لهذه الأجراء التى

فيه ، ومن ظل على دين إبراهيم يعرف الله ويعبده وهؤلاء هم الأتقياء الخنفاء .
كان الخنفاء يؤمنون بالبعث ، وكن فريق ممن جعل الله شركاء يؤمنون
بالبعث أيضا ويعتقدون أن الناس يحشرون ركبا ، فكانوا يتركون دابة الميت لا تعلف
ولا تسقى حتى تموت جوعا وعطشا وقد عرفت بالبليّة ، فإذا جاء يوم الدين
بعثت ناقته معه فيركبها كما كان يفعل في الدنيا .

ومات خزيمة بن مدركة ، فدخل ابنه الأكبر كنانة على نساء أبيه ، فطرح
ثوبا على زوج أبيه برة بنت مر أخت تميم بن مر فصارت زوجه ، ليحافظ على
خصائص دم الرعمة في الأسرة كما كان يفعل الفراغة برواج الأخ من الأخت
ليحافظوا على الدم الملكي ، ولكن العرب كانوا يكرهون ذلك الزواج
ويطلقون عليه رواج المقت .

وذاع في بلاد العرب اسم كنانة فقد اشتهر بحديثه على الناس وحكمته ،
فراحوا يشدون الرحال إليه ليستشيروه في أمر دينهم ، وكانوا يستريحون إلى
فضائه ومستره لأموهم كستر الكنانة للسهم فاشتهر بينهم بكنانة ، ومن
يدري فلعل أباه قد سماه باسم أبيه وعلبت عليه شهرته كما هو الحال في أغلب
رجال العرب ونسائها .

وأنجبت برة بنت مر لكنانة النضر ومالك وملكان ، وأنجبت له هالة بنت
سويد بن الغطفريق عبد مائة ، ومرت السنون وتفرق أبناء عدنان في البلاد
فلحق بعضهم بالسط الذي لاذوا بدومة الجندل ، وذهب بعضهم إلى اليمن ،
وانطلق آخرون إلى الحيرة وإلى الكورة العربية وإلى سيناء .

ومات كنانة وأصبح النصر رعيم الكنانيين ، وقد عرف بالنصر لضارة
وجهه وحسنه ، فقد علبت عليه صفته كما غلبت على من سبغوه .

وتلفت النضر فوجد شباب العدنانيين من برايين ومصريين وكنانيين قد هجروا البيت وتمسحوا في البلاد ، وأن تجارة مكة تأثرت بتلك الهجرات ، فعزم على أن يعيدهم إلى مكة وأن يجمعهم في الحرم ليجدد شباب أم القرى وليعيد لها مكانتها ، فأوفد النضر السفارات إلى الذين هجروا البيت يخبرهم بالعودة إلى الأرض التي بارك الله فيها للعالمين .

وعادت الأسر التي غادرت مكة إلى الحرم ، وجمع النضر في أن يجمع الشمل ، وأفعم السرور القلوب وتهللت الوجوه بالفرح لما تقرش (تجمع) العدنانيون مرة أخرى في المسجد الحرام ، فالتفوا إلى النضر بن كنانة الذي كان له الفضل في تقرشهم (تجمعهم) وقالوا : قريش .

التذيل

ذكرت في مقدمة الجزء الأول أني أردت بهذه السيرة أن أفسر التاريخ تفسيرا روحيا ، وأن أطهر ضمير الإنسان من أدران المادية الطاغية ، وأن أعيد إليه رهايته التي بلغت غايتها في ظل الدين ؛ واننا لو سرنا عبر التاريخ مذ خلق الله آدم لوجدنا أن قسم الحضارة الشاغحات قد كونتها نفحات روحية ، رفعت الإنسان فوق مطالب الأبدان وضرورات العرائز وما تهو إليه النفوس فأعادت إليه كرامته وسموه ، ودفعته في مدارج الرق ليال خيري الدنيا والدين .

خلق الله آدم ليكون حليمته في الأرض « إلى جاعل في الأرض خليفة » (١) وقد كان آدم قبل أن يهبط إلى الأرض على علم : « وعلم آدم الأسماء كلها » (٢) . فلما هبط إلى الأرض كان يعيش مع الله وبالله وفي الله ، وراح يعلم أبناءه ما يعلم ، ويبنى أول مجمع بشري على أسس سليمة ، ويلقن درسته أن كل عمل يوزن في ذاته كما يوزن من حيث صلته بخالق الكون والناس ، لأن كل إنسان سيسأل عما يفعل يوم القيامة .

وتعلم بنو آدم أن الملك لله ، وأن المال مال الله ، وأن الله جعل الناس مستخلفين في ماله ، وغرست في وجدانهم قيم خلقية أسمى من اواقع لأرصى

(٢) البقرة ٣١ .

(١) البقرة ٣٠ .

المستمر في الجريان .

واستمر التطور التاريخي ، وطال على الناس العهد فبعدت انشقة بينهم وبين السماء فقسفت قلوبهم ، فجعلوا لله أندادا ، ولما كان الله قد كتب على نفسه الرحمة فإنه جل جلاله لم يعذب الناس بكفرهم ، بل بعث إليهم رسلا ليعيدوهم إلى الصراط المستقيم : « وما كنا معدين حتى نبعث رسولا » (١) . « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد » (٢) . وكان الرسل يدعون إلى سبيل ربهم بالحكمة والموعظة الحسنة : فإن آمن الناس كانوا ينالون عز الدنيا والآخرة ، وإن لجوا في الكفر كان الله يذهبهم ويأتى بخلق جديد « إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد » (٣) . سنه الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقد بعث الله إدريس في مصر قبل عصر الأسرات يدعو الناس إلى عبادة الله وحده ، ويقول لهم إسمهم مبعوثون ليوم عظيم ، فأمس المصريون بالله واليوم الآخر وبنوا حضارتهم على قيم روحية هذبت ضماثرهم وجعلتهم يعملون للدنيا والدين ، وقد أقاموا الأهرام وأضخم ما عرف التاريخ من مقابر استعدادا ليوم البعث ، يوم لا يفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم . وصارت مصر الفرعونية كما قال ول ديورنت في قصة الحضارة تعيش بالدين ولدين : « لقد كان الدين في مصر فوق كل شيء ومن أسفل كل شيء ، فتحن نراه في كل مرحلة من مراحله وفي كل شكل من أشكاله : من

الطوطم (عبادة الأحجار التي لا شكل لها) إلى علم اللاهوت ، ونرى أثره في الفن وفي الأدب وفي كل شيء . »

وبني إدريس الكعبة على قول الصابئة لتكون منارة للتوحيد ، « إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة »^(١) . ونزل الله على عبده الكتاب وعرف عند الصابئين « بكنزة » ، وسار اناس على هدى كتاب الله يقطعون في سبيل ربي البشرية أشواطاً .

وطال على الناس الأمد وقست قلوبهم فأشر كوا بالله ثم عبدوا ما ينحتون ، عبدوا في أرض العراق ودأ وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا ، فأرسل الله إليهم نوحاً : « إيا أرسلنا نوحاً إلى قومه أن أنذر قومك من قبل أن يأتهم عذاب أليم . قال يا قوم إني لكم نذير مبين . أن اعبدوا الله واتقوه وأطيعون . يغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى إن أجل الله إذا جاء لا يؤخر لو كنتم تعلمون »^(٢) .

وراح نوح يدعو قومه ليلاً ونهاراً ، يدعوهم جهاراً ويناجيهم ويمنهم ويخوفهم ، فكان كلما دعاهم جعلوا أصابعهم في آذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكباراً . وقطع من هداية قومه ، « وقال نوح رب لا تدر على الأرض من الكفار ديراً . إنك إن تدرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً »^(٣) ، فاستجاب الله دعوة رسوله وأغرق قومه الذين أرادوا بظلمهم أن يعرقلوا سير موكب الحضارة : « وكم قصصنا من قرية كانت ظالمة

(٢) نوح ١ : ٤

(١) آل عمران ٢٦ .

(٣) نوح ٢٦ : ٢٧

وأنشأنا بعدها قوما آخرين^(١) ، وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون^(٢) .

وقامت في بابل حضارة تركز على الدين وسواعد المؤمنين ، فاردهرت بابل وست أكثر من لبنة في صرح التاريخ ، وطال على الناس الأمد ومسد الدين القيم وبقي منه قشور ، فقال المنوك إن الملكية نزلت من السماء واتخذوا لأنفسهم عروشا تشبها بعرش الله ، وقالوا إنهم من نسل الإله وأنهم يحكمون الناس بذلك الحق الإلهي .

ونسجت الأساطير حول الله ، ثم اتخذ كل طامع في الملك لنفسه إلهها راح يدعو إليه ويفضله على سائر الآلهة ويدعى أنه رب الأرباب ، وسمع الناس لأول مرة في بابل عن مجمع الآلهة وعن الحروب التي تدار بين الأرباب في السماء ونسوا يوم البعث فقالوا إن الإنسان إذا مات يذهب إلى الأرض التي لا راحة فيها .

وعرفت عبادة الكواكب والنجوم ، وما كانت الكواكب تعبد لذاتها بل كانت ترمز إلى الآلهة والأسرة المقدسة ، وكان القمر في أرض العرب : في بابل وسورية وسيناء واليمن يرمز إلى رب الأرباب ، وكانت الشمس زوجها وأم الآلهة ، وكانت النجوم أبناء الإله وبناته ، وظل الحال كذلك إلى أن استولت أسرة حمورابي على بابل فرفعت معبودها مردوخ وكان يرمز إليه بالمشترى إلى مرتبة رب الأرباب ، وفي ذلك الوقت بعث الله إبراهيم الخليل رسولا إلى قومه ليتنشل البشرية من التردى في الشرك ، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور .

وراح إبراهيم يدعو الناس إلى الله في أرض العراق وفي سورية وفي مصر ، ثم أقام القواعد من البيت وإسماعيل في مكة ليكون مسارة للتوحيد في الأرض . ولحق إبراهيم بالرفيق الأعلى وقد نفخ في البشرية نفخة روحية دفعها دفعا في طريق تطورها التاريخي .

تكون حول بئر زمزم — بفضل إبراهيم وهاجر وإسماعيل — مجتمع جديد حمل لواء الإسلام الذي جاء به إبراهيم الخليل ، مجتمع لم يكن له تقاليد ولا أساطير ، لذلك ظل أكثر من ألف عام ليس له إله إلا الله رب العالمين . وقد أمد هذا المجتمع الهكسوس في سورية ومصر بمبادئ جعلتهم يتفوقون على الاراميين والفراعين ، وقام بنو إسرائيل حفدة إبراهيم الخليل في فلسطين يدعون الناس إلى الإسلام ، دين جدهم العظيم ، فما كان الغرور قد تملكهم بعد واعتقدوا أنهم وحدهم الناس ، فوطئوا بدينهم من حولهم ثم جاعوا إلى مصر لما من الله على يوسف الصديق وجعله رئيس وزرائها .

وأثرت دعوة يوسف وإخوته الروحية في سكان دلتا النيل ، وتسربت إلى طيبة معقل المصريين الأحرار الذين لم يخضعوا لحكم الهكسوس ، فتركت أثرها في دين الفراعين فوحدوا آلهتهم في إله واحد قادر هو آمون . وطال على الهكسوس العهد وتركوا دينهم بعد أن قتت المادية الطاغية في عضدهم وانتشر الغنى والفسق فيهم ، فكانوا يعيشون في مصر أمواتا قبل أن يهب المصريون لحربهم .

وقاد أحسن جنوده بعد أن شحنهم بشحنة إيمان عميقة بآمون ودارت الحرب بين الإيمان بآمون والضياح والفراع والتترف فانتصر الإيمان وطرد المصريون الهكسوس ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت (العديانوي)

الأرض .

وأخضع لمصريون سورية بفضل نعمة الإيمان التي ملأت جوارحهم وسرعان ما حبت تلك الخدوة وعاد الكهنة إلى بيع الأساطير لناس ، وفسد دين بنى إسرائيل الدين استقروا في مصر بعد طرد الهكسوس فسوا إسلامهم وعبدوا العجل وآلهة المصريين ، وازدهر الشرك الذي يردهر في ظله الغنى والظلم والفسوق ويبدأ به سوس الفساد يحر في صرح الحصار ، وبدا أن الأرض في حاجة إلى رساله من السماء تجدد شامها ، وتقرع الظالمين بقوارع من اعداب تعيد للمستضعفين إيمانهم بالله وتدفع ركب الحضارة دفعة إلى الأمام .

وجاء موسى عليه اسلام ليدعو الناس إلى الإسلام ويخرج بنى إسرائيل من الذل المهين ، وخرج موسى بنى إسرائيل من مصر وذهب لميقات ربه عند جبل الطور ، فلما عاد إلى قومه ألفاهم قد عادوا لعبادة العجل فعصب وثار واستغفر ربه ، ولكن الله حكم عليهم بالتيه في سيناء أربعين سنة .

وذهب موسى وبقيت تورااة الله في الأرض لتكون للمؤمنين هاديا وبراسا ، وقاد يوشع بن نون جيوش بنى إسرائيل وانتصر على الكنعانيين واستولى على فلسطين .

وعلى الرغم من وجود التورااة فقد عبد بنو إسرائيل آلهة الوثنيين ، عبدوا بعلا والآلهة الأخرى فكان الله يبعث إليهم أنبياءه ليعودوا إلى الإيمان قبل أن يذهبهم ويأتى بخلق جديد .

وقامت في العراق دولة آشور ، دولة مؤمنة باللهها آشور العطوف ، وكان موكلها علاط الأكباد بحاربون أعداء آشور ويكومون حمحم أعدائهم أهرا ما

ويعرقون الدور ويسلخون جلود أعدائهم وهم أحياء إرضاء لآلهتهم آشور
المطوف . وقد سلطهم الله على بني إسرائيل لكفرهم بعد أن جاءهم كتاب
منير ، وعلى بني إسماعيل الذين تركوا البيت المحرم وتفسحوا في الأرض
وعبدوا اللات والعزى وموتن وذا الشرى .

وانتهى دور آشور من التاريخ فما كانت لهم رسالة إلا تأديب من عادوا إلى
الظلمات بعد أن أخرجهم الله إلى النور ، ولكل أمة أجل فإذا جاء أجلهم فلا
يستأخرون ساعة ولا يستقدمون ^(١) . وقامت في بابل دولة بابل الجديدة
بفضل النفحة الروحية التي سرت بين ضلوع عباد مردوخ فقضت على دولة
آشور ، ثم سلطها الله على بني إسرائيل في أيام بختنصر لما استشرى الفساد في
الدولة التي رعمت أنها شعب الله المختار ، ففصح بختنصر أورشليم وأعمل القتل
في اليهود ، ثم حمل الرجال والنساء والولدان إلى بابل . وفي أرض المنفى راح
أخبار اليهود يعيدون كتابة التوراة بأيديهم وراح كل فريق يمجّد أسلافه دون
الاهتمام بالواقع التاريخي ، حتى إن الذين كتبوا سفر أشعيا لم يذكروا اسم
موسى على لسان نبيهم الصالح لأن موسى كان من اللاويين ، وكان الدين
خطوا سفر أشعيا بأيديهم من نسل يهوذا !

وجاء الدين بتشككون ويتكروا أحداث التاريخ التي لم تنقش على حجر
وقالوا إن موسى شخصية من نسج الخيال ، ولو كان حقيقة واقعة لحاء ذكره
على لسان أشعيا نبي بني إسرائيل الذي خلف وراءه نقائض مكتوبة !
وانتهى دور اليهود في التاريخ الروحي بعد أن أصاب العقم أخبار اليهود

وإن بقي دورهم السياسى الخبيث ، وأضاء نور الروح فى هضبة إيران فقد قام زرادشت بى الإبراسين يدعو الناس إلى عبادة الله وحده أهورا مزدا إله النور ، وفرض على الناس خمس صلوات وبشر بالبى العربى الذى سيبعثه الله فى جزيرة العرب ، فقال لأتباعه : « استمسكوا بما حثتكم به إلى أن يجيئكم صاحب الجمل الأحمر » .

وآس قورش حاكم فارس بالدين الجديد ، وسرت النصح الروحية فى صدور فلاحى إيران البسطاء فإذا بها تحيلهم إلى محاريب شجعان يجودون بأنفسهم فى سبيل دين الله وإعلاء كلمة أهورا مزدا .

واستطاع قورش بجيش المؤمنين أن يقصى على مملكة بابل ، وأن يفك أسر اليهود وأن يعيدهم إلى أورشليم ليعيدوا بناء هيكلهم المقدس الذى أحرقه بختنصر وقوضه . وأعاد اليهود بناء الهيكل ولكن الروح لم تعد تخفق فى جنبات بيت المقدس فقد زهقت منذ ذلك الوقت المقيت الذى زعم فيه اليهود أنهم وحدهم الناس وأن من عداهم أثم وأنهم شعب الله المختار ، وعبدوا أنفسهم غرورا .

وحملت النصح الروحية فلاحى إيران البسطاء إلى أقصى الأرض فاستولوا على العراق وسورية ومصر ، وجاهدوا ليسيظروا سلطان الله على العالمين . وطال على الإيرانيين الأمد وقست قلوبهم فانتهر المحوس (الكهنة) فرصة انكباب الناس على الدنيا وإقبالهم على الشهوات ليعيدوا سلطانهم بإحياء أساطير الأولين ، فقالوا إن أم زرادشت حملت به حملا إلهيا قدسيا ، فقد تسرب الملاك الذى يرعاه إلى بيات الهوما وانتقل مع عصارته إلى جسم كاهن حين كان يقرب القرايين المقدسة وفى الوقت نفسه دخل شعاع من أشعة

العظمة السماوية إلى صدر فتاة راسخة متناسقة في الشرف
وتزوج الكاهن بالفتاة وامتزج الحيسان الملاك والشعاع فنشأ زرادشت
من هذا المزيج ، فلما ولد قهقهه عاليا من أول يوم ولد فيه همرت من حوله
الأرواح الخبيثة التي تجتمع حول كل كائن وهي مضطربة وجلة .

أحب الوليد الحكمة والصلاح فاعتزل الناس وآثر أن يعيش في برية
جبلية ، وأن يكون طعامه الجبن وثمار الأرض . وأراد الشيطان أن يغويه
(وكما يقول المسيحيون لما ظهر الشيطان لنسيد المسيح : أن يجربه) ولكنه
أحرق وشق صدره بطعنة سيف ، وملكت أحشائه بالرصاص المنصهر فلم
يشك أو يتحمل بل ظل مستمسكا بإيمانه بأهورا مزدا الإله الأعظم .

وتجلى له أهورا مزدا ووضع في يديه (الأستاق) كتاب العلم والحكمة ،
وأمر أن يعطى الناس بما جاء به .

وفي غفلة من المؤمنين قال المجوس إن البار ابن أهورا مزدا إله النور وأطلقوا
عليه « آتار » . ولما كانت الشمس نار السماوات الخالدة فقد شرع المجوس
عبادتها وقالوا إنها أقصى ما يمثل فيها أهورا مزدا .

وكان لأهورا مزدا كما وصفه زرادشت سبع صفات هي النور والعقل
الطيب والحق والسلطان والتقوى والخير والحدود . ولما كان المجوس قد اعتادوا
عبادة أرباب مختلفين فقد فسروا هذه الصفات على أنها شخوص وبذلك
انقلب دين الوجدانية الرائع إلى دين فيه شركاء لأهورا مزدا إله النور الواحد
العظيم .

واستحال ما كان يتصف به أتباع زرادشت من نقشف ورهد إلى استمتاع
طليق ، وأصبح أكثر ما تهتم به الطبقات الأرستقراطية ملء بطونها بلذيت المأكـ

والمشرب . وشرع هؤلاء الرجال الذين فرضوا على أنفسهم من قبل ألا يتناولوا إلا وجبة واحدة من الطعام في اليوم يفسرون معنى الوجبة الواحدة بأنها وجبة تمتد من الظهر إلى غسق الليل ، فامتألت مخارن مؤنهم بكل ما لذ وطاب ، وكثيرا ما كانوا يقدمون الذبائح كاملة لضيوفهم ، وملثوا بطونهم باللحوم السميكة النادرة ، وتقصوا في ابتكار أنواع المشهيات واحلوى ، وامتألت البلاط الفرسى بالعانيات من اليهود اللائي كن يقدمن أنفسهن على مديح الشهوة لتمكين اليهود من تحريك ملوك الفرس في اتجاه مصالحهم ومآربهم .

وبدأت الشعلة الروحية التي أوقدها زرادشت تحبو في صدور الفرس ، وتمشي بين سواد الشعب الفساد ، وبدأ أن فارس بدأت تتحرر من الداحل وأن الله سيذهب هؤلاء الأقوام ليأتي بأقوام آخرين يحملون اشعلة الروحية إلى حين . ويدفعون ركب الحضارة خطوات على الطريق : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » (١) .

وقد يعجب بعض القراء من أي تعاملت مع زرادشت على أنه رسول كريم ولهم عذرهم ، فقد كان بعض المشتغلين بالدين يعتقدون واهمين أن الله حص الشعوب السامية بالرسالة والنبوة ، وهذا الرعم يدحضه القرآن الكريم :

« ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا المصاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فأنظروا كيف كان عاقبة المكذبين » (١) ، « ولكل أمة رسول فإذا جاء رسولهم قضى بينهم

بالفسط وهم لا يطمعون»^(١) ، « وإن من أمة إلا خلا فيها نذير»^(٢) وبناء على ما يقرره القرآن الكريم فليس هناك من سبب يحول بين أن يصطفى الله ررادشت لرسالته ، فالله يصطفى من يشاء من الملائكة ومن الناس لرسالته . وعلى ذلك فالعبرة بجوهر الدعوة لتي كان يدعو إليها ررادشت ، إنه كان يدعو إلى عبادة الله وحده خالق الكون والناس ورب الكون والناس رب العالمين ، وإياها دعوة كل الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده .

وفرض على المؤمنين شهادة أن لا إله إلا أهورا مردا إله النور العظيم ، وانصدت الخمس ، والتقوى ، والصدقة ، وحرمة الربا ، وقال إن الكفر رأس الخطايا كلها ، وحرمة عبادة الأصنام والأوثان وإقامة الهياكل ، ووعد المؤمنين بحبات عرصها السموات والأرض أعدت للمتقين ، وقال بالوعيد وإن جهنم مشوي للكافرين .

ولم يقل إن الله تجلى له بل قال كما قال الرسل والأنبياء إن الله كان يكلمه وحيا ، وأن « فاهومانا » أى كبير الملائكة هو الذى كان ينقل إليه أوامر الله كما قال الرسل والأنبياء من قبله ومن بعده أن جبريل الأمين كان الرسول بين الله ورسله وأنبيائه .

إن دعوة ررادشت دعوة إلى الوحدةانية الخالصة وإياها من نفس السبع الدي جاءت به كل الرسائل السماوية ، فإن كان « الأبستاق » كتابه الكريم قد عص بالرق والتعاويد والوشيات فقد أصاب ذلك المحوس من بعده ، وقد اعتوره التبديل الذى قاست منه التوراة أيام أن أعاد أخبار اليهود كتبها في أيام

المنفى ، وقد فطن المؤمنون بالتوراة في أيامنا هذه إلى ما في التوراة مما يتنافى مع جلال الرسالات فظالموا برفع شيد الإنشاد الذى ينسب إلى سليمان الحكيم من لكتاب المقدس ، ويا حدا لو قام المؤمنون برسالة زرادشت بتنقية « الأبتاق » مما فيه من الزيف عوضا عن عبادة النار والتراب والأرض والماء وتقديسها ، وعرض موتاهم في « أبراج الصمت » للطيور الجارحة كيلا تدس العاصر المعدسة بدنها في الأرض أو حرقها في الهواء .

محمدت الجدة الروحية التى أشعلها زرادشت في نفوس الفرس فراحت فارس الأخمينيين تترغ من الخمر والفسق والخور وتتظر مصيرها محتوم .

وقام في اليونان فلاسفة يدعون إلى توحيد الله وبذ الأرباب المختلفين وإلى مكارم الأخلاق وإقامه المدن الفاضلة ، وقد كان الإسكندر أول مؤس من دوى السلطان في جمهورية أفلاطون فقام يغزو العالم ليحقق حلم الحكومة العالمية .

اجتار الإسكندر مضيق الدردنيل دون أن يلقى مقاومة ، وحاول الجيش الفارسي أن يصد جيش الإسكندر عند نهر غرايقوس ولكن تلك المحاولة انتهت بانكسار الجيش الذى نخر فيه سوس الفساد ، وانهج الإسكندر جنوبا وشرقا يخضع بعض البلدان وعاد والتقى جيش الإسكندر وجيش دارا الثالث عند سوس ، وانتصر الجيش الذى كانت قلوب قواده عامرة بالإيمان ، انتصر الإسكندر على دارا انتصارا مؤزرا ففر دارا من الميدان فرار الأندل .

وراح دارا يجمع فنول جيشه ويغرى الجود المرتزقة بالمال أن تحارب معه ، والتقى الجمعان عند كواكميلا واستطاع الإسكندر أن يقضى على جيش دارا في يوم واحد وأن يطعن دولة الأخمينيين الطعة الأخيرة . « وما كان ربك

لهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون^(١) .

وانتشرت فتوح الإسكندر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولاح أن الدولة اعلمية التي كان يحلم بها وشبكة التحقيق ، ولكن الإسكندر مات وهو في طريق عودته من الهند إلى بابل ، ومات بموته حلم الفلاسفة في إقامة جمهورية المدينة الفاضلة .

وقسمت دولة الإسكندر بين قواده ، فقد كانت النفحة الروحية التي نفخها الفلاسفة في أرواح المريدين أو هن من تلك النفحة الروحية التي يعيها ابدن في نفوس معتقيه . ولم تطل تلك النهضة الروحية أكثر من عمر الإسكندر ، وارتدت البشرية إلى جمود الكهان ومجوس الفرس ووثنية البط وأرباب اليونان في جبل أولمب وآلهة المصريين من عجول وتيوس وقطط وثعابين . وراحت الحضارة تترقب قيام رسول كريم يخرجها من ظلمات المادية الطاغية إلى رحابة الروح .

وقامت في روما دولة الرومان وقد ارتكزت في نشأتها على دعامة الدين ، وانتشرت في الأرض تقضى على اليونان واليهود والنبط والمصريين والفرس ، وعلى مر الأيام ساد الظلم في الأرض واستعبد الإنسان ونشر الرومان الفسق واللواط في البلاد التي حصعت لهم ، وغرقت الحضارة في ظلمات المادة ، ومن خلال ذلك انبلى السرمدي أشرق نور السيد المسيح .

كانت المادية طاغية فكانت رسالة السيد المسيح روحية خالصة ليحدث التعادل بين المادة والروح ، فالنفحة الروحية ملح البشرية لا تصلح إلا بها ،

وراح السيد المسيح يدعو الناس إلى عبادة الله وحده وإلى التوبة : « نوبوا فقد اقترب الملكوت » وقال لهم إن الملكوت هو كلام الله على الأرض ، وراح يبشر برسول يأتي من بعده اسمه « البارقليط » .

وقد اختلف المسلمون والمسيحيون في ترجمة « بارقليط » وقد ترجمت جمعية التوراة الأمريكية هذه الكلمة « بالمعزى » وترجمها علماء المسلمين منذ آمام بعيدة « بأحمد » ، وقد جاء في كتاب « محمد رسول الله في بشارات الأنبياء » للأستاذ محمد عبد القادر الهاشمي الأفغاستاني بارقليط = كسلاتر في اللاتينية ، وباركلتس في الرومية ، وبارقليط وباركلي توسى وبيركلى توسى في الرومية ، وفارقليط في السريانية ، وبارقليطون في اليونانية ، وبارقلوطون أصل يونانية ، وخلص إلى أن اللفظ في السريانية واليونانية بمعنى أحمد ومحمد ومحمود .

وقال أحد النقاد المسيحيين الأفاضل عندما كان يقد كنانى « المسيح عيسى بن مريم » : إنه رجع إلى القاموس اليونانى وبحث عن معنى « براقليط » فوجد أنها تعنى من يدافع عن آخر يوم الديونة ، ومن يشفع لآخر يوم الديونة ، ولم يقل سيادته باختصار « الشفيع » .

« وإذا قال عيسى بن مريم يا بنى إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدي من التوراة ومبشرا برسول يأتي من بعدى اسمه أحمد » (٢)

ورفع السيد المسيح من الأرض بعد أن بذر فيها بذرة روحية قوية قادرة على أن تطور البشرية وتدفعها أشواطاً في طريق رقيها ، واستمر قياصرة روما

في غزو سورية ومملكة النبط وإسرائيل وأرض اليهودية ، ونجح الرومان في إزالة إسرائيل والقضاء على النبط يسا كان الدين الذي جاءهم من سورية يغزو قلوب الرومان .

واعتنق الرومان ذلك الدين الذي دعاهم إليه بولص ، وكان مزيجا من الدين والفلسفة وأساطير الأولين . وانقسم أتباع ذلك الدين إلى طوائف وشيع وانقلبت الوحشية الرائعة التي جاء بها السيد المسيح — كما قال « ول ديورنت » في كتابه قصة الحضارة — لدى عمة الشعب شركا ؛ وطال على الناس العهد فقسفت قلوبهم وعبدوا ما كان يعبد آباؤهم قبل أن يهتدوا إلى الدين القيم .

وانعشت مرة أخرى ديانة ررادشت في فارس فقامت على أكتافها دولة الساسانيين التي راحت تتاوى الرومان ، وقامت بين فارس وروما حروب ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .

وكانت مكة في ذلك الوقت سارة التوحيد ، ظلت على دين إبراهيم الخليل ولكن المكين قد جلبوا أصنام الشعوب التي كانوا يتاجرون معها ووضعوها في جوف الكعبة وقالوا إنها باتت الله وإلهن يشفعن إليه ، وبذلك سادت الجاهلية في الأرض .

وظهر الفساد في البر والبحر ، وجثم الظلم على أنفاس الناس ، وهذا أن العالم في حاجة إلى انتفاضة روحية وإلى أسوة حسنة تحتقر المادية التي أصبحت إله العالم ، فبعث الله رسوله محمدا ﷺ يدعو الناس كافة إلى الإسلام وأنزل عليه قرآنه ليكون نبراسا للناس إلى يوم الدين .

وانتصر الإسلام بفضل النعمة الروحية التي عمرت بها أئمة المؤمنين على

المرس والرومان . « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » (١)
 « تلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا » (٢) .

واستمر ركب التاريخ في سيره ، تقوم الدول بانتفاضات روحية وتموت
 الدول بالإغراق في اامادة والترف والفسق والفجور . تلك سنة الله في خلقه
 ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وقبل أن أحتتم هذا التذييل أحب أن أشير مره أخرى إلى الصعوبة التي
 يعانها كاتب تاريخ هذه الحقبات ، في معرفة الأسماء العربية الصحيحة للملوك
 الدول التي تتصارع على مسرح الحياة لتكوين مادة قصة الحضارة ، وقد
 قاسيت كثيرا لمعرفة أسماء ملوك الببط ، فقد ذكر الدكتور جواد على في كتابه
 « العرب قبل الإسلام — الجزء الثالث » أن زعيم العرب الذي ورد اسمه في
 التوراة لما نشبت العداوة بين النبط والمكانيين هو ملك الببط « الحارث »
 أو « حارثة » الأول ، وقد سمي باسم احارث الثاني والثالث والرابع . وقد
 وجدت أن ابن خلدون يدعوه « هرثة » بينما يدعوه « يوسفوس » هرمة ،
 وقد طاف بذهني أن هرمة قد يكون في الأصل خزيمة وكدت أركن إلى هذا
 الظن ولكنني رأيت أن آخذ بما قاله ابن خلدون فأطلقت اسم هرثة على ملوك
 النبط الذين أطلق عليهم الدكتور جواد على « الحارث أو حارثة » الأول
 والثاني والثالث والرابع .

وقد اختلف الإخباريون العرب في قريش فقال فريق منهم : قريش هم بنو
 النضر بن كندة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر ، فكل من كان من ولد
 المضر فهو قرشي ، دون بني كنانة ومن فوقه .

وقال فريق : إن قريشا بنو فهر بن مالك بن النضر ، فكل من لم يلدده فهو

ليس بقرشى .

وقد أخذت بالقول الأول لأنه أصح وأثبت ، فقد روى عن النبي ﷺ أنه قال : « أنا ولد النضر بن كنانة ، لا تقفوا أمتا ولا تنتفى من أمتنا » .

وقيل إن التقريش هو الاكساب ، وتقرشوا تجمعوا ، وقد أخذت بالقول القائل إن النضر قد جمع العدنانيين في الحرم بعد أن كانوا متفرقين في الأرض ، ولعل ذلك حدث بعد أن هزم الرومان النبط وفر النبط من اضطهاد الذين استبدوا بهم وقيدوا حرياتهم .

ورأى أن تاريخ هذه الحقبة لن يتضح قبل أن يبيط الباحثون اللثام عن وجه حضارة النبط ، وأن القليل الذى اكتشف في البتراء قد كشف عن حقائق كانت مغسورة في الأساطير ، فقد كان الإخباريون يقولون : كانت هناك صخرة يلت عليها السويق للحجاج رجل من ثقيف وكانت تسمى صخرة اللات (أى الذى يلت العجين) فلما مات هذا الرجل قال لهم عمرو بن لحي : إنه لم يميت ولكن دخل في الصخرة ، وأمرهم بعبادتها وأن يبنو عليها بيتا يسمى اللات .

أما الآن فقد عرف أن اللات كانت الإيلات وكانت تعبد في أرض النبط على أنها زوجة الإله « الإيل » ، وقد نطقت الليلات ثم اللات ، وكان يرمز إليها بالشمس ، ويوم يكتشف تاريخ النبط — وهم أصل القرشيين كما قال ابن عباس : « نحن معاشر قریش من النبط » سنعرف الكثير عن نشأة لغة القرآن وعن عادات القوم وآهتهم عوضا عن الأساطير التى تفيض بها كتب الإخباريين والمؤرخين العرب .

المراجع

القرآن الكريم

الكتاب المقدس

صحيح البخارى

تاريخ الأمم والملوك

شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام

مختصر دراسة للتاريخ

للطبرى

للمحافظ أبى الطيب الفاسى

تأليف أرنولد توينبى

ترجمة فؤاد محمد شبل

تأليف ول ديورانت

ترجمة محمد بدران

الدكتور جواد على

حامد عبد القادر

تأليف محمد عبد الغفار الهاشمى

إبراهيم خليل أحمد

لابن هشام

للأئوسى البغدادى

لابن قتيبة

لعباس محمود العقاد

قصة الحضارة

تاريخ العرب قبل الإسلام

زوائد الحكيم

محمد رسول الله فى بشارات الأنبياء

محمد ﷺ فى التوراة والإنجيل والقرآن

السيرة النبوية

بلوغ الأرب

عيون الأخبار

حياة المسيح

The Jew of Tarsus.

Hugh J. Schonfield.

The Jewish Background of the Christian Liturgy,

Oesterley.

From Jesus to Paul,

Klausner..

محمد رسول الله والذين معه

- | | |
|-------------|---------------------------|
| أكتوبر ١٩٦٥ | ١ — إبراهيم أبو الأنبياء |
| مارس ١٩٦٦ | ٢ — هاجر المصرية أم العرب |
| سبتمبر ١٩٦٦ | ٣ — بنو إسماعيل |
| فبراير ١٩٦٧ | ٤ — العدنانيون |
| مايو ١٩٦٧ | ٥ — قريش |
| يوليو ١٩٦٧ | ٦ — مولد الرسول |
| أكتوبر ١٩٦٧ | ٧ — اليتيم |
| يناير ١٩٦٨ | ٨ — خديجة بنت خويلد |
| مارس ١٩٦٨ | ٩ — دعوة إبراهيم |
| يونية ١٩٦٨ | ١٠ — عام الحزن |
| سبتمبر ١٩٦٨ | ١١ — الهجرة |
| نوفمبر ١٩٦٨ | ١٢ — غزوة بدر |
| يناير ١٩٦٩ | ١٣ — غزوة أحد |
| مايو ١٩٦٩ | ١٤ — غزوة الخندق |
| يونية ١٩٦٩ | ١٥ — صلح الحديبية |
| نوفمبر ١٩٦٩ | ١٦ — فتح مكة |
| فبراير ١٩٧٠ | ١٧ — غزوة تبوك |
| مايو ١٩٧٠ | ١٨ — عام الوفود |
| نوفمبر ١٩٧٠ | ١٩ — حجة الوداع |
| ديسمبر ١٩٧٠ | ٢٠ — وفاة الرسول |

رقم الإيداع ٢١٩١
الترقيم الدولي X-١١٧-٣١٦-٩٧٧